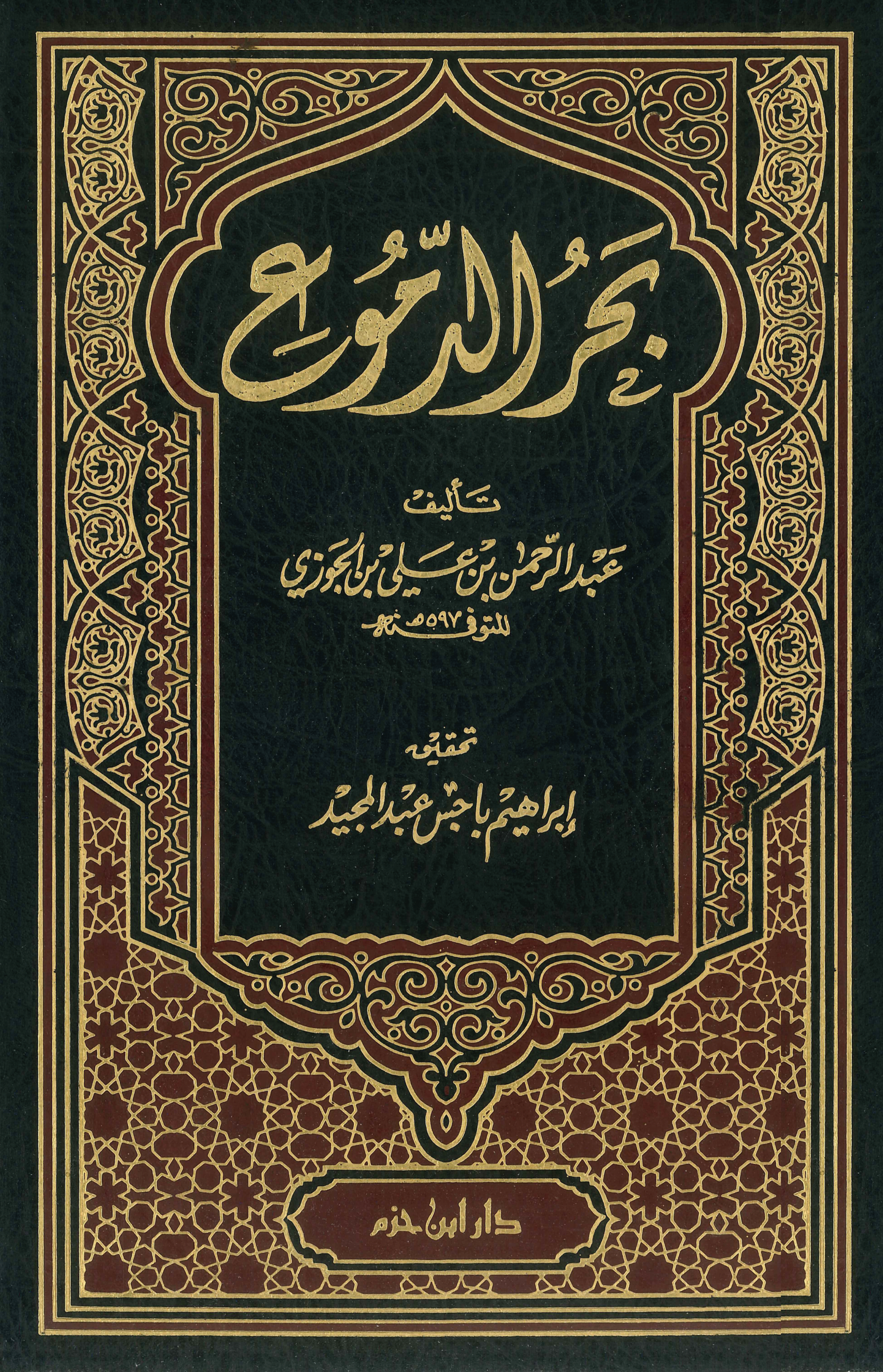


بحر الدموع
تأليف
عبد الرحمن بن علي بن الجوزي
المتوفى سنة ٥٩٧هـ
تحقيق
إبراهيم باجس عبد المجيد
دار ابن حزم

بَحْرُ الدُّمُوع



﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

[يوسف: ١٠١]

بحر الدموع

تأليف

عبد الرحمن بن علي بن الجوزي

المتوفى ٥٩٧ هـ

تحقيق

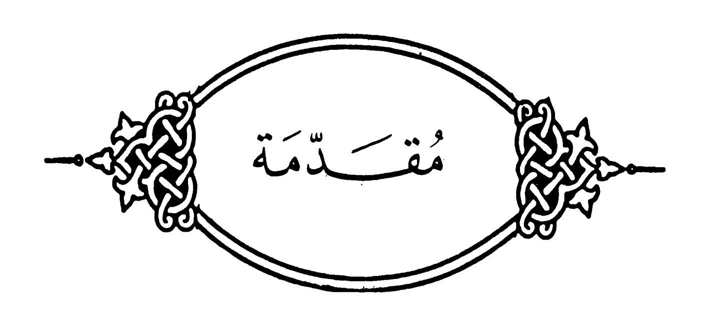
إبراهيم باجس عبد المجيد

دار ابن حزم

الطبعة الثالثة
طبعة دار ابن حزم الأولى
١٤١٨هـ/١٩٩٨م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤



الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين...

أما بعد، فهذا كتاب آخر من كتب الإمام الواعظ الحافظ المفسر أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، يطبع للمرة الأولى، وأرجو الله أن يعمَّ به النفع، وأن يجزل لي المثوبة في الآخرة، ودعاء المسلمين في الدنيا.

وقد عملت في هٰذا الكتاب على تخريج النصوص الواردة فيه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، كما عملت على تقويم النص وتصحيحه، ذلك كله بعد المقابلة بين الأصول الخطية للكتاب.

وقد واجهتني صعوبات كثيرة في ذلك عائدة إلى عدة أسباب منها:

١ ــ إيراد المصنف لكثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والحكايات المستغربة والمستهجنة عن أهل الكتاب وغيرهم من الزهاد، في كتبه الوعظية، وكثير من هذه الأحاديث والحكايات قدح فيها المؤلف رحمه الله في كتبه الأخرى مثل كتاب «الموضوعات» وكتاب «العلل المتناهية»، وشنَّع على رواتها.

وأصبحت مقولة من يترجم لابن الجوزي أنه متشدِّدٌ في نقد

الأحاديث، متساهل في إيرادها في كتبه والاستشهاد بها.

قال ابن الأثير في «الكامل في التاريخ» (٢٢٨/١٠) في ترجمة أحمد بن محمد الغزالي الواعظ: وقد ذمَّه أبو الفرج بن الجوزي بأشياء كثيرة، منها روايته في وعظه أحاديث غير صحيحة، والعجب أنه يقدح فيه بهٰذا، وتصانيفه هو ووعظُه محشُوٌّ به، مملوءٌ منه.

٢ ـ إيراد الأحاديث النبوية على المعنى، وليس بألفاظها ونصوصها الواردة فيها، حتى لو كانت في الصحيحين.

٣ ـ تلفيق الأحاديث، والدمج بين أكثر من حديث، وإيرادها وكأنها حديث واحد، وقد يكون قسم منها في الصحيحين، وقسم آخر من الأحاديث الموضوعة، أو التي لا أصل لها، أو غير موجودة في مصادر الأحاديث المتيسرة بين يدي.

٤ ـ وجود الكثير من الأخطاء اللغوية في الكتاب، وغالبها لملائمة السجع بين العبارات. وقد أبقيت على هٰذه الألفاظ في كثير من الأحيان كما وردت دون تغيير مراعاة للسجع كما وضعها المصنف.

وأخيراً، هٰذا كتاب آخر من مصنفات الإمام العلامة ابن الجوزي أقدمه لإخواني المسلمين، وأرجو الله سبحانه أن أكون قد وفقت في إخراجه، وأن ينفعني والمسلمين به، وأن يجزي عنا مؤلفه خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب أبو مالك

إبراهيم باجس عبد المجيد

يوم الأربعاء في غرة محرم ١٤١٣ هـ



اسمه ونسبه:

هو الشيخ الإمام العلامة الحافظ المفسِّر المحدث، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد، البكـري التيمي، ينتهي نسبه إلى الخليفة الراشدي الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

ولادتـه:

ولد رحمه الله سنة تسع أو عشر وخمسمائة، وقال أخوه: إنه ولد سنة ثمان وخمسمائة.

شيوخـه:

بدأ ابن الجوزي طلب العلم صغيراً، فسمع على كثيـر من شيوخ عصره في مختلف العلوم، ومنهم:

علي بن عبدالواحد الدينوري، وأبي الوقت السِّجْزِي، وابن ناصر، والقاضي أبي يعلى الفرَّاء، وأبي الحسن بن الزاغوني، وابن البَطِّي.

وقد خرَّج عنهم «مشيخة»، وهي مطبوعة.

تلاميـذه:

كما أخذ عنـه العلم عدد جَمٌّ من أكـابر معـاصريـه، منهم: ولداه محيي الـدين يـوسف، وعلي، وسبـطه شمس الـدين يـوسف بن قـزغلي،

والحافظ عبدالغني المقدسي، وموفق الدين ابن قدامة المقدسي، وابن الدبيثي، وابن النجار، وابن عبدالدائم، وآخرون.

مصنفاته[1]:

برع ابن الجوزي رحمه الله في مختلف العلوم، وما ترك فنّاً إلاَّ وصنَّف فيه، ما بين مجلدات ضخام أو جزء صغير، وزادت مصنفاته على ثلاثمائة مصنف، نذكر منها:

* **في القرآن وعلومه**: المغني، زاد المسير، فنون الأفنان في علوم القرآن، تيسير البيان في تفسير القرآن، عمدة الراسخ في معرفة المنسوخ والناسخ.

* **في الحديث وعلومه**: جامع المسانيد، الموضوعات، العلل المتناهية، الضعفاء.

* **في الفقه**: مسبوك الذهب، الإنصاف في مسائل الخلاف، درء الضيم في صوم يوم الغيم، تحريم المتعة.

* **الأصول**: العدة، منهاج الوصول إلى علم الأصول، منهاج أهل الإصابة.

* **التاريخ**: المنتظم، مثير عزم الساكن إلى أشرف الأماكن (في تاريخ مكة والمدينة).

* **التراجم**: صفة (صفوة) الصفوة، الوفا بفضائل المصطفى، أسد الغابة في معرفة الصحابة، مناقب: عمر بن الخطاب، عمر بن عبدالعزيز، سعيد بن المسيب، الحسن البصري، الشافعي، أحمد بن حنبل.

---

(١) جمعها الأستاذ عبدالحميد العلوجي وبيّن أسماءها والمطبوع منها من غير المطبوع، مع ذكر أماكن وجود النسخ الخطية لهذه المصنفات في مكتبات العالم.

* **الوعظ**: اليواقيت في الخطب، نسيم الرياض، المدهش، تحفة الوعاظ، المنهل العذب، الحدائق لأهل الحقائق، بحر الدموع، وهو هٰذا الكتاب.

صفاتـه:

كان رحمه الله ورعاً، زاهداً في الدنيا، متقلِّلاً منها، لا يأخذ شيئاً إلا بعد التيقُّن من حِلِّه، قوي البديهة، حاضر الذهن، جريئاً في الحق.

قال للأمير يوماً: يا أمير، اذكر الله عند القدرة عدل الله فيك، وعند العقوبة قدرة الله عليك، ولا تشفِ غيظك بسقم دينك.

وقال للخليفة: يا أمير المؤمنين، إن تكلمت خفت منك، وإن سكتُّ خفتُ عليك، وأنا أقدم خوفي عليك على خوفي منك، فقول الناصح: اتقِّ الله، خير من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم.

وعظـه:

بدأ ـ رحمه الله ـ الوعظ صغيراً، وهو في العاشرة من عمره، وقد وصل إلى مرتبة لم يصلها أحد قبله، ولا وصلها أحد بعده.

قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢١/٣٦٧): كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويُسهب ويعجب، ويُطرب ويُطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله، فهو حامل لواء الوعظ والقَيِّمُ بفنونه، مع الشّكل الحسن، والصوت الطيب، والوقع في النفوس وحُسْنِ السيرة.

وقال أيضاً (٢١/٣٧٠): كان ذا حظٍّ عظيم، وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة الكبراء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة.

وقال عنه موفق الدين ابن قدامة: إمام أهل عصره في الوعظ.

وفـاتـه:

أجمعت المصادر التي ترجمت له أن وفاته كانت سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وكان يوم وفاته مشهوداً، وحضر جنازته خلقٌ لا يحصون كثرة. رحمه الله ورضي عنه.



وصف النسخ الخطية للكتاب

كما قدمنا قبلُ، فإن للمصنف رحمه الله مئات المؤلفات، ما بين رسالة صغيرة، ومجلدات ضخام، طُبع بعضها والبعض الآخر لم يطبع، والكثير الكثير منها مفقود، لذا كان من الصعب على من ترجم لابن الجوزي حصر مؤلفاته كاملة، وقد اجتهد في ذلك الأستاذ عبدالحميد العلوجي، فذكر الكثير منها اعتماداً على المصادر التي ترجمت للمؤلف.

ومما ذكره من مؤلفاته: هذا الكتاب، فأورد ما ذكره المستشرق الألماني بروكلمان في كتابه «تاريخ الأدب العربي»، حيث ذكر نسختين للكتاب فقط، الأولى في باريس، والثانية في مكتبة الإسكندرية، برقم ٧ مواعظ.

وقد وفقني الله سبحانه في الحصول على نسخة باريس من خلال مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، حيث يحتفظ بمصورات فيلمية عن مخطوطات هذه المكتبة كاملة.

أما نسخة الإسكندرية فقد أعيتني الحيلة في الحصول على صورة منها، وقد عوضني الله ما هو خير، حيث وفقت في الحصول على نسختين أخريين للكتاب غير تلكم التي ذكرها بروكلمان، إحداها من المغرب، والثانية من السعودية، وهٰذا وصف مختصر للنسخ المعتمدة في التحقيق:

١ ــ نسخة فرنسا:

محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس برقم ١٢٩٧، وتقع في ٧٧ ورقة، في كل ورقة ٢٩ سطراً، وهي نسخة جيدة وقليلة الخطأ.

٢ ــ نسخة المغرب:

محفوظة بمكتبة الرباط برقم ٢٥٢٢ كتاني، وهي أيضاً نسخة جيدة ونفيسة عليها في عدة مواضع أختام تملك باسم عبدالحي الكتاني وعدد أوراق هذه النسخة (٧٩) ورقة، في كل منها (٢٤) سطراً.

٣ ــ النسخة السعودية:

محفوظة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض، تحت رقم ٩٣٢ تصوف، وتقع في ٧٩ ورقة، في كل ورقة ٢٣ سطراً، وقد كتبت سنة ١١٦٠ هـ.

وهٰذه النسخة كثيرة السقط والخطأ، غاية في السقم بين أخواتها من نسخ هذا الكتاب، بل بين مئات المخطوطات التي اطلعت عليها في مختلف الفنون، حيث قام بكتابتها ناسخ جاهل، وقرأها بعده من هو أجهل منه، فقام بتبديل خطأ الناسخ إلى خطأ أفحش منه، لذا كثر فيها التصحيف والتحريف بشكل عجيب، ولم أثبت ذلك إلاّ في موضع واحد للدلالة على ذلك[١].

وهناك نسخة رابعة محفوظة في مجموعة يهودا بجامعة برنستون تحت رقم ٢١٠٦، ورقم عام ٣٩٦٠، وتقع في ١١٨ ورقة في كل منها ١٩ سطراً، ونُسخت سنة ١١٢٢ هـ، لم أوفق في الحصول عليها، يسر الله ذلك.

---

(١) ص ٣٨.

وقد اتخذت نسخة باريس أصلاً في نسخ الكتـاب، ثم قابلت بين النسخ المختلفة، وأثبت ما ارتأيته صواباً دون الإشارة إلى اختلاف النسخ إلَّا نادراً.



قال الشيخ الفقيه الإمام العالم أبو محمد عبدالرحمن بن علي الجوزي رحمه الله تعالى، ورضي عنه بمنه وكرمه:

الحمد لله الذي اخترع الأشياء بلطيف لطائف قدرته، وبديع صنعته، فأحسن فيما اخترع، وأبدع الموجودات على غير مثال، فلا شريك له فيما ابتدع، ألَّف بين اللَّطيفِ والكثيف مِنْ أعداد آحاد الجوهر وجمع، لِيُقَرَّ له بالوحدانية، ويُستَدلَّ على وجود الصَّانعِ بما صنع، فالعارفُون واقفون تحت مطارفِ اللَّطائف بأقبية أبنية التوبة والورع، ليس لقلوبهم مجالٌ في ميدان الكبرياء على أن حِماه رَحْبٌ متَّسع، فهم إن مَالُوا إلى نَيْلِ مطلوبهم، ردَّهم قهرُ الهيبة إلى مفاوزِ الخوف والجزع، وإن همُّوا بالذَّهاب عَنِ الباب، عاقهم قيودُ الغيب، فعزّ عليهمُ الرجوع وامتنع.

فمنهم كاتمٌ محبَّته قد كفَّ شكوى لسانه وقطعْ
ومنهم بائحٌ يقول إذا لام عَذُولٌ: ذرِ الملامَ وَدَعْ
أليس قلبي محل محنته وكيف يخفى ما فيه وهو قطع
أينَ المحبُّون والمحبُّ لهم وأين مَنْ شتَّتَ الهوى وجمع
لهم عيونٌ تبكي فوا عجباً لِجَفْنِ صبٍّ إذا هما ودمع!
قد حرَّموا النَّوم والمتيَّمُ لا يهوى هُجوعاً إذا الخليُّ هجعْ
بالباب يبكون والبكاءُ إذا كان خليَّاً مِنَ النِّفاق نَفَعْ

تشفعُ فيهم دموعُهم وإذا شفع دمعُ المتيَّمين شَفَعْ

فبينما هم حَيارَى بين الخوف والجزع، سُكارى مِنْ شراب اليأس والطمع، إذ بزغ عليهم قمَرُ السَّعادة مِنْ فَلك الإرادة في جوانب قلوبهم ولمع، وأُفيض عليهم من ملابس سنادِس الاستيناس والبُسط خلع، لِكل خُلعة علمان من الإيمان، ما زُيِّن بهما بَشَر، إلا ارتفع، رَقْمُ العلم الأيمن: ﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ورَقمُ العلمِ الأيسرِ: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فسبحان من يتوب على الجاني، ويقبل العاصي إذا تاب إليه ورجع.

وأشهد أن لا إله إلاَّ اللَّهُ وحدَه لا شريك له، شهادةَ مَنْ أقَرَّ له بالوحدانية، واعترف له بالرُّبوبية والألوهية، ولعزِّ جلاله وجماله قد خضع.

وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، الذي سنَّ السُّنن، وبيَّنَ الفرائضَ، وشرَع الأعياد والجُمَع، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما ركد الماء ونبع، وظهر في ميدان سطح السَّماء نجمٌ وطلع، وسلم تسليماً كثيراً.

قال الله العظيم: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في ملأٍ، ذكرتُه في ملأ خيرٍ منه، وإن ذكرني في نفسه، ذكرتُه في نفسي، وإن تقرَّب إليَّ شبراً، تقرَّبتُ منه ذراعاً، وإن تقرَّبَ إليَّ ذراعاً، تَقَرَّبتُ منه باعاً، وإن أتاني مشياً، أتيته هرولةً»(١).

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم(٢٦٧٥) باختلاف في اللفظ.

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَجَزَ منكم عن اللَّيلِ أن يكابدَه، وجَبُنَ عَنِ العدُوِّ أنْ يقاتله، وبَخِلَ بالمال أن ينفقَه، فليكثر ذكر الله تعالى»[1].

وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: خرج علينا رسولُ الله ﷺ ونحن في مسجد المدينة، فقال: «إنَّ لله تعالى سرايا مِنَ الملائكة تجول، وتقف على مجالس الذِّكرِ في الأرض، فإذا رأيتم رياضَ الجنَّة، فارتَعُوا».

قالوا: وما رياضُ الجنَّة يا رسولَ الله؟ قال: «مجالسُ الذِّكر، اغدُوا وروحوا في ذكر الله تعالى، ومَنْ كان يحبُّ أن يعلم منزلَته عنْدَ الله تعالى، فلينظر كيفَ منزلةُ الله عندَه، فإنَّ الله ينزلُ العبدَ حيث أنزلَه مِنْ نفسِه»[2].

وقال عبدالله بن بُسر: أتى رجلٌ إلى رسول ﷺ فقال: يا رسول الله، إنَّ شرائع الإسلام كثرت علي، فأمرني بشيءٍ أتشبَّثُ به، فقال: «لا يزالُ لسانُك رطباً مِنْ ذِكرِ اللَّه تعالى»[3].

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من يوم إلا وبقاعُ الأرضِ

---

(١) حديث ضعيف، رواه الطبراني (١١١٢١)، والبزار (٣٠٥٨)، والخرائطي في «الشكر» (٢٦). وقد بينت ضعفه في «جامع العلوم والحكم» ١/٧٠.
ثم إني وجدت له شاهداً من حديث ابن مسعود موقوفاً، أخرجه الحسين المروزي في زيادات «الزهد» لابن المبارك (١١٣٤)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٩٩٠). قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/٩٠: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه أبو يعلى (١٨٦٥)، والبزار (٣٠٦٤)، وصححه الحاكم ١/٤٩٤، وضعفه الذهبي في «تلخيص المستدرك».
وروى قوله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة...» من حديث أنس: أحمد ٣/١٥٠، والترمذي (٣٥١٠)، وقال: حسن غريب.

(٣) رواه أحمد ٤/١٨٨ و ١٩٠، والترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣)، وصححه ابن حبان (٨١٤)، والحاكم ١/٤٩٥، ووافقه الذهبي. وانظره مع شرحه في «جامع العلوم والحكم» ٢/٥١٠ ـ ٥٣٥ بتحقيقي.

تنادي بعضها بعضاً: يا جارة، هل جاز عليك اليوم ذاكرُ الله تعالى»[1].

إخواني، إذا صعِدتِ الملائكةُ مِن مجالس الذكر، قال المولى جل وعلاه: يا ملائكتي، أين كنتُم ـ وهو أعلم ـ فيقولون: يا ربَّنا، أنت أعلمُ، كنَّا عندَ عبادِك يُسبِّحُونَك ويقدِّسُونك ويعظمونك ويُمَجّدونَك ويسألونك ويستغفرونك ويستعيذونَك، فيقول: يا ملائكتي، وما الَّذي طلبوا؟ وممَّا استعاذوا؟ فيقولون: يا ربَّنا، أنت أعلمُ، طلبوا الجَنَّة، واستعاذوا مِنَ النَّارِ، فيقولُ: يا ملائكتي، اشهدُوا أنِّي قد أعطيتُهم ما طلبوا، وأمنتهم ممَّا خافوا، وأُدخلهمُ الجَنَّةَ برحمتي[2].

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أن الله تبارك وتعالى يقول: «عبدي، اذكرني ساعةً بالغُدُوِّ وساعةً بالعَشِيِّ، أكفِكَ ما بينهما»[3].

وفي بعض الكتب المنزَّلةِ أنَّ الله تبارك وتعالى يقول: يا ابن آدم ما أجبركَ! تسألُني، فأمنعُكَ لعلمي بما يُصلِحُك، ثم تُلِحُّ عليَّ في المسألة، فأجودُ برحمتي وكرمي عليك، فأعطيك ما سألتَني، فتستعين بما أعطيك على معصيتي، فأهمُّ بهتك سترِك، فكم مِنْ جميلٍ أصنعه معك، وكم من

---

(١) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٣٥)، والطبراني في «المعجم الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» ٢/٦ عن أنس بن مالك موقوفاً بإسناد ضعيف.
وروواه ابن المبارك (٣٣٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥٤٢) عن ابن مسعود موقوفاً بلفظ: «إن الجبل يقول للجبل...»، ورجاله رجال الصحيح، كما قال الهيثمي في «المجمع» ١٠/٧٩.
وروواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» ٣/١٤٧ ـ ١٤٨ من قول محمد بن المنكدر بنحوه.

(٢) انظر البخاري (٥٥)، ومسلم (٦٣٢).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة بلفظ: «يا ابن آدم، اذكرني بعد الفجر وبعد العصر ساعة، أكفك ما بينهما». ورواه ابن المبارك في «الزهد» عن الحسن البصري مرسلاً.

قبيحٍ تعملُه معي. يوشِكُ أن أغضبَ عليك غضبة لا أرضى بعدها أبداً.

وفي بعض الكتب المنزلة أيضاً: يقول الله تبارك وتعالى: عبدي، إلى كم تستمر على عصياني، وأنا غذَّيتُك برزقي وإحساني، أما خلقتُكَ بيدي؟ أما نفختُ فيك مِنْ روحي؟ أما علِمتَ فعلي بمن أطاعني، وأخذي لمن عصاني؟ أما تستحي تذكُرني في الشَّدائد وفي الرخاء تنساني؟ عينُ بصيرتك أعماها الهوى. قل لي بماذا تراني، هٰذا حال من لم تؤثر فيه الموعظة، فإلى كم هٰذا التَّواني؟ إنْ تُبتَ مِنْ ذنبك، آتيتُك أماني. اترُك داراً صَفْوُهَا كدر، وآمالُها أماني. بِعْتَ وصلي بالدُّون، وليس لي في الوجودِ ثاني. ما جوابُك إذا شَهِدَتْ عليكَ الجوارحُ بما تسمع وترى ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأنشدوا:

تعصي الإلٰـه وأنت تـزعُم حبَّـه   هـذا محـالٌ في القيـاس بـديـعُ
لـو كـان حبُّـكَ صـادقَـاً لأطعْتَـه   إنَّ المحبَّ لمـن يحبُّ مـطيـعُ

قال مالك بن دينار: دخلت على جارٍ لي وهو في الغمـرات يعاني عظيمَ السَّكَراتِ، يُغمى عليه مرَّةً، ويفيقُ أخرى، وفي قلبه لهيبُ الزَّفرات، وكان منهمكاً في دنياه، متخلِّفاً عن طاعة مولاه، فقلت له: يا أخي، تُبْ إلى الله، وارجع عن غِيِّكَ، عسى المولى أن يشفِيكَ مِنْ ألَمِكَ، ويعافيك مِنْ مرضِك وسقمِك، ويتجاوز بكرمِه عن ذنبك. فقال: هيهات هيهات! قد دنا ما هُو آت، وأنا ميتٌ لا محالةَ، فيا أسفي على عمرٍ أفنيته في البطالة. أردتُ أن أتوبَ ممَّا جنيتُ. فسمعت هاتفاً يهتف من زاوية البيت: عاهدناك مِراراً، فوجدناك غدَّاراً.

نعوذ بالله من سوء الخاتمة، ونستغفره مِنَ الذُّنوب المتقادمة.

يا أخي، أقبِلْ على قِبْلَةِ التوجُّه إلى مولاك، وأعرِض عَنْ مواصلة غيِّك وهواك، وواصل بقيَّة العمر بوظائف الطَّاعات، واصبِر على ترك عاجلِ الشَّهواتِ، فالفرارَ أيها المكلَّفُ كلَّ الفرارِ من مواصلة الجرائم والأوزارِ، فالصَّبرُ على الطَّاعة في الدنيا أيسرُ مِنَ الصَّبرِ على النَّارِ.

وأنشدوا:

أمولاي إنِّيَ عبدٌ ضعيف ... أتيتُكَ أرغبُ فيما لديكَ
أتيتُكَ أشكو مصابَ الذُّنُوبِ ... وهل يُشتكى الضُّرُّ إلَّا إليكَ
فَمُنَّ بعفوِكَ يا سَيِّدي ... فليس اعتماديَ إلَّا عليكَ

قال بعض السَّادة الأخيار لولده لما حضرته الوفاة: يا بني، اسمع وصِيَّتي، واعمل ما أوصيك به. قال: نعم يا أبتِ. قال: يا بنيَّ، اجعل في عُنقي حبلاً، وجرَّني إلى محرابي، ومرِّغ خدي على التُّراب، وقل: هٰذا جزاءُ مَنْ عصى مولاه، وآثرَ شهوَته وهواه، ونام عن خدمة مولاه. قال: فلما فعل ذٰلك به، رفع طرفَه إلى السَّماء، وقال: إلٰهي وسيدي ومولاي، قد آنَ الرَّحيلُ إليك، وأزِفَ القُدومُ عليك، ولا عُذْرَ لي بين يديك، غير أنَّك الغفورُ وأنا العاصي، وأنت الرَّحيم وأنا الجاني، وأنت السَّيِّدُ وأنا العبدُ، ارحم خضوعي وذِلَّتي بين يديك، فإنَّه لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بك.

قال: فخرجَت روحُه في الحال، فإذا بصوت ينادي مِنْ زاوية البيت، سمعه كلُّ مَنْ حضرَ وهو يقول: تَذَلَّلَ العبد لمولاه، واعتذر إليه ممَّا جناهُ، فقرَّبه وأدناه، وجعل جنَّة الخلد مأواه.

إلٰهي إنْ كنتُ الغريقَ وعاصياً ... فعفوُك يا ذا الجود والسَّعة الرحبُ
بشدَّة فقري، باضطراري، بحاجتي ... إليك إلٰهي حين يشتدُّ بيَ الكربُ
بما بيَ مِنْ ضعفٍ وعجزٍ وفاقَةٍ ... بما ضَمَّنَتْ مِنْ وُسْعِ رحمَتِكَ الكُتْبُ
صلاةٌ وتسليمٌ ورَوْحٌ وراحةٌ ... على الصَّادقِ المصدوقِ ما انفلَقَ الحبُّ
أبي القاسم الماحي الأباطيلِ كلِّها ... وأصحابِه الأخيارِ ساداتِنا النُّجب

إخـواني، هٰـذا القبــول ينـادي صبيــان الهـوى: الشَّــابُّ التَّـائِبُ حبيب الله[1]، ويصيـحُ بكهول الخـطا عسى الله أن يتوب عليهم، ويهتف بشيوخ الندم: أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي.

وفي الخبر: إذا تاب العبد إلى الله عز وجل، وحسُنت توبته، وقام باللَّيل يُناجي ربَّه، أوْقدَتِ الملائكةُ سراجاً مِنْ نورٍ، وعلَّقتـه بين السماء والأرض، فتقولُ الملائكـة: ما هٰـذا؟ فيقال لهم: إنَّ فـلان بن فلان قـد اصطلح اللَّيلةَ مع مولاه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قامَ العبدُ باللَّيلِ، تباشرت أعضاؤه، ونادى بعضُها بعضاً: قد قام صاحبُنا لخدمة الله تعالى»[2].

وعن أحمـــد بن أبي الحـواري، قــال: دخلت على أبي سليمــان الداراني، فوجدته يبكي، فقلت له: وما يبكيك يا سيدي؟ فقال لي: يـا أحمد، إنَّ أهل المحبة إذا جنَّهُمُ اللَّيلُ، افترشوا أقدامَهم، فدموعُهم تجري على خدودِهم بين راكعٍ وساجدٍ، فإذا أشرفَ المولى جلَّ جلاله عليهم، قال: يا جبريلُ، بعيني مَنْ تلذَّذَ بكلامي، واستراح إلى منـاجاتي، وإني لمُطَّلِعٌ عليهم، أسمَعُ كلامَهم، وأرى حنينَهم وبكاءهم، فنادِهم يا جبريل، وقل لهم: ما هٰذا الجزعُ الَّذي أرى بكم؟ هل أخبـركم مخبرٌ أنَّ حبيبـاً يعذِّبُ أحبابه بالنَّارِ؟ أم هل يجملُ بي أن أبيِّتَ قوماً، وعند البيات آمرُهم

---

(١) روى أبو نعيم في «حلية الأولياء» ٥/٣٦٠، وابن أبي الدنيا في «التوبة» وأبو الشيخ في «الثواب» عن أنس بن مالك مرفوعاً: «إن الله يحب الشاب التائب»، وقال أبو نعيم: غريب. وضعفه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»، وحكم عليه الشيخ الألباني بالوضع في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (٩٧).

(٢) قـال العجلوني في «كشف الخفاء» ١/٢٣٤: لا أصـل له في المـرفـوع، وانـظر «المقاصد الحسنة» للسخاوي ص ١٦٩.

(٣) لم أجده فيما بين يدي من المصادر.

إلى النَّـار؟ لا يليق هٰذا بعبـدٍ ذميمٍ، فكيف بـالمَلِكِ الكـريم؟! فبعـزَّتي أقسمتُ لأجعلنَّ هديَّتي إليهم أن أكشِفَ لهم عن وجهيَ الكريم، فـأنظر إليهم وينظرون إليَّ.

وعن أبي سليمان الداراني رضي الله عنـه، قال: قـرأتُ في بعض الكتب المنزلة: يقول الله تعالى: بعيني ما يتحمل المتحمِّلون مِنْ أجلي، وكابد المكابدون في طلب مرضاتي، فكيف بهم وقد صاروا في جِوراي، وبُحْبِحُوا في رياض خُلدي هنالك فليبشر المصغون بأعمالهم بالنَّظر العجيب إلى الحبيب القريب. أترَوْنَ أنِّي أضيع لهم ما عملوا؟ فكيف وأنـا أجودُ على المولين، وأقبل التَّوبة على الخاطئين، وأنا بهم أرحم الراحمين[1]؟!

(١) «حلية الأولياء» ٩/٢٥٥، ورواه أيضاً ٤/٦٠ عن وهب بن منبه.



الفصل الأول

يا أسيرَ دنياه، يا عبدَ هواه، يا موطنَ الخطايا، ويا مستودَعَ الرَّزايا، اذكر ما قدَّمتْ يداكَ، وكُن خائفاً مِنْ سيِّدك ومولاك أن يطَّلِعَ على باطن زَلَلِكَ وجفاك، فيصدَّك عن بابه، ويبعدك عن جنابه، ويمنعك من مُرافقة أحبابه، فتقع في حضرة الخِذلان، وتتقيَّد بشَـرَكِ الخُسران، وكلَّمـا رُمْتَ التخلُّصَ مِنْ غَيِّك وعَناك، صاح بك لسان الحال وناداك:

يـا غادراً قـد لها عنـا وقد خـانـا	إليـك عنـا فمـا تحظى بنجـوانـا
وجئتَ تبغي الـرِّضا والـوصل قـد بانـا	أعـرضتَّ عنا ولم تعمـل بـطاعتنـا
وطـال ما كنتَ في الأيَّـام تنسانـا	بـأي وجـه نـراك اليـوم تقصِـدُنـا
إلَّا لمجتهـدٍ بـالجـدِّ قـد دانـا	يا ناقضَ العهدِ ما في وصلنا طمعٌ

يا من باع الباقي بالفاني، أما ظهـر لك الخُسـران، ما أطيبَ أيـام الوصال، وما أمرَّ أيام الهجران، ما طاب عيشُ القومِ حتَّى هجرُوا الأوطان، وسهروا الليالي بتلاوة القرآن، فيبيتون لربهم سُجَّداً وقياماً.

عن عبدالعزيز بن سلمـان العابد، قال: حدثني مطهر ـ وقد كان بكى شوقاً إلى الله تعالى ستين عاماً ـ قال: رأيت كأنِّي على ضفَّةِ نهـر يجري بـالمسك الإذفِـر، وحافـاته شجـر اللؤلؤ، وطينه العنبـر، وفيه مِنْ قُضبـان الذَّهب، وإذا بَجوارٍ مترنِّمات يقُلن بصوت واحد: سبحانه وتعالى سبحان، سبحان المسَبَّح بكلِّ لسان [سبحانه] سبحان الموجود في كلِّ مكان [سبحان الدائم في كل الأزمان سبحانه، نحن خلق من خَلْق الرَّحمٰن سبحانه] نحن

الخالدات فلا نموت أبداً. نحن الرَّاضيات، فلا نغضَبُ أبداً. نحن النَّاعمات، فلا نتغيَّر أبداً. قال: فقلتُ لهنَّ: مَنْ أنتن؟! فقلن: خلقٌ مِنْ خلق الله تعالى. قلت: فما تصنَعْنَ هاهنا؟ فقلْنَ بصوتٍ واحدٍ حسنٍ مليحٍ:

ذرانا إلٰهُ النَّاسِ ربُّ محمَّدٍ لقومٍ على الأطراف باللَّيل قُوَّمُ
يناجون ربَّ العالمين إلٰهَهُم وتسري همومُ القوم والنَّاسُ نُوَّمُ

فقلت: بخٍ بخٍ! مَنْ هٰؤلاء الذين أقرَّ الله أعينَهم؟ قلن: أما تعرِفُهم؟! قلت: لا والله ما أعرفهم. فقلن: هم المجتهدون باللَّيل، أصحابُ السَّهر بالقرآن(١).

ورُوي عنِ النَّبي ﷺ أنَّه قال: «إذا أذنبَ العبدُ، وتاب إلى الله، وحسُنت توبتُه، تقبَّل اللَّه منه كلَّ حسنةٍ عملها، وغفر له كلَّ ذنبٍ اقترفه، ويرفعُ له بكلِّ ذنبٍ درجةً في الجنَّةِ، ويعطيه الله بكلِّ حسنةٍ قصراً في الجنَّة، ويزوِّجُه اللَّهُ حُوراً مِنَ الحُورِ العِين»(٢).

وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أوحى الله إلى داودَ عليه السلام: يا داودُ، بشِّرِ المذنبين، وأنذرِ الصِّدِّيقين. فتعجب داود عليه السلام، فقال: يا ربِّ، فكيف أبشِّرُ المذنبين وأُنذر الصِّدِّيقين؟! قال الله تعالى: يا داودُ، بشِّرِ المذنبين ألَّا يتعاظمني ذنبٌ أغفره، وأنذرِ الصِّديقين ألَّا يُعجبُوا بأعمالهم، فإنِّي لا أضع حسابي على أحدٍ إلَّا هلك. يا داود، إن كنتَ تزعمُ أنَّك تحبُّني، فأخرج حُبَّ الدُّنيا من قلبك، فإنَّ حُبي وحبَّها

(١) الخبر في «حلية الأولياء ٦/٢٤٤ ـ ٢٤٥ لأبي نعيم، و«صفة الصفوة» ٣/٣٨٠، و«الطبقات» للمصنف ورقة ٤٥. ورواه أبو طالب إسحاق بن إبراهيم بن عمر البرمكي في «جزء الشهداء والصالحين» ق ٢٠٤ ـ ٢٠٥ (نسخة الظاهرية مجموع رقم ٦٣). وما بين حاصرتين زيادة من هذه المصادر.

(٢) لم أجده.

لا يجتمعان في قلبٍ واحدٍ. يا داود، من أحبني، يتهجّدُ بين يديَّ إذا نام البطّالون، ويذكرني في خلوته إذا لها عن ذكريَ الغافلون، ويشكر نعمتي عليه إذا غفلَ عنّي السّاهون»[1].

وأنشدوا:

طوبى لِمَنْ سهِرتْ بالليل عيناه ... وبات في قَلَقٍ مِنْ حبِّ مولاه
وقام يرعى نُجومَ الليلِ منفرداً ... شَوْقاً إليه وعينُ الله ترعاه

قال رسول الله ﷺ: «البرُّ لا يبلى، والذَّنبُ لا يُنسى، والدَّيانُ لا يَفنى. كن كيف شئتَ، كما تدينُ تُدان»[2].

يا هٰذا، أتدري ما صنعتَ؟ بِعْتَ القُربَ بالبُعد، والعقلَ بالهوى، والدِّينَ بالدُّنيا.

وأنشدوا:

قم فارْثِ نفسك وابكها ... ما دُمْتَ وابْكِ على مَهَلْ
فإذا اتَّقى اللّهَ الفتى ... فيما يُريدُ فقد كمل

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نزع الله عبداً مِنْ ذنب إلا وهو يريد أن يغفر له، وما استمال الله عبداً لعمل صالحٍ، إلاّ وهو يريد أن يتقبَّلَهُ منه»[3].

---

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٨/١٩٥ إلى قوله: «فإني لا أضع حسابي على أحد إلا هلك» من قول عبد العزيز بن أبي رواد.

(٢) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٢٠٢٦٢)، ومن طريقه البيهقي في «الزهد» و«الأسماء والصفات» ص ٧٩ عن أبي قلابة مرسلاً.
ورواه أحمد في الزهد» عن أبي الدرداء من قوله. وهو منقطع مع وقفه. ورواه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عمر مرفوعاً بإسناد ضعيف. وانظر «كشف الخفاء» ١/٣٣٦.

(٣) لم أجده.

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «التائبون إذا خرجوا من قبورهم، ارتفع من بين أيديهم ريح المسك، ويأتون على مائدة مِنَ الجنَّة يأكلون منها وهم في ظلِّ العرش، وسائر الناس في سُدَّة الحساب»(1).

ويروى أن رجلاً أتى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، بمَ أتَّقي النَّار؟ قال: «بدموع عينيك». قال: وكيف أتقيها بدموع عيني؟ قال: «أهمل دموعهما من خشية الله، فإنه لا يعذب بالنَّارِ عيناً بكت مِنْ خشيته»(2).

وعن عبدالله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قطرةٌ تخرج من عين المؤمن مِنْ خشية الله، خيرٌ له مِنَ الدُّنيا وما فيها، وخيرٌ له مِنْ عبادة سنة، وتفكُّرُ ساعة في عظمة الله وقُدرته خيرٌ مِنْ صيام ستِّين يوماً وقيامِ ستين ليلة. ألا وإنَّ لله ملكاً ينادي في كلِّ يوم وليلة: أبناء الأربعين، زَرْعٌ دنا حصادُه، أبناء الخمسين، هلُمُّوا إلى الحساب، أبناء السِّتِّين، ماذا قدَّمتُم وماذا أخرتُم، أبناء السَّبعين، ماذا تنتظرون. ألا ليت الخلق لم يخلقوا، فإذا خُلقوا ليتهم علِمُوا لما خُلِقوُ له، فعملوا لذلك. ألا قد أتتكم الساعة فخذوا حِذْرَكم»(3).

---

(1) لم أجده.

(2) رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٣٦٢/٨ عن زيد بن أرقم. وقال المصنف في «العلل المتناهية» ٣٣٦/١: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(3) لم أجد نص الحديث كاملاً عن ابن مسعود، وروى قوله: «تفكر ساعة...» أبو الشيخ فى «العظمة»، وعنه المصنف في «الموضوعات» ١٤٣/٣ - ١٤٤.
وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» ٣٦١/٤ إسناده ضعيف. وقال: رواه إيضاً الديلمي في «مسند الفردس» من حديث أنس وإسناده ضعيف جداً.
وقوله: «إن لله ملكاً ينادي...» رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣٣/٤، وابن الجوزي في «الطبقات» ق ٤٥ عن وهب بن منبه؛ قال: قرأت في بعض الكتب... فذكره.
ورواه الديلمي في «مسند الفردس» عن ابن عمر كما في «كنز العمال» ٧٨/١.

نَــزِّه مشيبَـك عن شيءٍ يــدنِّســه إنَّ البيـاضَ قليلُ الحمـلِ للدَّنس

ياعبدَ السَّوء، كم تعصي ونستُر، كم تكسِرُ باب نهيي ونجبـرُ، كم نستقطِرُ مِن عينيك دُموعَ الخشيةِ ولا يقطُر، كم نطلُب وَصلَك بالطَّاعـة، وأنت تفِرُّ وتهجُر، كم لي عليك مِنَ النِّعَمِ، وأنت بعدُ لا تشكُر. خدَعَتْكَ الدُّنيا وأعمالُ الهوى وأنت لا تسمع ولا تُبصِر. سخَّرتُ لكَ الأكوانَ وأنت تطغى وتكفُر، وتطلب الإقامةَ في الدُّنيا وهي قنطرةٌ لمن يعبُر.

منعـوكَ مِنْ شُرب المـودَّةِ والصَّفـا لمَّـا رأَوْكَ على الخيـانــة والجفـا
إنْ أنـتَ أرسلت العِنــان إلـيهـمُ جــادوا عليـك تكــرُّمـاً وتعــطُّفـا
حــاشـاهُمُ أنْ يــظلِمُــوكَ وإنَّمــا جعلوا الـوفا منهُم لأربـاب الـوفـا

وروي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: دخلتُ على بعض المجوس وهو يجود بنفسه عند الموت، وكـان منزلُـه بإزاء منـزلي، وكان حَسَنَ الجوار، حسنَ السِّيرة، حسنَ الأخلاقِ، فرجوتُ أنَّ الله يوفِّقُـه عند الموت، ويميتُه على الإسلام، فقلت له: ما تجد، وكيف حالُك؟ فقال: لي قلب عليل ولا صحّة لي، وبدنٌ سقيمٌ، ولا قوَّة لي، وقبر مُوحِشٌ ولا أنيسَ لي، وسَفَرٌ بعيد ولا زاد لي، وصِراطٌ دقيقٌ ولا جَواز لي، ونارٌ حاميةٌ ولا بدنَ لي، وجنَّةٌ عالية ولا نصيب لي، وربٌّ عادل ولا حُجَّةَ لي.

قال الحسن: فرجوتُ الله أن يوفِّقَه، فأقبلتُ عليه، وقلت له: لم لا تُسلِـم حتـى تَسلـمَ؟ قـال: يا شيخُ، إنَّ المِفتاح بيدِ الفتَّاح، والقُفَل هاهنا، وأشار إلى صدرِه، وغُشِيَ عليه.

قـال الحسن: فقلت: إلٰهي وسيِّدي ومـولاي، إن كـان سبقَ لٰهـذا

المجوسيِّ عندك حسنةٌ، فعجِّل بها إليه قبل فراق روحه مِنَ الدُّنيا، وانقطاع الأمل.

فأفاق مِنْ غشيته، وفتح عينيه، ثم أقبل، وقال: ياشيخُ، إنَّ الفتَّاح أرسل المفتاح. امدُدْ يمناك، فأنا أشهدُ أن لا إلٰه إلَّا الله وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله، ثم خرجت روحُه وصار إلى رحمة الله.

وأنشدوا:

يـا ثـقـتـي يـا أمـلي   أنـتَ الـرَّجـا أنـت الـولـي
اخـتِـمْ بـخـيـرٍ عـمـلي   وحـقِّـقِ الـتَّـوْبَـة لـي
قـبـل حُـلُولِ أجـلي   وكُـنْ لـي يـا ربِّ وَلـي

إخواني، ماهٰذه السِّنَةُ وأنتم مُنتبهون؟ وما هذه الحيرةُ وأنتم تنظُرون؟ وما هٰذه الغفلةُ وأنتم حاضرون؟ وما هٰذه السَّكرة وأنتم صاحُون؟ وما هذا السُّكون وأنتم مُطالبون؟ وما هذه الإقامةُ وأنتم راحلون؟ أما آن لأهل الرَّقدةِ أن يستقيظوا؟ أما حانَ لأبناء الغفلة أن يتَّعظوا؟.

واعلم أن الناس كلَّهم في هٰذه الدنيا على سفرٍ، فاعمل لنفسك ما يخلِّصُها يوم البعث من سقر.

آنَ الـرَّحـيـلُ فكـن على حـذرٍ   مـا قـد تـرى يغني عَنِ الحـذرِ
لا تـغـتـرِرْ بـالـيـومِ أو بـغـدٍ   فـلرُبَّ مـغـرورٍ عـلى خـطر

قال الجنيد: كان سَرِيُّ السَّقطيُّ رضي الله عنه متَّصلَ الشُّغلِ، وكان إذا فاته شيء مِنْ ورده لا يقدِرُ أن يعيدَه[1].

وكذلك كان عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه، لم يكن له وقتٌ ينام

(١) انظر «الحلية» ١٠/١٢٤.

فيه، فكان ينعُسُ وهو جالس، فقيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تنام؟ فقال: كيف أنام؟! إن نمتُ بالنَّهارِ، ضيَّعتُ حقوق النَّاسِ، وإنْ نمتُ باللَّيلِ، ضيعتُ حظّي من الله.

وسُمع الجنيد رضي الله عنه يقول: مارأيتُ أعبدَ للهِ تعالى مِنْ سريٍّ السَّقَطِي، أتت عليه ثمان وسبعون سنة ما رُؤي قطُّ مضطجعاً إلاَّ في علَّته التي مات فيها.

قال الجنيد رضي الله عنه: سمعت السَّريَّ السقطي رضي الله عنه يقول: لولا الجمعة والجماعة ما خرجت من بيتي، وللزمْتُ بيتي حتَّى أموتَ.

قال أبو بكر الصيدلاني: سمعتُ سليمانَ بن منصور بن عمار يقول: رأيتُ أبي في المنام، فقلت له: ما فعل بك ربُّك؟ فقال: إنَّ الرَّبَّ قَرَّبني وأدناني، وقال لي: يا شيخَ السُّوءِ، أتدري لم غفرتُ لكَ؟ فقلت: لا يا إلٰهي. قال: إنَّك جلستَ للنَّاس يوماً مجلساً فأبكيتَهُم، فبكى فيهم عبدٌ مِنْ عبيدي لم يبْكِ مِنْ خشيتي قط، فغفرتُ له، ووهبت أهلَ المجلس كلَّهم له، ووهبتُك فيمن وهبت له.

عن علي بن محمد بن إبراهيم الصفار، قال: حضرت أسود بن سالم ليلةً وهو يقول هٰذين البيتين ويكررهما ويبكي:

أمامي موقفٌ قدَّامَ ربِّي ... يسائِلُني وينكشفُ الغطا
وحسبي أن أمُرَّ على صراط ... كحدِّ السَّيف أسفلُه لظى

قال: ثمَّ صرخ صرخة، ولم يزل مغمى عليه حتىَّ أصبح رضي الله عنه[1].

وكذلك يُروى عَنِ الضَّحاك بن مزاحم أنه قال: خرجت ذاتَ ليلةٍ إلى مسجد الكوفة، فلمَّا قربت مِن المسجد، فإذا في بعض رِحابه شابٌّ قد خرَّ

(١) «تاريخ بغداد» ٧/٣٦ - ٣٧، و«صفة الصفوة» ٢/٣٠٨.

ساجداً وهو يخورُ بالبكاء، فلم أشكَّ أنَّهُ وليٌّ مِنْ أولياءِ الله تعالى، فقربت منه لأسمعَ ما يقول، فسمعته يقول أبياتاً:

عليك يا ذا الجلالِ مُعتمدي ... طُوبى لمن كنتَ أنت مولاهُ
طوبى لمن باتَ خائفاً وَجِلاً ... يشكو إلى ذي الجلالِ بلواهُ
وما به علَّةٌ ولا سَقَمٌ ... أكثرُ مِنْ حُبِّهِ لمولاهُ
إذا خلا في ظلام اللَّيلِ مبتهلاً ... أجابه الله ثم لبَّاهُ
ومن يَنَلْ ذا مِنَ الإلٰه فقد ... فاز بقُربٍ تقرُّ عيناهُ

فبقي يكرِّرُ هٰذه الأبيات ويبكي، وأنا أبكي رحمةً لبُكائه، فبينما أنا كذلك، إذ لاح لي ضَوءٌ كالبرق الخاطفِ، فأسرعتُ بيدي إلى عيني، فسمعتُ، فإذا بمنادٍ ينادي مِنْ فوق رأسه بكلام عَذْبٍ لذيذٍ لا يشبهُ كلامَ بني آدم، وهو يقول:

لبيَّكَ عبدي وأنتَ في كنَفي ... وكلُّ ما قلتَ قد قبلناهُ
صوتُك تشتاقُه ملائكتي ... وحسبُك الصَّوتُ قد سمعناهُ
إنْ هبَّتِ الرِّيحُ مِنْ جوانبه ... خرَّ صريعاً لما تغشَّاهُ
ذاك عبدي يجولُ في حُجُبي ... وذنبُك اليومَ قد غفرناهُ

فقلت: مناجاةُ الحبيب مع حبيبه وربِّ الكعبة، فَخرِيُّت مغشيًّاً على وجهي لما أدركني مِنَ الهيبة، ثم أفقتُ مِنْ غشيتي وأنا أسمع ضجيج الملائكة في الهواء، وخفقانَ أجنحتهم بين السَّماء والأرضِ، وخُيِّلَ لي أنَّ السَّماء قد قرُبت مِنَ الأرض، ورأيتُ النُّورَ قد غلبَ على ضَوْءِ القمر، وكانت ليلةً مقمرةً ساطعةَ النُّورِ، فدنوتُ منه وسلَّمتُ عليه، فردّ عليَّ السَّلامَ، فقلت له: بارك الله فيك، مَنْ أنتَ يرحمك الله؟ فقال لي: أنا راشد بن سليمان، فعرفتُه لما كنت أسمعُ عنه. فقلت له: رحمكَ الله، لو أذِنْتَ لي في صحبتك لآنَسَ بك، فقال لي: هيهات هيهات، وهل يأنَسُ بالمخلوقين مَنْ تلذَّذَ بمناجاة ربِّ العالمين، فانصرف عني وتركني رضي الله عنه.



إخواني، إلى كم تماطلون بالعمل، وتطمعون في بُلوغ الأمل، وتَغْتَرُّونَ بفُسحة المَهَل، ولا تذكرون هجوم الأجل؟ ما ولدتم فللتُّراب، وما بنيتم فللخراب، وما جمعتم فللذَّهاب، وما عملتم ففي كتاب مُدَّخرٌ ليوم الحساب. وأنشدوا:

ولو أنّا إذا مِتْنا تُركنا لكان الموتُ راحةَ كلِّ حي
ولكنَّا إذا متنا بُعِثْنا ونُسْألُ بعدها عن كل شي[1]

يُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يغرَّنَّكُم قولُ الله عز وجل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فإنَّ السَّيئة وإن كانت واحدةً، فإنها تتبعُها عشرُ خصال مذمومة:

أولها: إذا أذنب العبدُ ذنباً، فقد أسخط الله وهو قادرٌ عليه.

والثانية: أنَّه فرَّحَ إبليسَ لعنَه اللَّهُ.

والثالثة: أنَّه تباعدَ مِنَ الجنَّة.

والرابعة: أنَّه تقرب مِنَ النَّارِ.

(١) البيتان لأبي العتاهية، الديوان ص ٤٨٢.

والخامسة: أنَّه قد آذى أحبَّ الأشياءِ إليه، وهي نفسه.

والسادسة: أنه نجّسَ نفسَه وقد كان طاهراً.

والسابعة: أنَّه قد آذى الحَفَظَةَ.

والثامنة: أنه قد أحزنَ النَّبيَّ ﷺ في قبره.

والتاسعة: أنه أشهدَ على نفسه السَّماواتِ والأرضَ وجميع المخلوقات بالعصيان.

والعاشرة: أنَّه خان جميع الآدميين، وعصى ربَّ العالمين.

ويُروى عن ذي النون المصري رحمه الله تعالى أنَّه قال: خرجتُ أريدُ الحجازَ ولم أصحب أحداً مِنَ النَّاسِ، فبينما أنا سائرٌ، إذ وقعتُ في أرض صحراء، وقد نَفَدَ زادي، فأشرفتُ على الهلاكِ، إذ لاحت لي شجرةٌ في وسط الصَّحراءِ دانية الفُروع، مُتدلِّية الأغصان، كثيرة الأوراق، فقلتُ في نفسي: أسيرُ نحوَ هٰذه الشَّجرةِ، فأكون في ظلِّها حتّى يقضيَ الله أمراً كان مفعولا.

فلَّما وصلت إلى الشَّجرةِ، ودنوتُ منها، وأردت الدخولَ في ظلِّها، فأخذ غصنٌ مِنْ أغصانها بركوتي، فانهرقَ الماءُ الذي كان بقيَ لي فيها أُحيي به رمقي، فأيقنتُ بالهلاك، وطرحتُ نفسي في ظلِّ الشَّجرةِ، وبقيتُ أنتظر ملكَ الموتِ ليقبِضَ رُوحي، فإذا أنا بصوتٍ حزينٍ يخرجُ مِنْ قلبِ شخصٍ حزينٍ وهو يقول: إلٰهي وسيدي ومولاي، إن كان هٰذا رضاك مني، فزِد حتى ترضى عني يا أرحمَ الرَّاحمين.

فقمتُ وجعلتُ أمشي نحوَ الصَّوت، فإذا أنا بشخصٍ حسنِ الوجه، حسنِ الصُّورةِ، وهو ملقى على الرَّملِ، والنُّسُورُ قد أحدقت به تنهشُ مِنْ لحمه، فسلَّمت عليه، فردَّ عليَّ السَّلام، وقال لي: يا ذا النون، لمَّا نفد

الزادُ، وانهرق الماءُ، أيقنتَ بالموتِ والفناءِ، فجلستُ عند رأسه، وجعلت أبكي رحمةً لبكائه، وشفقةً لما رأيتُ منه.

فبينما أنا كذلك، إذ أنا بقَصعَةٍ مِنَ الطَّعام وُضِعَتْ بين يدي، فوكز الأرض بعُرقُوبه، فإذا بعينٍ مِنَ الماء قد تفجّرت؛ أشدّ بياضاً مِنَ الَّلبن، وأحلى مِنَ العسل، فقال لي: يا ذا النون، كُلْ واشرب، لا بدَّ لك مِنَ الوصول إلى بيت الله الحرام، ولكن يا ذا النون، لي إليك حاجةٌ، فإن قضيتَها لي، فلكَ الأجرُ والثَّوابُ. قلت: وما هي؟ قال: إذا أنا مِتُّ، فاغسلني وادفنِّي، واسترني مِنَ الوحش والطَّير، وسِرْ فإذا قضيتَ الحجَّ، فإنك تصلُ إلى مدينةِ بغداد، وتدخُل من باب الزَّعفران، فإنَّك تجدُ هنالك الصِّبيانَ يلعبُون، وعليهم ألوانُ الثِّياب، فتجدُ هنالك شابّاً صغير السِّن، ليس يشغلُه شيءٌ عن ذكر الله تعالى، قد تحزّم بخرقةٍ، وجعلَ على كتفيه أخرى، وفي وجهه خطان أسودان مِنْ آثار الدُّموع، فإذا وجدتَه، فذٰلك ولدي وقُرَّةُ عيني، فأقرئه منِّي السَّلامَ.

قال ذو النون: فلمّا فرغ مِنْ كلامه، سمعته يقول: أشهدُ أن لا إلٰه إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، وشهق شهقةً فارق الدُّنيا رحمةُ الله عليه، فقلت: إنا لله وإنَّا إليه راجعون، وكان معي قميصٌ في وعائِي لا أفارِقُه، فغسلته مِنْ ذٰلك الماء، وكفَّنتُه وواريته التُّرابَ، وسرت إلى بيت الله الحرام وقضيتُ مناسك الحجِّ، وخرجت إلى زيارة قبر رسول الله ﷺ(١)،

(١) زيارة قبر الرسول ﷺ غير مشروعة لذاتها، وإنما المشروع والمستحب زيارة مسجده ﷺ، فالسفر وشد الرحال يكون إلى المسجد، لا إلى قبره، مع عظيم قدره ورفيع منزلته ﷺ.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ليس في زيارة قبر النبي ﷺ حديث حسن ولا صحيح... بل عامة ما يروى في ذلك أحاديث مكذوبة وموضوعة... ومما يبين ذلك أن مالكاً رحمه الله كره أن يقول الرجل: زرت قبر النبي ﷺ، ومالك قد أدرك =

فلَّما قضيتُ الزِّيارة، وسرتُ إلى مدينة بغداد، فدخلتُها في يوم عيدٍ، فإذا أنا بالصِّبيان يلعبُون وعليهم ألوانُ الثِّياب، فنظرت، فرأيتُ الصَّبيَّ الموصوفَ جالساً لا يشغَلُه الموهوبُ عن ذكر علاَّمِ الغيوب، وقد ظهرَتْ على وجهه الأحزانُ، وفي وجهه خطَّان أسودان مِنَ آثار الدُّموع، وهو يقول:

النـاسُ كلُّهمُ للعيـد قـد فـرِحُـوا   وقـد فرحتُ أنـا بالـواحد الصَّمَـدِ
النَّـاسُ كلُّهمُ للعيـد قــد صَبَغُـوا   وقـد صبغتُ ثيابَ الـذُّلِّ والكَمَـدِ
النَّـاسُ كلُّهم للعيــد قــد غسلُوا   وقـد غسلتُ أنـا بـالـدَّمـع للكبـد

قال ذو النون: فسلَّمتُ عليه، فردَّ عليَّ السلام، وقال: مرحباً برسولٍ أتى من أبي، فقلت له: مَنْ أخبرك بأنِّي رسولُ أتيتكُ مِنْ أبيكَ؟ قـال: الذي أخبرني أنَّك دفنتَه في الصحراء. يا ذا النون، أتزعُم أنَّكَ دفنتَ أبي بـالصَّحراء؟ فـوالله إنَّ أبي رُفِعَ إلى سـدرة المنتهى، ولكن سِرْ معي إلى جدتي.

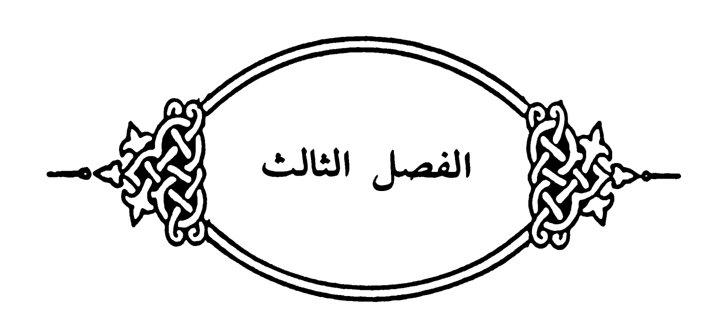
فأخذ بيدي وسار معي إلى منزله، فلمّا وصل إلى الباب نقرَ نقـراً خفيفاً، فإذا بالعجوز قد خرجت إلينا فلّما رأتني، قالت: مرحباً بمن تمتَّعَ بالنَّظر في وجه حبيبي وقرَّة عيني. قلت لها: مَنْ أخبركِ بأنِّي رأيتُه؟ قالت: الذي أخبرني بأنَّك كفَّنته وأنَّ الكفنَ مردودٌ عليك. يا ذا النون، فوعِزَّة ربي وجلاله، إنَّ خرقة ابني يباهي اللّهُ بها الملائكةَ في الملأ الأعلى.

ثم قالت: يا ذا النون، صف لي كيف تركت ابني وقرَّةَ عيني وثمرةَ فؤادي؟ قلت لها: تركتُه في الفيافي والقفار بين الرِّمال والأحجار، قد حظِيَ بما أمل مِنَ العزيز الغفار.

= الناس من التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدلّ ذلك على أنه لم تكن تعرف عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ انظر «مجموع الفتاوى» ٢٤/٣٥٦ ـ ٣٥٨.

فلما سمِعَتِ العجوزُ ذٰلك، ضمّتِ الصَّبيَّ إلى صدرها، وغابت عنِّي، وحُجبِتْ عن نظري، فلا أدري: أفي السَّماءِ صُعِدَ بهما، أو في جوف الأرض هُبِطَ بهما، فصرتُ أطلبهما في أركان الدَّار، فما وجدتهما، فسمعت هاتفاً وهو يقول: يا ذا النون، لا تُتعب نفسَك، فلقد طلبَتْهُمُ الأملاك، فلم يجدوهم. فقلت: أين صارُوا، فقال لي: إنَّ الشهداء يموتون بسيوف المشركين، وهٰؤلاء المحبُّون يموتون بالشَّوق إلى ربِّ العالمين، فيُحملَون في مركب مِنْ نُورٍ في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

قال ذو النون: فتفقدتُ الجِرابَ، فوجدت الكَفَن الذي كفَّنتُه فيه مطوياً كما كان أولاً، رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم.



الفصل الثالث

أيها المقيمُ على الخطايا والعصيان، التّاركُ لما أمر به الرحمٰن، المطيع للغويِّ الفتّان، إلى متى أنت على جُرْمِكَ مُصِرٌّ، ومما يقرِّبُكَ إلى مولاك تفرُّ؟ تطلب مِنَ الدُّنيا ما لا تدركه، وتتَّقي مِنَ الآخرة بما لا تملكه، لا أنت بما قسم الله لك مِنَ الرِّزق واثقٌ، ولا أنت بما أمرك به لاحِق.

يا أخي، الموعظة ـ والله ـ لا تنفعُك، والحوادثُ لا تردعُك. لا الدَّهر يدعُك، ولا داعي الموت يُسمِعُك، كأنك يا مسكين لم تزل حياً موجوداً، وكأنك لا تعود نسياً مفقوداً.

فاز ـ والله ـ المُخِفُّون مِنَ الأوزار، وسلم المتَّقُون مِنْ عذاب النَّار، وأنت مقيمٌ على كسب الجرائم والأوزار.

وأنشدوا:

عِيلَ صبري وحُقَّ لي أن أنوحا   لم تدع لِيَ الذُّنوبُ قلباً صحيحا
أخلقت مهجتي أكفُّ المعاصي   ونعاني المشيبُ نعياً صريحا
كلَّما قلتُ قد بَرِي جرحُ قلبي   عاد قلبي مِنَ الذُّنوب جريحا
إنَّما الفوزُ والنَّعيمُ لعبدٍ   جاء في الحشر آمناً مستريحا

إخواني: ارفُضوا هٰذه الدُّنيا كما رفضها الصَّالحون، وأعدُّوا الزَّاد لنقلةٍ لا بدَّ لها أن تكون، واعتبروا بما تدور به عليكم الأيام والسنون.

يا من غدا في الغيِّ والتِّيهِ   وغرَّه طول تماديه
أملى لك الله فبارزتَه   ولم تَخَفْ غبَّ معاصيه

قال الجنيد رضي الله عنه: مرض السَّريُّ السَّقطي رضي الله عنه، فدخلتُ عليه أعوده، فقلت له: كيف تجدك؟ فقال:

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي　　والذي قد أصابني من طبيبي[1]

فأخذت المروحة لأروِّحَ عليه، فقال: كيف يجدُ ريحَ المروحة مَنْ جوفُه يحترقُ مِنْ داخل، ثم أنشأ يقول:

القلبُ محترقٌ والدَّمعُ مستبقٌ　　والكربُ مجتمعٌ والصَّبر مفترقُ

كيف القَرارُ على مَنْ لا قرارَ له　　ممَّا جناه الهوى والشَّوق والقلقُ

يا ربِّ إن كان شيءٌ فيه لي فرجٌ　　فامنُن عليَّ به ما دام بي رمقُ[2]

ويُروى عن علي بن الموفق رضي الله عنه أنه قال: خرجتُ يوماً لأؤذن، فأصبتُ قرطاساً، فأخذته ووضعته في كمي، وأقمتُ الصَّلاةَ وصلَّيتُ، فلمَّا صليت قرأته، فإذا مكتوب: بسم الله الرحمٰن الرحيم. يا عليَّ بنَ الموفَّق، أتخاف الفقر وأنا ربُّك؟[3].

ويُروى عَنِ المزني، قال: دخلت على الشَّافعي رضي الله عنه في علته التي مات منها، فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ مِنَ الدُّنيا راحلاً، وللإخوان مُفارقاً، ولكأس المنيَّة شارباً، ولسوء عملي مُلاقياً، وعلى الله وارداً، فلا أدري: أروحي تصير إلى الجنَّة فأهنِّيها، أم إلى النَّار فأعزيها؟ ثم بكى، وأنشأ يقول:

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي　　جعلت الرَّجا مني لعفوك سُلَّما

تعاظمني ذنبي فلما قرنته　　بعفوك ربي كان عفُوك أعظما

فما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزل　　تجود وتعفو منَّةً وتكرُّما

---

(١) بل نشكو إلى الله سبحانه ما أصابنا، ونسأله أن يفرج كروبنا وهمومنا وأن يشفي مرضنا، فهو سبحانه يبتلينا لنسأله وندعوه.

(٢) «حلية الأولياء» ١٠/٢٧٣.

(٣) الخبر في «صفة الصفوة» ٢/٣٨٦.

فلولاك لم ينجو مِنَ آبليس عابدٌ وكيف وقد أغوى صفيَّك آدما[1]

إخواني: بادروا بالتوبة مِنَ الذُّنوب، واقتفُوا آثار التَّوَّابين، واسلُكوا مسالكَ الأوَّابين، الذين نالوا التوبة والغفران، وأتعبُوا أنفسهم في رضا الرحمٰن، فلو رأيتهم في ظُلَمِ الليالي قائمين، ولِكتاب ربِّهم تالين، بنفوسٍ خائفة، وقلوبٍ واجفة، قد وضعُوا جباهَهُم على الثَّرى، ورفعوا حوائجهم لمن يَرى ولا يُرى:

وأنشدوا:

ألا قف ببابي عندَ قرعِ النَّوائب وثِقْ بي تجْدني خير خلٍّ وصاحبِ
ولا تلتفت غيري فتُصبحَ نادماً ومَنْ يلتفت غيري يعش عيشَ خائب

كان أبو محفوظ معروف الكرخي قد خصَّه اللَّهُ بالاجتباء في حالِ الصِّبا، يذكر أن أخاه عيسى قال: كنت أنا وأخي معروف في المكتب، وكنَّا نصارى، وكان المعلِّمُ يعلم الصِّبيانَ: «أب» و«ابن»، فيصيح أخي معروف: «أحد أحد»، فيضربُه المعلم[2] على ذلك ضرباً شديداً، حتى ضربه يوماً ضرباً عظيماً، فهرب على وجهه.

وكانت أمُّه تبكي، وتقول: لئن ردَّ الله علي معروفاً، لأتَّبِعَنَّه على أي دين كان، فقدم عليها معروفُ بعد سنين كثيرة، فقالت له: يا بني، على أيِّ دين أنت؟ قال على دين الإسلام، فقالت: أشهدُ أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فأسلَمَتْ أُمِّي وأسلمنا كلُّنا[3].

---

(١) الأبيات في «ديوان» الإمام الشافعي ص٧٨. وانظر «صفة الصفوة» ٢/٢٥٨.

(٢) تحرفت هذه العبارة في النسخة السعودية تحريفاً قبيحاً عجيباً، فأصبحت: وكان المعلم يعلم صبيان أبي ولا يعلمني فنصيح أنا وأخي: لا يعلمنا أحد، فيضربنا المعلم.

(٣) انظر «صفة الصفوة» ٢/٣١٨.

وقال أحمد بن الفتح: رأيتُ بشر بن الحارث في منامي وهو قاعد في بستان بين يديه مائدة وهو يأكل منها، فقلت: يا أبا نصر، ما فعل الله بك؟ قال: رحمني وغفر لي، وأباح ليَ الجنَّة بأسْرِها، وقال لي: كل من جميع ثمارها، واشرب مِنْ أنهارها، وتمتع بجميع ما فيها، كما كنت تحرِمُ نفسك عنِ الشَّهوات في دار الدنيا.

فقلت له: فأين أخوك أحمد بن حنبل؟ فقال: هو قائمٌ على باب الجَّنة يشفع لأهلِ السُّنَّةِ مَّمن يقول: القرآن كلامُ اللَّهِ غيرُ مخلوق.

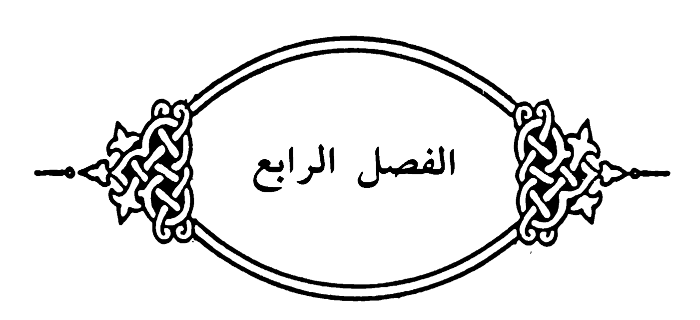
فقلت له: ما فعل الله بمعروف الكرخيِّ؟ فحرَّك رأسه، وقال: هيهات هيهات! حالت بيننا وبينه الحُجُبُ. إنَّ معروفاً لم يعبُدِ الله شوقاً إلى جنته، ولا خوفاً مِنْ ناره، وإنَّما عبده شوقاً إليه[1]، فرفعه إلى الرَّفيق الأعلى، ورفع الحجاب بينَه وبينَه.

ذلك الدرياق المقدس المجّرب، فمن كانت له إلى الله حاجة، فليأت قبره، وليدع، فإنَّه يُستجاب له إن شاء الله تعالى[2].

---

(١) شوقنا إلى لقاء الله سبحانه لا ينافي رجاءنا رحمته وخوفنا عقوبته، ونقول: ﴿ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ [آل عمران: ١٦]، ونقول: ﴿ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما﴾ [الفرقان: ٦٥]، ونقول: ﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ [الزمر: ١٣]، وقال الله عز وجل عن أنبيائه عليهم السلام: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ [الأنبياء: ٩٠].
إلى غير ذلك من الآيات. وانظر موعظة الحسن البصري رحمه الله ص ٤٩ ـ ٥١ من هذا الكتاب.

(٢) التبرك بقبور الأولياء والصالحين، واعتقاد إجابة الدعاء عندها، هو من الشرك الأكبر المنافي لعقيدة التوحيد، وهو كالذي كان يفعله عبدة الأوثان من التبرك باللات والعزى ويغوث ويعوق.



الفصل الرابع

يا إخوان الغفلة تيقَّظُوا، يا مقيمين على الذُّنوب انتهوا واتَّعظُوا. فبالله أخبروني: مَنْ أسوأ حالاً مِمَّن استعبده هواه، أم من أخسرُ صفقةً ممن باع آخرته بدنياه، فما للغفلة قد شملت قلوبَكم؟ وما للجهالة قد سترت عنكم عيوبَكم؟ أما ترَوْنَ صوارمَ الموتِ بينكم لامعة، وقوارعَه بكم واقعة، وطلائعَه عليكم طالعة، وفجائعَه لعذركم قاطعة، وسِهامَه فيكم نافذة، وأحكامه بنواصيكم آخذة؟ فحتَّى مَ؟ وإلى مَ؟ وعلامَ التخلُّفُ والمقام؟ أتطمعون في بقاءِ الأبد؟ كلَّا والواحدِ الصَّمد. إنَّ الموتَ لبالرَّصد، ولا يبقي على والدٍ ولا ولد، فجُدُّوا ـ رحمكم الله ـ في خدمة مولاكم، وأقلِعُوا عَنِ الذُّنوب، فلعلَّه يتولَّاكم.

يُروى عن محمد بن قدامة، قال: لقي بشرُ بن الحارث رجلاً سكرانَ، فجعل السكران يقبِّلُه، ويقول: يا سيدي أبا نصر، ولا يدفعُه بشرٌ عن نفسه، فلما تولَّى تغرغرت عينا بشرٍ بالدُّموع، وقال: رجلٌ أحبَّ رجلاً على خيرٍ توهَّمه فيه، ولعلَّ المحبَّ قد نجا والمحبوب لا يدري ما حاله.

فوقف على أصحاب الفاكهة، فجعل ينظُر، فقلت: يا أبا نصر، لعلَّك تشتهي مِنْ هٰذا شيئاً؟ قال: لا، ولكن نظرتُ في هٰذا؛ إذا كان يُطعم هٰذا لمن يعصيه، فكيف مَنْ يطيعُه ماذا يطعمه في الجنة ويسقيه[1]؟!.

---

(١) «صفة الصفوة» ٢/٣٢٧.

إخواني: ما للغافل إلى كم ينام؟ أما تُوقِظُه الليالي والأيام؟ أين سُكّان القصور والخيام؟ دارَ - والله - عليهم كأسُ الحِمام، فالتقطهم الموتُ كما يلتقط الحبَّ الحَمام. ما لمخلوقٍ فيها دوام، طُويَتِ الصُّحفُ، وجفَّتِ الأقلام.

وأنشدوا:

دعوني على نفسي أنوحُ وأندبُ	بدمعٍ غزيرٍ واكفٍ[1] يتصَبَّبُ
دعوني على نفسي أنوح لأنَّني	أخافُ على نفسي الضَعيفةِ تُعطبُ
فمن لي إذا نادى المنادي بمن عصى	إلى أين ألْجا أم إلى أين أذهبُ
فياطُولَ حزني ثم ياطُولَ حسرتي	إذا كنتُ في نار الجحيم أُعَذَّبُ
وقد ظهرت تلكَ القبائحُ كلُّها	وقد قُرِّبَ الميزانُ والنَّار تلهبُ
ولكنني أرجو الإلٰه لعله	بحسن رجائي فيه لي يتوهَّبُ
ويدخلني دارَ الجنان بفضله	فلا عملٌ أرجو به أتقرَّبُ
سوى حبِّ طه الهاشميِّ محمدٍ	وأصحابِه والآل مَنْ قد ترهَّبوا[2]

قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى برجل يوم القيامة قد جمع المال مِنَ الحلال، وأنفقه في الحلال، فيقال له: قِفْ للحساب، فيُحاسَبُ على كلِّ حبة وذرَّة ودانِقٍ: مِنْ أين أخذه، وفيم أنفقه»، ثم قال ﷺ: «يا ابن آدم، ما تصنع بالدُّنيا؟ حلالُها حسابٌ، وحرامها عقاب»[3].

---

(١) أي: يسيل ويقطر.

(٢) الأبيات في «بستان الواعظين ورياحين السامعين» ص ١٧٨ للمصنف، مع اختلاف عما هنا. وجاء البيت الأخير في النسخة السعودية على النحو التالي:

سوى حبي المختار من آل هاشم ... وأصحابه أهل التقى من قد ترهبوا

(٣) لم أجد الحديث بنصه، وروى قوله: «الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب» ابن أبي الدنيا والبيهقي عن علي موقوفاً بإسناد منقطع، قاله الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء» ٣/٢٢٠، وانظر «تذكرة الموضوعات» للفُتَّني ص ١٧٤، و«كشف الخفاء» ١/٤٤١ - ٤٤٢.

وأنشدوا:

فلا تأمَنْ لذي الدنيا صلاحا ... فإنَّ صلاحها عين الفساد
ولا تفرح لمالٍ تقتنيه ... فإنَّك فيه معكوسُ المراد

قال بعض العارفين رضي الله عنه: إن أبا يزيد البسطامي [1] بكى عند موته، ثم ضحك، ثم فارق الدُّنيا، فرُؤي في المنام بعد موته، فقيل له: لِمَ بكيتَ قبل الموت ثمَّ ضحكت؟ فقال: لما كنت في النَّزْع، أتاني إبليسُ لعنه اللَّهُ، وقال لي: يا أبا يزيد، أَفْلَتَّ مِنْ شبكتي، فبكيت حينئذ إلى الله تعالى، فنزل علي مَلَكٌ مِنَ السَّماء، وقال لي: يا أبا يزيد، يقول لك ربُّ العزة: لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالجنة، فضحكت عند ذٰلك، وفارقت الدنيا.

وأنشدوا:

وقفتُ وأجفاني تفيضُ دموعُها ... وقلبي مِنْ خوف القطيعة هائمُ
وكلُّ مسيءٍ أوْبقتْهُ ذنوبه ... ذليلٌ حزينٌ مطرقُ الطَّرفِ نادِمُ
فيا ربِّ ذنبي قد تعاظَمَ قدرُه ... وأنتَ بما أشكوه ياربِّ عالمُ
وأنت رؤوفٌ بالعبادِ مهيمنٌ ... حليمٌ كريمٌ واسعُ العفْوِ راحمُ

يا أخي: كم مِنْ يوم قطعْتَه بالتَّسويف؟ وكم مِنْ سببٍ أضعتَ فيه التكليف، وكم أُذن سمَّاعة لا يزجُرها التخْويف؟

ولمَّا حضرت جابرَ بن زيدٍ الوفاةُ، قيل: ما تشتهي؟ قال: نظرة في وجه الحسن فبلغ ذلك الحسن، فجاءه ودخل عليه، وقال له: يا جابرُ،

---

(١) اسمه طيفور بن عيسى. قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ١٣/٨٨: سلطان العارفين، أحد الزهاد... وجاء عنه أشياء مشكلة لا مساغ لها، الشأن في ثبوتها عنه، أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والمحو، فيطوى ولا يحتج بها، إذ ظاهرها الإلحاد.

كيف تجدك؟ قال: أجدُ أمرَ اللَّهِ غيرَ مردود. يا أبا سعيد، حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، فقال الحسن: يا جابر، قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مِنَ اللَّهِ على سبيلِ خيرٍ؛ إن تاب قَبِلَه، وإن استقال أقاله، وإن اعتذرَ إليه قَبِلَ اعتذاره، وعلامة ذلك قبل خروج روحه يجدُ برداً على قلبه»، فقال جابر: الله أكبر! إني لأجدُ برداً على قلبي. ثم قال: اللهم إن نفسي تطمعُ في ثوابك، فحقِّق ظنِّي، وآمن خوفي وجزعي، ثم تشهَّدَ ومات رضي الله عنه(١).

وكان سبب توبة داود الطائي أنَّه دخل المقبُرة، فسمع امرأة عند قبر تبكي وتقول:

تزيد بلىً في كل يوم وليلة ... وتسأل لِمْ تبلى وأنت حبيبُ
مقيم إلى أن يبعث الله خلقَه ... لقاؤك لا يُرجى وأنت قريب(٢)

(١) الخبر دون الحديث في «الحلية» ٣/٨٩.
(٢) انظر «صفة الصفوة» ٣/١٣٢، والطبقات ق ٤٤ للمصنف، و«التوابين» ص ١٩٦ - ١٩٧ لموفق الدين بن قدامة المقدسي.



إخواني: قيِّدوا هٰذه النفوس بزمام، وازجُروا هٰذه القلوب عَنِ الآثام، واقرؤوا صُحف العِبَر بألسنة الأفهام. يا مَنْ أجلُه خلفَه وأملُه قُدَّام، يا مقتحماً على الجرائم أيَّ اقتحام، انتبهوا يا نوّام، كم ضيعتم مِنْ أعوام، الدُّنيا كلُّها منام، وأحلى ما فيها أضغاث أحلام، غيرَ أنَّ عقل الشيخ فيها كعقل الغلام، فكلٌّ من قهر نفسه فيها فهو الهُمام. هٰذه الغفلةُ قد تناهت، والمصائب قد تدانت، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، والسلام.

مرَّ عيسى عليه السلام على قرية، فوجد كلَّ مَنْ فيها أمواتاً وهم مطروحون على وجوههم في الأزِقَّة، فتعجّب عيسى عليه السلام مِنْ ذٰلك، وقال: يا معشر الحواريين، إنَّ هٰؤلاء القوم قد ماتوا على سخطٍ وغضبٍ، ولو ماتوا على رضا مِنَ الله، لـدَفَن بعضهم بعضاً. فقالوا: يا رُوحَ اللَّهِ، ودِدنا أن نعرف قضيَّتهم وخبرهم. قال: فسأل الله عز وجل في ذٰلك، فأوحى الله إليه: إذا كان الليل نادِهم، فإنَّهم يجيبونك.

فلما كان الليل، صعد عيسى على شَرَفٍ ونادى: يا أهل القرية، فأجابه مجيبٌ مِنْ بينهم: لبَّيك يا روحَ الله، فقال: ما قضيَّتُكم، وما خبرُكم؟ فقال: يا روحَ الله، بتنا في عافية، وأصبحنا في هاوية. قال: ولِمَ ذٰلك؟ قال: لحُبِّنا في الدنيا، وطاعتنا لأهل المعاصي، ولم نأمُر بالمعروف، ولم ننْهَ عنِ المنكر. فقال له عيسى عليه السلام: كيف كان حبُكم للدُّنيا؟ قال: كحبِّ الصبِّيِّ لأمه؛ إذا أقبلت فرحنا، وإذا أدبرت حزِنَّا وبكينا. فقال

له عيسى عليه السلام: يا هٰذا، ما بالُ أصحابك لم يُجيبوني؟ قال: إنهم ملجمون بلجامٍ مِنَ النَّار بأيدي ملائكةٍ غلاظٍ شِدادٍ. قال: وكيف أجبتني أنتَ مِنْ بينهم؟ قال: إنِّي كنت فيهم، ولم أكن منهم، فلما نزل بهمُ العذابُ لحقني معهم، فأنا الآن معلَّقٌ على شفير جهنَّم، لا أدري: أنجو منها، أم أُكَبُّ فيها[1]. أعاذنا الله منها.

يا مَنْ يسيرُ بعمرِهِ وقد تعدى الحدودَ، ابكِ على مُصيبتك فلعلَّك مطرود. يا من عمرُه ينتهب وليس الماضي يعود، قد أسمعَتْكَ المواعظُ مِنْ إرشادها نُصحاً، وأخبرك الشيبُ أنَّك بالموت تقصد وَتُنَحَّا، وناداك لسانُ الاعتبار: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: ٦].

وأنشدوا:

لمَّا انقضى زمن التَّواصل والرِّضا قد صرت تطلبُ ردَّ أمر قد مضى
هلَّا أتيت ووقتُ وصلك ممكنٌ وبياضُ شيبك في العوارض ما أضا

يا أخي: هذا أوانُ الرُّجوع والاستغفار والإقلاع عَنِ الذُّنوب والأوزار. «من بلغ أربعين سنة ولم يغلب خيره على شرِّه، فليتجهَّز إلى النار»[2].

وأنشدوا:

أتيتُك راجياً يا ذا الجلالِ ففرِّج ما ترى مِنْ سوءِ حالي
عصيتُك سيِّدي - ويلي - بجهلي وعيبُ الذَّنْبِ لم يخطُر ببالي
إلى مَنْ يَشتكي المملوكُ إلاَّ إلى مولاه يا مولى الموالي

---

(١) «حلية الأولياء» ٤/٦١.

(٢) رواه المصنف في «الموضوعات» ١/١٧٨ - ١٧٩ من حديث ابن عباس بلفظ: « من أتى. . . »، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.
وانظر «تنزيه الشريعة المرفوعة» ١/٢٠٥ لابن عراق الكناني.

فـويـلي، ليتَ أُمّي لـم تـلِدْنـي ولا أعصيـك في ظُلَمِ اللَّيـالي
وهـا أنـا ذا عُبَيْـدُك عبدُ سـوءٍ ببـابـك واقفٌ يـاذا الـجـلالِ
فـإن عـاقـبتَ يـا ربـي، فـإنِّي مـحقٌّ بـالـعـذاب وبـالـنَّكـالِ
وإن تـعـفـو فـعفُـوك أرتـجيـه ويَحسُن إنْ عفـوتَ قبيـح حـالي

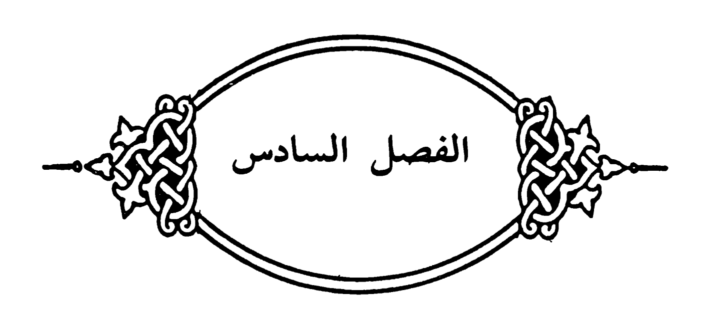
يقول الله عز وجـل: يا عبـادي، أما علمتم أني جعلت الـدُّنيا دارَ تكليفٍ وامتحان، وأني لا أخص بمنازل الفضل والإحسان إلاَّ مَنْ تابَ إليَّ فيها عَنْ مواطنِ الزَّلاَّت والعِصيان، فما لكُم ما أتيتم لبابي، ولا رغِبتم في جزيل فضلي وثوابي، ولا خفِتم مِنْ أخذي وعقابي؟.

فيا مَنْ جلَّت غفلتُه، وطالت سكرتُه، تأمَّـل عطْفَ المـولى عليك، وإحسانَه إليك. فبالله عليكم، حطُّوا بالتَّوبة عَنْ ظهـوركم أحمالَ الخـطايا والذُّنوب، وأقبِلُوا بقلوبكم إلى علاَّم الغيوب، واغسِلُوا وجوهكم بقطرات الدُّموع، واشتمِلُوا بأردية التذلُّل والخضوع.

وأنشدوا:

ركـبـت مـآثـمي فـلقيـتُ ذُلّا وسـالت عَبـرتي طـلاً وَوَبْـلا[1]
وصـرت أُعـاتِبُ القلب المبـلّا إلـى مَنْ يَشتـكي الـمـملوك إلاَّ
إلى مـولاه يـا مـولى المـوالي فلُطْفُـكَ بـي إلـه العـرش أولـى

(١) الـطَّلّ: المطر الضعيف، أو أخف المـطر وأضعفه، أو النـدى، والوبـل: المطر الشديد الضخم القطر.



الفصل السادس

إخواني: انتبهوا مِنْ غفلتكم، فنومُ الغفلة ثقيل، وشمِّروُا لآخرتكم، فإنَّما الدُّنيا منزل، وفي طريقها مَقيل.

جاء في بعض الأخبار، أنَّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: يا نبيِّي، شتَّان بين مَنْ عصاني وخالف أمري، وبين من قطع عمرَه في معاملتي وذكري ولزوم الوقوف ببابي، ومرَّغ خده على أعتابي، فيا خجْلَة الخاطئين، ويا ندامة البطَّالين.

وأنشدوا:

اخْلُو بنفسك إن أردتَ تقرُّبا ... ودَعِ الأنام بمعزلٍ يا عاني
واعمل على قطع العلائق جملةً ... في العيش في خَرْقِ الحجاب الفاني

وفي الخبر أن النبي ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «يا أصحابي، أتدرونَ مَنِ المفلسُ؟» قالوا: يا رسولَ الله، المفلس عندنا مَنْ ليسَ له دينارٌ ولا درهمٌ. فقال لهم: «ليس هو ذٰلك، إنَّما المفلسُ مَنْ يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وصدقةٍ، ثمَّ يأتي وقد شتَمَ هٰذا، ولطمَ هٰذا، وأكلَ مالَ هٰذا، وسفك دمَ هٰذا، فيُعطى هٰذا مِنْ حسناته، وهٰذا كذٰلك، حتى تفنى حسناتُه قبل أن يؤدِّي ما عليه، فتؤخذُ خطاياهم، فتُحمَلُ على خطاياه، ويُقذَفُ به في النَّارِ، فهٰذا هو المفلس»[1]. نعوذ بالله من الحرمان.

---

(١) هٰذا معنى الحديث. وراه مسلم(٢٥٨١) بغير هٰذا اللفظ.

قال بعض الصالحين رضي الله عنهم: أتيت إبراهيم بن أدهم لأزوره، فطلبتُه في المسجد، فلم أجده، فقيل لي: إنه خرج الآن مِنَ المسجد، فخرجت في طلبه، فوجدته في بطن واد نائماً في زمان الحرِّ، وحيَّةٌ عظيمةٌ عند رأسه، وفي فمِ الحيَّة غصنٌ مِنَ الياسمين، وهي تُشَرِّدُ عنه الذُباب، فبقيتُ متعجِّباً مِنْ ذلك، وإذا بالحيَّة قد أنطقها الله الذي أنطق كلَّ شيءٍ، فقالت لي: مِمَّ تتعجبُ أيُّها الرجلُ؟ فقلت لها: مِنْ فعلك هذا، وأكثر تعجُّبي مِنْ كلامك وأنت عدوَّةٌ لبني آدم. فقالت لي: والله العظيم، ما جعلَنا الله أعداءً إلَّا للعاصين، وأمَّا أهل طاعته، فنحن لهم منقادون.

وأنشدوا:

فِعالي قبيح وظنِّي حَسَنْ	وربي غفورٌ كثير المِنَنْ
تُبارِزُ مولاك يا من عصى	وتخشى مِنَ الجار لمَّا فطِنْ
ركبتُ المعاصي وشيبي معي	فوالله يا نفسُ ما ذا حَسَنْ
فقُومي الدَّياجي له وارغبي	وقولي له: يا عظيم المِنَنْ
وقولي له: يا عظيم الرَّجا	إذا أنت لم تَعْفُ عنِّي فمنْ
بحقِّ النبي هو المصطفى	بحقِّ الحُسين بحقِّ الحَسَنْ[1]

(١) قال العلامة ابن أبي العز الدمشقي في «شرح العقيدة الطحاوية» ١/٢٩٤ ـ ٢٩٩: إن من «يقول بحق نبيك، أو بحق فلان، يقسم على الله بأحد مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين: أحدهما: أنه أقسم بغير الله.

والثاني: اعتقاده أن لأحدٍ على الله حقاً، ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلَّا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾ [الروم: ٤٧]، وكذلك ما ثبت في «الصحيحين» من قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، وهو رديفه: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم». فهذا حق وجب بكلماته التامة، ووعده الصادق، لا أنَّ العبد نفسه =

أيُــدْفَــعُ مــثــلي إلــى مــالــكٍ وتـعـلـمُ أنِّي ضـعـيـفُ الــبــدن

جلس الحسنُ البصري ذات يوم يعظُ النَّاس، فجعلوا يزدحمون عليه

= يستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكلِّ خير، وحقهم الواجب بوعده، هو أن لا يعذبهم، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يُقْسم بـه، ولا أن يُسْأل بسببـه، ويُتوسَّـل به، لأن السَّبب هـو ما نصبه الله سبباً. . . ولقد أحسن القائل:

مــا لـلعـبــاد عـلـيــه حق واجــبٌ كــلّا ولا سـعي لــديــه ضــائــع
إن عُــذِّبُوا فَبِعَــدْلِــهِ، أو نُعِّمُــوا فبفضله وهــو الــكــريم الــواســع

وقال رحمه الله: وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذور أيضاً؛ لأنَّ الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق، وقد قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك»، ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم: يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان، أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام، ونحو ذلك. . .

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، و يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليـائك، ومراده: لأن فلاناً عندك ذو وجاهة وشـرف ومنزلـة، فأجب دعاءنا، وهٰـذا أيضاً محذور، فإنـه لو كـان هٰذا هـو التوسـل الذي كـان الصحابـة يفعلونه في حيـاة النبي ﷺ، لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، ويطلبون منه أن يدعو لهم، وهم يؤمِّنُون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره، فلما مات ﷺ، قال عمر رضي الله عنـه لمـا خرجوا يستسقون: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا» معناه بـدعائـه هو ربـه وشفاعتـه وسؤاله، ليس المراد أنَّا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبي ﷺ أعظم وأعظم مِنْ جاه العباس.

وتارة يقول: بـاتباع لـرسولـك ومحبتي له، وإيمـاني به، وبسـائر أنبيـائك ورسلك وتصـديقي لهم، ونحو ذلـك، فهٰذا من أحسن مـا يكون من الـدعاء والتـوسـل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به فيه إجمال، غلط بسببه من لم يفهم معناه، فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً، وهٰذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محباً له، مطيعاً لأمره، مقتدياً به، وذٰلك أهل للمحبة والطاعة والاقتداء، فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإما بمحبَّة السائل واتِّباعه، ويُراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه، ونُهوا عنه.

ليقربوا منه، فأقبل عليهم، وقال: يا إخوتاه، تزدحمون عليَّ لتقربوا مني؟ فكيف بكم غداً في القيامة إذا قُرِّبت مجالسُ المتَّقين، وأُبعدت مجالسُ الظالمين، وقيل للمخفين: جوزوا، وللمثقلين حطُّوا؟ فيا ليت شعري: أمع المثقلين أحطُّ، أم مع المخفين أجوز؟ ثم بكى حتى غُشي عليه، وبكى مَنْ حولَه، فأقبل عليهم وناداهم: يا إخوتاه، ألا تبكون خوفاً مِنَ النَّار؟ ألا مَنْ بكى خوفاً مِنَ النار نجَّاه الله منها يوم يُجَرُّ الخلائقُ بالسّلاسل والأغلال.

يا إخوتاه، ألا تبكون شوقاً إلى الله. ألا وإن مِنْ بكى شوقاً إلى الله، لم يُحرم مِنَ النظر غداً إلى الله إذا تجلَّى بالرحمة، واطَّلع بالمغفرة، واشتدَّ غضبُه على العاصين.

يا إخوتاه، ألا تبكون مِنْ عطشِ يومِ القيامة؟ يوم يُحشر الخلائق وقد ذبلت شفاهُهم، ولم يجدوا ماءً إلا حوض المصطفى ﷺ، فيشرب قومٌ، ويُمنع آخرون. ألا وإنَّ مَنْ بكى مِنْ خوفِ عطشِ ذٰلك اليوم، سقاه الله من عيون الفردوس.

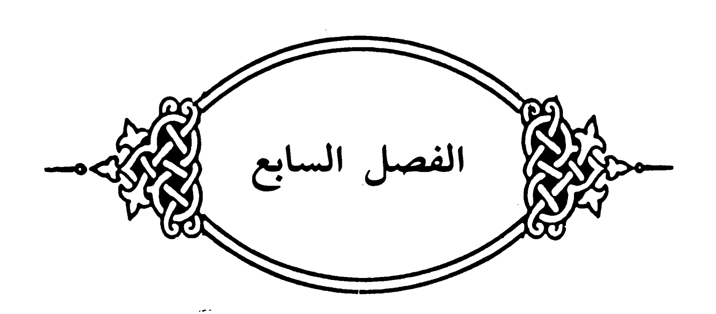
قال: ثم نادى الحسنُ رضي الله عنه: واذلَّاه إذا لم يُرْوَ عطشي يوم القيامة مِنْ حوض النبي ﷺ.

ثم بكى وجعل يقول: والله لقد مررتُ ذاتَ يومٍ بامرأةٍ مِنَ المتعبِّدات، وهي تقول: إلٰهي، قد سئمتُ الحياة شوقاً ورجاءً فيك. فقلت لها: يا هٰذه، أتُراك على يقينٍ مِن عملك؟ فقالت: حُبِّي فيه وحرصي على لقائه بسطني. أتراه يعذِّبني وأنا أحبُّه؟.

فبينما أنا كذٰلك أخاطبُها، إذ مرَّ بي صبيٌّ صغيرٌ مِنْ بعضِ أهلي، فأخذتُه في ذراعي، وضممتُه إلى صدري، ثم قبَّلته. فقالت لي: أتحبُّ هٰذا الصَّبيَّ؟ قلت: نعم. قال: فبكت، وقالت: لو يعلمُ الخلائقُ ما يستقبلون غداً، ما قَرَّت أعينُهم، ولا التذَّت قلوبُهم بشيءٍ مِنَ الدّنيا أبداً.

قال: فبينما أنا كذلك، إذ أقبل ولد لها يقال له: «ضيغم»، فقالت: يا ضيغم، أتراني أراك غداً يومَ القيامة في المحشر أو يُحال بيني وبينك؟ قال: فصاح الصَّبيُّ صيحةً ظننت أنه قدِ انشقَّ قلبُه، ثم خرَّ مغشياً عليه، فجعلتْ تبكي عليه، وبكيتُ لبكائها.

فلما أفاق مِنْ غشيته، قالت له: يا ضيغمُ، قال لها: لبيك يا أمَّاه. قالت: أتحبُّ الموتَ؟ قال: نعم. قالت: ولِمَ يا بني؟ قال لها: لأصيرَ إلى مَنْ هو خيرٌ منك، وهو أرحمُ الراحمين، إلى مَنْ غذاني في ظلمة أحشائك، وأخرجني مِنْ أضيق المسالك، ولو شاء لأماتني عند الخروج من ضيق ذلك المسلك حتى تموتي أنتِ مِنْ شدَّة أوجاعك، لكنه ـ برحمته ولُطفه ـ سهَّل عليَّ وعليك ذلك. أما سمعتيه عز وجل يقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠]، وجعل يبكي وينادي: أوَّاه أواه، إن لم أنجُ غداً مِنْ عذاب الله، ولم يزل يبكي حتَّى غُشِيَ عليه، وسقط في الأرض، فدنت منه أمُّـه، فلمسته بيدها، فإذا هو ميت رحمه الله، فجعلت تبكي وتقول: يا ضيغماه، يا قتيلاً في حبِّ مولاه. ولم تزل كذلك حتَّى صاحت صيحةً عظيمةً، ووقعت في الأرض، قال: فحرَّكتُها، فإذا هي قد ماتت. رحمة الله عليه وعليها، ورحمنا بهما.



الفصل السابع

إخواني: الدُّنيا سمومٌ قاتلة، والنفوس عن مكائدها غافلة. كم مِنْ نظرة تحلو في العاجلة، ومرارتها لا تُطاق في العاقبة الآجلة. يا ابنَ آدم، قلبُك قلبٌ ضعيف، ورأيكَ في إطلاق الطَّرف وأيٌ[1] سخيف. عينُك مطلوقة، ولسانك يجني الآثام، وجسدُك يتعب في كسب الحُطام، كم مِنْ نظرةٍ محتَقَرَةٍ زلَّت بها الأقدام.

عاتبتُ قلبيَ لمَّا ... رأيتُ جسمي نحيلا
فلام قلبيَ طرفي ... وقال: كنت الرَّسُولا
فقالَ طرفي لقلبي: ... بل كنت أنت الدَّليلا
فقلتُ: كُفَّا جميعاً ... تركتُماني قتيلا[2]

كان عيسى عليه السلام يقول: النَّظرةُ تزرع في القلب الشَّهوة.

وقال الحسن: مَنْ أطلق طرفَه، كثُر ألمه.

قال إبراهيم[3]:

ومن كان يؤتى من عدوٍ وحاسدٍ ... فإني من عيني أوتى ومن قلبي

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ وهو يتسلسلُ دماً، فقال له النبي ﷺ: «ما بالك؟» فقال:

---

(١) الوأي: الظن والوهم.

(٢) انظر «ذم الهوى» للمصنف ص ٩٨.

(٣) هو ابن عباس بن صول الكاتب كما في «ذم الهوى» ص ٨١.

مرَّت بي امرأةٌ، فنظرت إليها، فلم يزل يتبعُها بصري، فاستقبلني جدارٌ فضربني، فصنع بي ما ترى، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ الله إذا أراد بعبدٍ خيراً، عجَّل له عقُوبَته في الدُّنيا»[1].

قال أبو يعقوب النهرجوري: رأيت في الطواف رجلًا بفَرْدِ عينٍ، وهو يقول في طوافه: أعوذُ بك منك، فقلت له: ما هذا الدُّعاءُ؟ فقال: إنِّي مجاورٌ منذ خمسينَ سنة، فنظرتُ إلى شخصٍ يوماً فاستحسنتُه، وإذا بلطمَةٍ قد وقعت على عيني، فسالت على خدِّي، فقلت: آه، فوقعت أخرى، وقائل يقول: لو زدتَ لزدناك[2]. وأنشدوا:

دعُوني أُناجي مولىً جليلًا … إذا اللَّيلُ أرخى عليَّ السُّدُولا
نظرتُ إليكَ بقلبٍ ذليلٍ … لأرجُو به يا إلٰهي القَبُولا
لكَ الحمدُ والمجدُ والكبرياءُ … وأنتَ الإلٰهُ الذي لَنْ يزولا
وأنتَ الإلٰهُ الذي لمْ يزلْ … حميداً كريماً عظيماً جليلًا
تُميتُ الأنامَ وتُحيي العِظامَ … وتنشي الخلائق جيلًا فجيلا
عظيمُ الجلال كريمُ الفِعال … جزيلُ النَّوال تُنيل السُّؤولا
حبيبُ القلوب غفورُ الذُّنوب … تُواري العُيوبَ تُقيل الجهولا
وتعطي الجزيلَ وتُولي الجميلَ … وتأخذ مِنْ ذا وذاك القليلا
خزائنُ جودِك لا تنقضي … تَعُمُّ الجوادَ بها والبخيلا

قال بعض العارفين: خرجنا مِنْ أرض العراق نُريد مكَّةَ ومدينةَ المصطفى ﷺ، وكنَّا في رفقة كثيرة مِنَ النَّاس، فإذا نحنُ برجلٍ مِنْ أهل العراق، وقد خرج معنا رجلٌ به أُدْمَةٌ في شُقرة وهو مصفَرُّ اللون، قد ذهب

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٨٤٢)، وصحَّحه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/١٩١ - ١٩٢. ورواه الحاكم في «المستدرك» ١/٣٤٩ عن عبدالله بن مغفل، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٢) الخبر في «ذم الهوى» للمصنف ص ١٠٦.

الدَّم مِنْ وجهه مما قد بلغت فيه العبادة، وعليه ثيابٌ خَلِقَةٌ مِنْ رقَاع شتَّى، وبيده عصا، ومعه مِزْوَدٌ فيه شيءٌ مِنَ الزاد.

قال: وكان ذلك الرجل العابد الزاهد أويساً القرنيَّ. فلمَّا نظر إليه أهل القافلة على تلك الحالة، أنكروه، وقالوا له: نظنُّ أنَّك عبدٌ. قال: نعم. قالوا: نظنُّ أنَّك عبدُ سوءٍ هربتَ مِنْ مولاك. قال لهم: نعم. قالوا: كيف رأيتَ نفسك حين هربتَ مِنْ مولاكَ، وما صار حالُك إليه؟ أما إنَّك لو أقمت عنده، ما كانت هٰذه حالتُك، وإنَّما أنتَ عبدُ سوءٍ مقصِّر. فقال لهم: نعم والله، أنا عبد سوء، ونِعْمَ المولى مولاي، ومِنْ قِبَلي التَّقصير، ولو أطعتُه وطلبتُ رضاه، ما كان مِنْ أمري هٰذا، وجعل يبكي حتَّى كادت نفسُه أن تزهَقَ.

قال: فرحمه القوم، وظنُّوا أنَّه يعني مولىً مِنْ موالي الدُّنيا، وهو ما كان يريدُ بذٰلك إلَّا ربَّ العزَّةِ.

فقال له رجل مِنْ أهل القافلة: لا تخف، أنا آخُذُ لك مِنْ مولاك الأمانَ، فارجع إليه وتُب. فقال: إنِّي راجعٌ إليه، وراغبٌ فيما لديه.

قال: وكان خرج زائراً إلى قبرِ رسول الله ﷺ[1]، فسارت القافلة ذٰلك اليوم، وسار معهم، وَجَدُّوا في السَّير، فلمَّا كان في اللَّيل، نزلوا في فلاةٍ مِنْ الأرض، وكانت ليلةً شاتيةً باردة كثيرةَ المطر. قال: فأوى كلُّ واحدٍ مِنْ أهلِ القافلة إلى رحلِهِ وخِبائه، ولم يَأوِ أُويسٌ إلى شيءٍ، ولم يسألْ أحداً شيئاً. قال: وقد كان آلى على نفسه ألَّا يسألَ شيئاً مِنْ أمورِ الدُّنيا لمخلوقٍ، وإنَّما تكونُ حوائجهُ إلى الله سبحانه وتعالى، فبلغ به البردُ تلك الليلة مبلغاً شديداً، حتى اضطربت جوارحُه مِنْ شدَّةِ البرد، واشتدَّ عليه سلطانُ البردِ حتَّى مات في جوف اللَّيل.

---

(١) انظر لزاماً ص ٣٣. ففيه، بيان عدم شرعية زيارة قبر النبي ﷺ.

فلمَّا أصبحوا وأرادوا الرَّحيل، نادَوْهُ: قم أيُّها الرَّجلُ، فإنَّ النَّاسَ قد رحلوا، فلم يُجِبْهُمْ، فأتاه رجلٌ قريبٌ منه، فحرَّكه فوجده ميتاً رحمه الله، فنادى: يا أهلَ القافلة، إنَّ العبد الهاربَ مِنْ سيِّده قد مات، ولا ينبغي لكمُ الرَّحيلُ حتَّى تدفنوه. قالوا: وما الحيلة في أمره؟

فقال لهم رجل صالح كان معهم: إنَّ هٰذا العبدَ كان عبداً تائباً راجعاً إلى مولاه، نادماً على ما صنع، ونحنُ نرجو أن ينفعنَا الله به، وقد قَبِلَ توبته، ونخاف أن نُسألَ عنه إن تركناه غيرَ مدفونٍ، ولا بُدَّ لكم أن تصبِروا حتَّى تحفِروا له قبراً وتدفنوه فيه.

فقالوا: هٰذا موضعٌ ليس فيه ماء، فقال بعضهم لبعض: اسألوا الدَّليلَ، فسألوه، فقال: إنَّ بينكم وبين الماءِ ساعة، ولكن أرسلوا معيَ واحداً وأنا آتيكم بالماء.

فأخذ الدَّليلُ دلواً، وسار إلى الماء، فلمَّا خرج مِنِ القافلة، إذ هو بغديرٍ مِنَ الماء، فقال الدَّليل: هٰذا هو العجبُ الذي لم أرَ مثلَه! هذا موضعٌ ليس فيه ماءٌ، ولا على قُرْبٍ منه!

فرجع إليهم، وقال لهم: قد كُفيتمُ المُؤْنَةَ. عليكم بالحطب، فجمعوه ليسخنوا به الماءَ مِنْ شدَّة البردِ، ثم أتوا إلى الماءَ ليأخذوه، فوجدوه سخِناً يغلي، فازدادوا تعجُّباً، وفزِعُوا مِنْ ذٰلك الرَّجُلِ، وقالوا: إنَّ لهٰذا العبدِ قصةً وشأناً.

قال: فأخذوا في حفر قبره، فوجدوا التُّرابَ ألينَ مِنَ الزُّبْدِ، والأرض تفوحُ مثلَ المسك الإذفر، ولم يشُمُّوا في دار الدُّنيا أطيبَ منه رائحة، فعند ذلك اشتدَّ خوفُهم، ومُلِئوا رُعباً وفزعاً، وكانوا إذا نظروا إلى التُّراب الذي يخرج مِنَ القبر، وجدوه صِفَةَ التُّراب، وإذا شمُّوه، وجدوا رائحةً كرائحة المسك.

فضربوا له خِباءً وأدخلوه فيه، وتنافسوا في كفنه، فقال رجلٌ مِنَ

القومِ: أنا أكفِّنُه، وقال آخر: أنا أكفنه. فاتَّفق رأيُهم على أن يجعل كلُّ واحدٍ منهم ثوباً.

ثم إنَّهم أخذوا دواةً وقرطاساً، وكتبوا صفتَه ونعته، وقالوا: إذا وصلنا ـ إن شاء الله ـ المدينةَ، فلعلَّ مَنْ يعرفُه، وجعلوا الكتاب في أوعيتهم.

فلمَّا غسَّلوه، وأرادُوا أن يكفِّنُوه، كشفوا الثوبَ الذي كان عليه، فوجدوه مُكفَّناً بكفنٍ مِنَ الجنة، لم يرَ الرَّاؤون مثلَه، ووجدوا على كفنه مِسكاً وعنبراً، وقد ملأتْ رائحة حَنوطه الدُّنيا، وعلى جبينه خاتَمٌ مِنَ المسك، وعلى قدميه كذلك.

فقالوا: لا حولَ ولا قوةَ إلاَّ بالله العلي العظيم. إنَّ الله عز وجل قد كفَّنه وأغناه عن أكفان العباد، ونرجوا الله تعالى أنه قد أوجبَ لنا الجنَّة ورحمنا بهٰذا العبدِ الصَّالح، وندِمُوا ندامةً شديدةً على تركه تلك الليلة حتَّى مات بالبرد.

ثم إنَّهم حملوه ليدفنوه، ووضعوه في بُقعةٍ سهلة ليُصَلُّوا عليه، فلماً كبَّروا، سمعوا أصواتَ التَّكبير مِنَ السَّماء إلى الأرض، ومِن المشرقِ إلى إلى المغرب، وانخلعت أفئدتُهم وأبصارهم، ولم يدروا كيف صلوا عليه مِنْ شدَّةِ الجزع، وعظم رُعبهم ممَّا سمعوا فوق رؤوسهم، فحملوه يريدون قَبره، فكأنه يُخطف مِنْ بينهم ولا يجدون له ثِقلاً، حتَّى أتَوْا به إلى القبر ليدفنوه، فدفنوه، ورجع القوم وقد تعجَّبوا مِنْ أمره.

فلمَّا قضَوْا سفرهم، وأتوا إلى مسجد الكوفة، وأخبروا بخبره، وما كان مِنْ صِفته، فعند ذٰلك عرفه النَّاس، وارتفعت الأصواتُ بالبكاء في مسجد الكوفة، ولولا ذٰلك ما عرفَ أحدٌ بموته، ولا بمكان قبره، لاختفائه عَنِ النَّاس وهروبه منهم رضي الله عنه، ونفعنا ببركاته[1].

---

(١) لم تورد المصادر التي ترجمت لأويس القرني رضي الله عنه هٰذه الحكاية، وما أظنها صحيحة، وقد اختلفت الروايات في سبب وفاته ومكانها.



الفصل الثامن

إخواني: إلى كم هذه الغفلة وأنتم مُطالبون بغير مُهلة؟ فبالله عليكم، تعاهدوا أيامكم بتحصيل العدد، وأصلحوا مِنْ أعمالكم ما فسد، وكونوا مِنْ آجالكم على رَصَد، فقد آذَنَتْكُمُ الدُّنيا بالذَّهاب، وأنتم تلعبون بالأجل وبين أيديكم يومُ الحساب. آهٍ مِنْ ثِقَلِ الحِمْلِ وسوء الرَّفيق... آهٍ مِنْ قلّة الزَّاد وبُعد الطَّريق.

فيا أيها المغرورُ بإقباله، المفتونُ بكواذب آماله، الذي غابَ عَنِ الصَّواب، وهو في فِعله كذَّاب.

يا بطَّال، إلى كم تُؤخِّرُ التَّوبَة وما أنت في التَّأخير بمعذور؟ إلى متى يُقال عنك: مفتونٌ ومغرور؟ يا مسكين، قدِ انقضت أشهرُ الخير وأنت تعُدُّ الشُّهور؟ أتُرى مقبولٌ أنت أم مطرود؟ أترى مواصل أنت أم مهجور؟ أترى تركب النُّجُبَ[1] غداً أم أنت على وجهِكَ مجرور؟ أترى مِنْ أهل الجحيم أنتَ أم مِنْ أرباب النعيم والقصور. فازَ ـ والله ـ المخفُّون، وخسِرَ هنالك المُبطلون، ألا إلى الله تصيرُ الأمور.

وأنشدوا:

مالي أراكَ على الذُّنوبِ مُواظبا أأخذتَ مِنْ سُوءِ الحساب أمانا

---

(١) النُّجب: جمع نجيب، وهو الفاضل الكريم من كل حيوان، والعتاق من الإبل التي يساق عليها.

لا تغفلنَّ كـأنَّ يـومَـك قـد أتى | ولعـلَّ عُمـرَك قـد دنـا أو حـانـا
ومضى الحبيبُ لحَفْرِ قبرك مُسرعاً | وأتى الصَّديقُ فـأنـذر الجيـرانـا
وأتَـوْا بغسَّـالٍ وجـاؤوا نحـوَه | وبـدا بغسـلِكَ ميتـاً عُـريـانـا
فغُسِلْتَ ثمَّ كُسِيتَ ثـوبـاً للبِلى | ودَعَـوْا لحمـل سريـرك الإخـوانـا
وأتـاك أهـلُك للوداع فـودَّعـوا | وجـرت عليـك دُمـوعُهم غُـدْرانـا
فخَفِ الإلَـه فـإنَّـه مَنْ خـافـه | سكنَ الجِنَـان مُجاوراً رِضـوانـا
جنَّـات عَـدْنٍ لا يَبيـدُ نعيمُهـا | أبـداً يـخـالطُ روحـه رَيْحَـانـا
ولمن عصى نـارٌ يقالُ لهـا: لظى | تشـوي الـوُجـوهَ وتحـرِقُ الأبـدانـا
نبكي وحُقَّ لنـا البكـا يـا قـومَنـا | كي لا يؤاخـذَنـا بمـا قـد كـانـا

قال النَّبيُّ ﷺ: «إذا كانَ ابنُ آدمَ في سياقِ الموت، بعث الله إليـه خمسة مِنَ الملائكة:

أمَّا الملَكُ الأوَّل، فيأتيه وروحه في الحُلقُوم، فيناديه: يا ابنَ آدم، أين بدنُك القويُّ؟ ما أضعفَه اليومَ؟ أين لسانُك الفصيح؟ ما أسكتَه اليومَ؟ أين أهلُكَ وقرابتُك؟ ما أوحشكَ منهمُ اليومَ!.

ويأتيه الملكُ الثَّاني إذا قُبض روحه، ونُشر عليه الكفنُ، فيناديه: يا ابن آدم، أين ما أعددت مِنَ الغِنَى للفقـر؟ أين ما أعـددت مِنَ الخرابِ للعمران؟ أين ما أعددتَ مِنَ الأُنس للوَحشة؟

ويأتيه الملك الثَّالث إذا حُمِلَ على الأعناق، فيناديـه: يا ابنَ آدم، اليومَ تُسافر سفراً بعيداً لم تُسافِرْ سفراً أبعدَ منه، اليوم تزورُ قوماً لم تزُرْهم قبلَ هٰذا قطُّ، اليومَ تدخُلُ مُدخلاً ضيقاً لم تدخُلْ أضيقَ منه، فطُوبى لكَ إنْ فُزْتَ برضوان الله، وويلٌ لك إن رجعت بسخط الله.

ويأتيه الملكُ الرَّابع إذا أُلحِدَ في قبره، فيناديه: يا ابنَ آدم، بالأمسِ كنتَ على ظهرها ماشياً، واليوم صِرْتَ في بطنها مضطجعاً. بالأمسِ كُنتَ

على ظهرها ضاحكاً، واليومَ أصبحتَ في بطنها باكياً. بالأمس كنتَ على ظهرها مُذنباً، واليوم أمسيتَ في بطنها نادماً.

ويأتيه الملك الخامس إذا سُوِّيَ عليه التُّرابُ، وانصرف عنه الأهل والجيران والأصحاب، فيناديه: يا ابن آدم، دفنوك وتركوك، ولو أقاموا عندكَ ما نفعوك. جمعتَ المالَ وتركتَه لغيرك. اليوم تَصيرُ إمَّا لجنَّةٍ عالية، أو إلى نارٍ حامية»[1].

ويُروى عن بعض المتعبِّدين أنَّه قال: إلٰهي عصيتُك قويَّاً، وأطعتُك ضعيفاً، وأسخطتُك جَلْدَاً، وخدمتُك نحيفاً، فيا ليت شعري، هل قَبِلْتَني على لُؤْمي، أم صرفتني على جُرْمي؟ قال: ثمَّ غُشِيَ عليه ووقع في الأرض، وانسلخت جبهتُه.

فقامت إليه أمُّه، وقبَّلته بين عينيه، ومسحت جبهتَه وهي تبكي وتقول: قُرَّةَ عيني في الدُّنيا، وثمرةَ فؤادي في الآخرة، كلِّم عجوزَك الثَّكلى، وردَّ جوابَ أُمِّك الحرّى.

قال: فأفاق الفتى مِنْ غشيته، ويدُه قابضة على كبده، ورُوحه تتردَّدُ في جسده، ودموعُه تنسكِبُ على خدِّه ولحيته، فقال لها: يا أمَّاه، هٰذا اليومُ الذي كنتِ تحذِّرينى منه، وهٰذا هو المصرَعُ الذي كنتِ تخوِّفيني منه، هٰذا مصرعُ الأهوال، وسقوطُ عثرةِ الأثقال، فيا أسفا على الأيَّامِ الخالية، ويا جزعي مِنَ الأيام الطِّوال التي لم أُعَرِّجْ فيها على الإقبال.

يا أمَّاه، أنا خائفٌ على نفسي أن يطولَ في النَّار سجني وحبسي. يا حُزناه إن رُميتُ فيها على رأسي، ويا أسفاه إن قُطِعَتْ فيها أنفاسي.

يا أمَّاه، افعلي ما أقولُ لك.

---

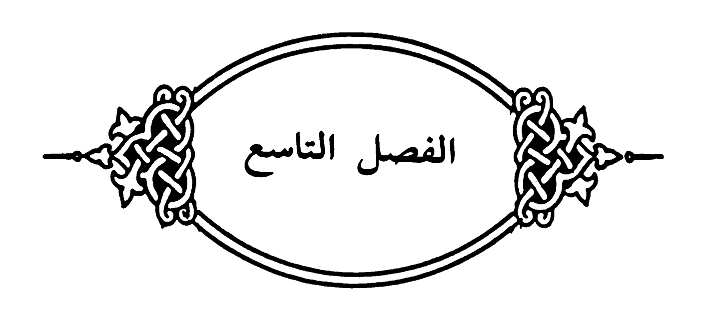
(١) لم أجد الحديث، وظاهر عليه الوضع.

فقالت له: يا بني، فدَتْكَ نفسي، ماذا تريد؟

قال لها: ضعي خدي على التُّراب، وطَئيه بقدمِك حتَّى أذُوقَ طعمَ الذُّلِّ في الدُّنيا، والتلذُّذ للسَّيِّد المولى، عسى أن يرحَمني وينجيني مِنْ نار لظى. قالت أمُّه: فقمتُ إليه في الحال، وقد ألصق خدَّه بالتُّراب، والدُّموعُ تجري مِنْ عينيه كالميزابِ، فوطِئْتُ خدَّه بقدمي، فإذا هو ينادي بصـوتٍ ضعيفٍ: هٰذا جزاءُ مَنْ أذنب وعصى، هٰذا جزاءُ مَنْ أخطأ وأسا، هٰذا جزاءُ مَنْ لم يقف بباب المولى، هٰذا جزاءُ مَنْ لم يُراقِبِ العليَّ الأعلى.

قالت: ثم تحوَّل إلى القبلة، وقـال: لبيَّكَ لبيَّـكَ، لا إلٰه إلاَّ أنتَ سبحانك إنِّي كنتُ مِنَ الظَّالمين.

قال: ثمَّ مات في مكانه، فرأته أمُّه في المنام كأنَّ وجهَه فلقةُ قمرٍ تجلَّى مِنْ سحابٍ، فقالت له: يا بنيَّ، ما فعل بـكَ مولاك؟ قـال: رفع درجتي، وقرَّبني مِنْ محمَّدٍ ﷺ، فقالت له أمُّه: يا بنيَّ، ما الذي سمعتُ منك تقولُه عند وفاتك؟ فقال لها: يا أمَّاه، هتف بي هاتفٌ، وقال لي: يا عمرانُ، أجب داعيَ الله، فأجبتُه، ولبَّيْتُ ربي عز وجل. رحمه الله تعالى.



الفصل التاسع

إخواني: السَّفرُ مكتوبٌ علينا، فما لنا نطلُبُ الإقامة في دار ليست لنا دار مقامة؟ السُّنون منازل، والشُّهور مراحل، والأيام أميال، والأنفاس خُطوات، والمعاصي قُطَّاع، والرِّبح الجنَّة، والخُسرانُ النَّار.

خُلقنا نتقلَّبُ في ستَّةِ أسفار إلى أن يستقرَّ بنا القرار: فالسَّفر الأول: سفر السُّلالة مِنَ الطِّين، والثَّاني: مِنَ الصُّلبِ إلى الرَّحم، والثالث: مِنَ الرَّحم إلى ظهر الأرض، والرَّابع: مِنْ ظهرِ الأرض إلى القبر، والخامس: مِنَ القبر إلى موقف العرض، والسَّادس: مِنْ موقفِ العرض إلى دارِ الإقامة: إمَّا إلى الجنَّة أو النَّار، وقد قطعنا نصفَ الطَّريق، وبقيَ الأصعبُ.

يا مَنْ يضجُّ في الكُرَبِ ويصيح، خلِّ التَّدبير لغيرك فتستريح، تُكثر النَّحيبَ والعويل، وتنسى ما سلَفَ مِنَ الفِعل الوبيل. لو رجعت إليه بقلبِك، لعجَّل عليك بتفريج همِّك وكَرْبِكَ.

يا أخي، إيَّاك والدُّنيا، فإنَّ حبلَ الدُّنيا مبتوت، واقنع منها بالقوت، واعلم أنَّك تموت.

قال ابن المبارك: قدِمتُ مكَّة، فإذا النَّاس قد قُحِطُوا مِنَ المطر، وهم يستسقُون في المسجد الحرام، وكنتُ في النَّاس مِنْ جهة باب بني شيبةَ، إذ أقبل غلامٌ أسودُ، عليه قطعتا خيشٍ، قد ائتزر بإحداهما، وألقى الأُخرى على عاتقيه، فصار في موضعٍ خفيٍّ إلى جانبي، فسمعته يقول: إلٰهي،

أخلَقَتِ الوجوهَ كثرةُ الذُّنوب ومساوئُ العيوب، وقد منعْتَنا غيث السَّماوات لتؤدِّبَ الخليقة بذٰلك، فأسألُك يا حليمُ، يا مَنْ لا يعرِفُ عبادُه منه إلاَّ الجميل، اسقهمُ السَّاعَةَ السَّاعة.

قال ابن المبارك: فلم يزل يقولُ: اسقهم الساعةَ السَّاعة، حتَّى انسدَّ الجوُّ بالغَمام، وأقبلتْ قطراتُ الرُّكام[1] تهطل كأفواهِ القِرَبِ، وجلس مكانَه يسبِّحُ الله تعالى، فأخذتُ في البكاء حتَّى قام، فاتَّبعتُه حتى عرفت موضعَه.

فجئتُ إلى الفُضيل بن عِياضٍ، فقال لي: ما لي أراك كئيباً؟ فقلت له: سبقنا إليه غيرُنا، فولاَّه دونَنا. قال: وما ذٰلك؟ فقصصتُ عليه القصَّة، فصاح وسقط في الأرضِ، وقال: ويحك يا ابنَ المبارك، خُذني إليه، فقلت: قد ضاقَ الوقتُ، وسأبحثُ عَنْ شأنه.

فلمَّا كان مِنَ الغدِ، صلَّيتُ الغداةَ، وخرجتُ أريدُ الموضعَ، فإذا بشيخٍ على بابٍ، وقد بُسِطَ له وهو جالسٌ، فلمَّا رآني عرفني، وقال: مرحباً بك يا أبا عبدِ الرَّحمن، ما حاجتُك؟ فقلت: احتجتُ إلى غُلامٍ، فقال: نعم، عندي عِدَّةٌ، اختر أيَّهم شئتَ، فصاح: يا غلامُ، فخرج غلامٌ جَلْدٌ، فقال: هٰذا محمودُ العاقبةِ، أرضاه لك، فقلت: ليس هٰذا حاجتي، فما زال يُخرج واحداً بعد واحدٍ، حتى أخرج إليَّ الغلامَ، فلما أبصرتُه بدَرَتْ عينايَ بالدُّموع، فقال: هٰذا؟ فقلت: نعم، فقال: ليس لي إلى بيعه سبيلٌ. قلت: ولم؟!. قال: قد تبرَّكتُ بموضعه في هٰذه الدَّار، وذٰلك أنَّه لم تُصبني مصيبةٌ ولا رزيَّةٌ منذ دخل عندي في هٰذه الدَّارِ، فقلت له: ومِنْ أين طعامُه؟ فقال: يكسِب مِنْ فَتْل الشَّريط نصفَ دانِقٍ أو أقلَّ أو أكثر، فهو قوتُه إن باعه في يومه، وإلاَّ طوى ذٰلك اليوم.

---

(١) الركام: السحاب المتراكم.

وأخبرني الغلمان عنه أنَّه لا ينامُ في هٰذا اللَّيل الطَّويل، ولا يختلِطُ بأحدٍ منهم، مهتمٌ بنفسه، وقد أحبَّه قلبي.

فقلت له انصرف إلى الفضيل بن عياض وسفيان الثوري بغير قضاء حاجة، ثم رجعت إليه، وسألت فيه بإلحاح، فقال: إنَّ ممشاك عندي كبيرٌ، خذه بما شئت.

قال: فاشتريته، وسرت معه نحو دار الفُضيل، فمشيتُ ساعةً، فقال لي: يا مولاي.

فقلت له: لبيك.

فقال: لا تقُلْ لبيَّك، فإنَّ العبدَ أولى بأن يلبِّي مِنَ المولى.

قلت: ما حاجتُك يا حبيبي.

قال: أنا ضعيفُ البدن، لا أُطيقُ الخدمة، وقد كان لك في غيري سَعَةٌ، قد أخرج لك مَنْ هو أجلَدُ منِّي وأثبتُ. فقلت له: لا يراني الله تعالى أستخدِمُك، ولا كان اشترائي لك إلَّا أُنزلك منزلَة الأولاد، لأزوِّجَك، وأخدُمكَ أنا بنفسي. قال: فبكى، فقلت له: وما يبكيك؟

قال لي: أنت لم تفعل هٰـذا، إلَّا وقد رأيتَ بعضَ مُتَّصلاتي بالله تعالى، وإلَّا، فلمَ أخذتني مِنْ بين أولئك الغِلمان؟

فقلت له: ليس بك حاجةٌ إلَّا هٰذا.

فقال لي: سألتُك بالله إلَّا أخبرتني.

فقلت له: بإجابة دعوتِك.

فقال لي: إني أحسبك إن شاء الله رجلاً صالحاً، إن لله عزَّ وجل خيرة مِنْ خلقه، لا يكشِفُ شأنَهم إلَّا لمن أحبَّ مِنْ عبادِه، ولا يُظهر عليهم إلَّا مَنِ ارتضى.

ثم قال لي: ترى أن تقِفَ عليَّ قليلاً، فإنَّه قد بقي عليَّ ركعاتٌ من البارحة.

قلت: هذا منزل الفضيل.

قال: لا، ها هُنا أحبُّ إليَّ. إنَّ أمرَ الله تعالى لا يُؤخَّرُ، فدخل المسجد، فما زال يصلِّي حتَّى أتى على ما أراد، فالتفتَ إليَّ وقال: يا أبا عبدالرحمن، هل لك مِنْ حاجة؟

قلت: ولم.

قال: لأني أُريدُ الانصرافَ.

قلت: إلى أين؟

قال: إلى الآخرة.

قلت: لا تفعل، دعني أنتفع بك.

فقال لي: إنِّما كانت تطِيبُ الحياةُ حيث كانتِ المعاملَةُ بيني وبينه تعالى، فأمَّا إذا اطَّلعتَ عليها أنت، سيطَّلعُ عليها غيرُك، فلا حاجةَ لي في ذلك، ثمَّ خرَّ على وجهه، وجعل يقول: إلهي اقبِضني السَّاعةَ السَّاعة، فدنوتُ منه، فإذا هو قد مات. فوالله ما ذكرتُه قطُّ إلَّا طالَ حُزني، وصغُرَتِ الدُّنيا في عيني، وحقرت عملي. رحمه الله ورحمنا به[1].

---

(١) انظر الحكاية في «صفة الصفوة» ٢/٢٦٨ ـ ٢٧٢، و«الطبقات» ق ١٤٠ ـ ١٤١. والرقة والبكاء لابن قدامة ٢٥٧ ـ ٢٥٩.



يا هٰذا، كم تتزيَّا بزيِّ العُبَّادِ والزُّهَّادِ وحالُ قلبك في الغفلةِ ما حال، الظَّاهرُ منكَ نقيٌّ، والباطن منك متَّسِخٌ بطولِ الآمال. لا تصلح المحبة لمن يُميله حبُّ المال، ولولا مكابَدَةُ المجاهدة لم يُسمَّ القوم رجال.

يا ميتَ القلبِ، وعدُك في الدُّنيا صحيح، وفي الآخرة مُحال، إنْ لم تُبادر في الشَّباب، فبادر في الاكتهال، ما بعدَ شيبِ الرَّأس لهوٌ ولما أبعد عثرة الشَّيخِ أن تُقال. ضيَّعتَ زمانَ الشَّبابِ في الغفلةِ، وفي الكبر تبكي على التفَّريط في الأعمال، لو علمتَ ما أُحصِيَ عليك، لكنتَ مِنَ الباكين طول اللَّيال.

قال رجل لذي النُّون رضي الله عنه وهو يعظُ النَّاس: يا شيخُ، ما الذي أصنع؟ كلَّما وقفتُ على بابٍ مِنْ أبواب المولى صرفني عنه قاطعُ المِحَنِ والبلوى.

قال له: يا أخي كن على باب مولاكَ كالصَّبيِّ الصَّغير مع أُمِّه، كلَّما ضربَتْهُ أمُّه ترامى عليها، وكلَّما طردَتْهُ، تقرَّب إليها، فلا يزال كذٰلك حتَّى تَضُمَّه إليها.

يروى أنَّ عيسى عليه السلام كان يسيحُ في الأرض، ويقول: دابَّتي رجلاي، ولباسي الشَّعر، وشعاري خوفُ الله، ورَيحاني عشبُ الأرض، وطعامي خبزُ الشَّعير، وظلِّي ظُلماتُ اللَّيل، ومسكني حيثُ آواني اللَّيلُ، وهٰذا لمن يموتُ كثيرٌ.

ويُروى عن الشِّبلي رضي الله عنه أنه قال: رأيت بدوياً بمكة ـ حرسها الله تعالى ـ وهو يخدمُ الصُّوفية، فسألَته عن سببِ ذٰلك، فقال لي: كنتُ بالبادية، وإذا بغُلام حافٍ مكشوف الرأس ما معه زاد ولا ركوة ولا عصا، فقلت في نفسي: أُدْرِكُ هٰذا الفتى، فإذا كان جائعاً أطعمتُه، وإن كان عطشان سقيتُه.

قال: فبادرتُ إليه حتَّى بقيَ بيني وبينه مِقدارُ ذراعٍ، وإذا به بَعُدَ عنِّي حتَّى غاب عن عيني، فقلت: هٰذا شيطان وإذا به يُنادي: لا، بل سكران.

فناديتُه: يا هٰذا، بالذي بعث محمداً ﷺ بالحقِّ إلاَّ ما وقفتَ عليَّ.

فقال لي: يا فتى أتعبتني وأتعبتَ نفسَك.

فقلت له: رأيتُك وحدَك، فأردت خدمتَك.

قال لي: من يكنِ اللَّهُ معه، كيفَ يكونُ وحدَه؟!

فقلت له: ما أرى معك زاداً.

فقال لي: إذا جُعتُ، فذِكْرُهُ زادي، وإن عطشتُ، فمشاهدته سؤلي ومُرادي.

فقلت له: أنا جائعٌ، فأطعمني.

فقال: أولم تُؤمن بكراماتِ الأولياء.

فقلت: بلى، ولكن ليطمئنَّ قلبي، فضرب بيده الأرضَ، وكانت أرض رملة، ثم قبض قبضة، وقال: كلِ يا مخدوعُ، وإذا هو سَوِيقٌ ألذُّ ما يكون.

فقلت: ما ألَذَّهُ!

فقال لي: في البادية عندَ الأولياء مِنْ هٰذا كثيرٌ، لو عقَلت.

فقلت له: اسقِني، فركضَ برجله الأرضَ، فإذا هو بعينٍ مِنْ عسلٍ وماءٍ، فجلست لأشربَ مِنْ تلك العين، ثم رفعتُ رأسي، فلم أره، ولم أدرِ كيف غابَ، ولا أينَ ذهب، فأنا أخدُم الفقراءَ مِنْ ذٰلك اليوم إلى الآن، لعلِّي أرى مثلَ ذٰلك الوليِّ.

يا هٰذا، إلى متى تسمعُ أخبارَهم ولا تقفُو آثارهم، اطلب رفقَةَ التَّائبين عساك لطريقهم ترشَد، اندُب على بِعادِك يا مطرودُ، فمثلُك مَنْ بكى وعدد، اعتذِرْ يا مهجورُ، عساك بالذُّل تسعَدْ، وقل بلسان التذلُّل والأسف والكمد:

كم ذا التَّلَوُّمُ لا إقلاعَ يصحبُه ولا عزيمةَ هٰذا العجزُ والكسلُ
وكم أُردِّدُ أقوالاً ملفَّقَةً ما ينفعُ القولُ إنْ لم يصدُقِ العملُ

واعجباً! كم لي أُعاتب المهجورَ والعتبُ ما ينفع، كم لي أُنادي أطروش[1] الغفلة لو كان النِّداء يسمع، كم لي أُحدِّثُ قلبك وفي سماعك أطمع. واهاً عليكَ يا جامد العين قطُّ ما تدمَع، مِنْ علامة الخِذلان قلبٌ لا يخشع، قلبُك ذهب في حبِّ الفاني، وأنت للحرام تجمع. عليك يا غافلُ في جمعه الحساب، وتُخْلِفُه لمن لا ينفع، بينما أنت في بستان اللَّهو إذ قيل: فلانٌ سافر وليس في رجوعه مَطمع.

ويروي عن علي بن أبي صالح أنَّه قال: كنتُ أدورُ في جبل اللُّكَّام[2]

---

(١) أي: الأطرش الذي لا يسمع.

(٢) جبل اللكام ـ بضم اللام وتشديد الكاف أو تخفيفها مع الضم ـ: جبل مشرف على أنطاكية وبلاد ابن ليون ومصيصة وطرسوس وما حولها من الثغور. «معجم البلدان» لياقوت الحموي ٢٢/٢. وقال فيه (١١/٤): وفيه يكون الأبدال من الصالحين، وانظر لزاماً «مجموعة الفتاوى» لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥١/٢٧.

أطلب الزُّهَّاد والعبَّاد، فرأيتُ رجلاً عليه مرقَّعة، وهو جالسٌ على صخرةٍ مطرقٌ إلى الأرض.

فقلت له: يا شيخُ ما تصنع ها هنا؟

قال لي: انظر، وأرعى.

قلت له: ما أرى بين يديك إلاَّ الحجارةَ، فما الذي تنظر وترعى.
قال: أنظرُ خواطرَ قلبي، وأرعى أوامر ربِّي، فبحقٍّ الذي أظهرك عليَّ إلاَّ ما تركتني، فإنَّك شغلْتَني عن مولاي.

فقلت له: كلِّمني بشيءٍ أنتفعُ به.

فقال لي: مَنْ لازمَ البابَ، أثبت في الخدمَة، ومَنْ أكثرَ ذكرَ الذُّنوب، أكثر مِنَ النَّدم، ومَنِ استغنى بالله، لم يخفِ العدم. ثمَّ تـركني ومضى، رضي الله تعالى عنه[1].

---

(١) «صفة الصفوة» ٤/٣٤٣.



الفصل الحادي عشر

يا مَنْ رواحلُه في طلب الدُّنيـا لها إسـراع، متى تحُلُّ عنهـا نِطاقَ الأمـل، فيكون الانقـطاع؟ إذا طلبتَ الآخرة، تمشي رويـداً، متى يكونُ الانتفاع؟ عجباً كيف تشدُّ الرِّحال في طلب الفاني وفي طريقه قُطَّاع! العمرُ أمانة أتلفتَ شبابَه في الخيانة، وكهولَته في البطالة، وفي الشَّيخوخة تبكي وتقول: عُمري قد ضاع. متى أفلح الخائن فيما اشترى أو باع؟ أنت في طلب الدُّنيا صحيحُ الجسمِ، وفي طلب الآخرة بك أوجاع. كم تُعَرِّجُ عَنْ سُبل التَّقوى يا أعرج الهِمَّةِ، يا من يبقى في القاع. يا من على عمره ليلُ الغفلة طلعَ فجر المشيب بين الأضلاع. رافِقْ رفاقَ التَّائبين قبل أن تنقطع مَعَ المنقطعين ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ٧٥].

وأنشدوا:

إذا أنـا لم أصبِرْ على مَنْ أحبُّـه ... وإن حال عن وصلي فما أنا صانعُ

أأتـركـهُ والقلبُ مِنْ فـرط حبِّـه ... أسيرٌ بما تُطوى عليه الأضالـعُ

أأسمـعُ فيه العـذلَ والوَجْـدُ حاكمٌ ... فمـا يغنني بالعـذل ما أنـا سامـعُ

أأسـلوه والشـوق يـمنـع سـلوتي ... وأكتم مـا قد أظهـرتـه المـدامـع؟

ويـعتـبـني قـلبـي إذا زاد وجـدُه ... فـأضـرِبُ صَفْحَـاً دونَـه وأُمـانـعُ

وإن زاد بي أشتكيـه، فـحسبُـه ... على كلِّ حالٍ عند شكواي شَافِعُ

فـلا عِيشَةٌ تصفُـو ولا موعـدٌ يَفِي ... ولا نـظرٌ يُسلي ولا الصَّبـرُ نـافـع

أرى الدَّهر يمضي بُرهةً بعد برهةٍ ولم أُلْفِ ما مالت إليه المطامعُ
فإن ضِقْتُ ذرْعاً بالَّذي قد لقيتُه فكلُّ مَضِيقٍ فهو في الحبِّ واسعُ

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: رأيت امرأةً متعبدة، فلمَّا دنوتُ منها، ودَنَتْ منِّي، سلَّمت عليَّ، فرددتُ عليها السَّلامَ، فقالت لي: مِنْ أين أقبلت؟ فقلت: من عند حكيم لا يوجَدُ مثلُه، فصاحت صيحةً شديدة، ثم قالت: ويحكَ، كيف وجدتَ معه وحشةَ الغُربَة حتَّى فارقتَه، وهو أنيسُ الغُرباء، ومُعينُ الضُّعفاء، ومولى الموالي؟! أم كيف سمحَتْ نفسُك بمفارقته؟

فأبكاني كلامها. فقالت لي: ممَّ بكاؤك؟ فقلت لها: وقع الدَّواءُ على الجُرحِ، فأسرع في نجاحه، فقالت: لو كُنتَ صادقاً، فلمَ بكيتَ؟ فقلت لها: فالصَّادقُ لا يبكي؟ قالت: لا. قلت: ولم؟ قالت: لأنَّ البكاء راحةٌ للقلب، وهو نقصٌ عند ذوي العُقول.

قلت لها: علِّميني شيئاً ينفعُني الله به.

قالت: اخدُم مولاك شوقاً إلى لقائه، فإنَّ له يوماً يتجلَّى فيه إلى أوليائه، لأنَّه سبحانه سقاهم في الدُّنيا مِنْ محبَّته كأساً لا يظمؤون بعدها أبداً.

ثمَّ أقبلت تبكي وتقول: إلٰهي وسيِّدي، إلى كم تدَعُني في دارٍ لا أجِدُ لي فيها أنيساً يُساعدُني على بلائي، ثم جعلت تقول:

إذا كان داءُ العبد حبَّ مليكهِ فَمَنْ دُونَه يُرْجَى طبيباً مداويا[1]

يا أخي، إذا طردك مولاك عَنْ بابِه؟ فإلى بابِ مَنْ ترجِع، وإلى أيِّ طريق تذهب، وإلى أيِّ جهة تقصِد؟ لازِم بابَ مولاك، فلعلَّ وعسى يثمِرُ عَوْدُكَ.

(١) الخبر في «صفة الصفوة» ٤/٤٢٧ ـ ٤٢٨.

وأنشدوا:

حنينُ قُلوبِ العارفين إلى الذِّكر ... وتذكارُهم عندَ المناجاة بالسِّرِّ
وأجسامُهم في الأرض سَكْرى بحُبِّه ... وأرواحُهم في ليل حُجْبِ العُلَى تسري
عِبادٌ عليهم رحمةُ الله أُنزِلَتْ ... فظلُّوا عُكوفاً في الفَيافي وفي القَفْرِ
وراعوا نجومَ اللَّيلِ لا يرقُدُونَه ... بإدمانِ تثبيتِ اليقين مَعَ الصَّبر
فهٰذا نعيمُ القومِ إن كنت فاهماً ... وتعقِلُ عَنْ مولاك آدابَ مَنْ يدري
فما عرَّسُوا إلَّا بقُربِ حبيبِهم ... ولا عرَّجُو عَنْ مسٍّ بُؤْسٍ ولا ضُرٍّ
أُديرَتْ كؤوسٌ للمنايا عليهمُ ... فغَفَوْا عَنِ الدُّنيا كإغفاءِ ذي سُكرِ
همومُهُم جالت لدى حُجُبِ العُلى ... وهم أهلُ وُدِّ الله كالأنجُمُ الزُّهرِ
فلا عيشَ إلَّا مع أُناسٍ قلوبُهم ... تحِنُّ إلى التَّقوى وترتاح للذِّكرِ

ويُروى عن بعض العُبَّاد رضي الله عنه أنَّه قال: بينما أنا في بعض الطَّريق أسير، وكنتُ صائماً، فرأيتُ نهراً جارياً، فانغمستُ فيه، فإذا أنا بسفرجلة على وجه الماءِ، فأخذتها لأُفطِرَ عليها.

قال: فلمَّا أفطرتُ عليها ندمتُ، وقلت: أفطرتُ على ما ليسَ لي، فلمَّا أصبحتُ سرتُ، فضربتُ على باب البستان الذي كان النَّهرُ يخرج منه، فخرج إليَّ شيخٌ كبيرٌ، فقلت له: يا شيخُ، إنَّه خرج مِنْ بستانكم هٰذا بالأمس سفرجلةٌ، فأخذتُها وأكلتُها، وقد ندمتُ على ذٰلك، فعسى أن تجعلَني في حلٍّ.

فقال لي: أماً أنا في هٰذا البستان أجيرٌ، ولي فيه منذ أربعين سنة ما ذقت مِنْ فاكهته شيئاً قط، وليس لي في البُستان شيءٌ. قلت: لمن هو؟ قال: لأخوَين بالموضع الفلاني.

قال: فأتيت الموضعَ، فوجدتُ أحدَهما، فقصيتُ عليه القصَّة، فقال: نصفُ البستان لي، وأنت حلٌّ مِنْ نصيبي في تلك السفرجلة. فقلت له: وأين أجدُ أخاك؟ قال: بموضع كذا وكذا.

فمضيتُ إليه، وقصيت عليه القصَّةَ، فقال لي: واللهِ لا أجعلُكَ في حلٍّ إلَّا بشرطٍ. فقلت له: وما الشَّرطَ؟ قال: أزوِّجُك ابنتي، وأعطيك مائةَ دينار. قال له العابد: ويحك أنا في شغلٍ عَنْ هٰذا. أما رأيتَ ما أصابني لأجل سفرجلِتك؟ فاجعلني في حلٍّ. فقال له: واللهِ لا فعلتُ ذٰلك إلَّا بالشَّرط المذكور.

فلما رأى منه العابدُ الجِدَّ، امتثل، وقال: افعل، فأعطاه مائةَ دينارٍ، ثم قال له: أعطني منها ما شئتَ في مهر ابنتي، فرمى بها كلَّها إليه، فقال له: لا، إلَّا البعض.

قال: فزوَّجه ابنتَه، فلامَه النَّاسُ على ذٰلك، وقالوا له: خطب ابنتك أربابُ الدَّولة وكُبراءُ النَّاسِ، ولم تُعْطِها لهم، فكيف أعطيتَها لفقيرٍ لا مالَ له؟ فقال لهم: يا قوم، إنَّما رغبتُ في الورع والدِّين، لأنَّ هٰذا الرَّجلِ مِنْ عبادِ الله الصَّالحين، رضي الله عنهم أجمعين.



الفصل الثاني عشر

يا من عَمِيَ عَنْ طريق القوم، عليك بإصلاح نُور البصر. القلبُ المظلمُ يمشي في شوك الشَّكِّ وما عنده خبر. وقتُ التَّائب كلُّه عمل: نهارُه صومٌ، وليله سهر، ووقتُ البطَّال كلُّه غفلة، وبصيرتُه عمِيَت عَنِ النَّظر. مَنْ ذاق حلاوةَ الزُّهد، استحلى التهجُّدَ والسَّهرَ، إنْ لم تُدركِ المتهجِّدينَ في أوَّل اللَّيل، ففي أعقاب السَّحر. تيقَّظ مِنْ نوم الغفلة، فهٰذا فجر المشيب انفجر، وأذلَّة التخلف إذا تخلَّف عن الباب وما حضر!

قال رسول الله ﷺ: «لا يكونَنَّ أحدُكم كالعبد السُّوء، إنْ خاف عمل، وإن لم يخف فلا يعمل، أو كالأجير السُّوء، إن لم يُعطَ أجراً وافِراً لم يعمل»(1).

أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود، العاشقون يعيشُون في حِلْمِ الله، والذَّاكرون يعيشون في رحمة الله، والعارفُون يعيشون في لُطف الله، والصِّدِّيقون يعيشُون في بساط الأُنس بالله يطعمهم ويسقيهم.

---

(1) أورده الغزالى في «الإحياء» ٢٦٣/٤، وقال الحافظ العراقي: لم أجد له أصلاً، وكذا قال ابن السبكي. انظر «إتحاف السادة المتقين» ٥٦٧/٩.
وروى ابن مبارك في «الزهد» (٢١٩)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» ٥٣/٤ - ٥٤ عن وهب بن منبه، قال حكيم من الحكماء: إني لأستحيي من الله عز وجل أن أعبده رجاء ثواب الجنه قط، فأكون كالأجير السوء؛ إذا أعطي عمل، وإذا لم يعط لم يعمل...

قال أبو بكر الرازي: قال ابن عطاء: لمَّا أكل آدم مِنَ الشَّجرة، طرده كلُّ شيءٍ، ونفاه عن نفسه، وأبعده عَنْ قُربه، إلَّا شجرة العود، فإنَّها آوَتْهُ. وبكى عليه كلُّ شيءٍ إلَّا الذَّهبُ والفضَّة.

فأوحى الله إليهما: ما لكما لا تبكيان على محبٍّ طرده محبوبُه؟ فقالا: إلهنا، وما كنَّا لنبكي على محبٍّ عصى محبوبه. فقال: وعزَّتي وجلالي، لأعزَّنَّكما ولأجعلنَّكما قيمة كلِّ شيءٍ، ولأجعلنَّ أولادَ آدمَ خُدَّاماً لكما.

وأوحى الله إلى العُود: ومالك آويت طريدَ مولاه؟ فقال: رحمةً منِّي على ذٰلك. فقال: وعزِّتي وجلالي، لأعذبنَّك بالنَّار في الدُّنيا، ولا يُنتفَعُ بك إلَّا بعد إحراقك، لأنَّك آويت مَنْ عصى في جوار مولاه بمرأى منه واطِّلاعٍ عليه.

وأنشدوا:

لقد وردَ التُّقاةُ فما وَرَدْنا ... فهمنا والهِينَ وما فَهِمنا
أحبَّتَنا بطِيبِ الوَصْلِ جُودُوا ... فغيرُ الجُودِ منكم ما عرفنا
فإن جدتُم فعفوكُمُ رجَوْنَا ... وبابكُمُ الكريم به وقَفْنَا
تذلَّلنا بباكُمُ عساكُم ... بلطف جنابِكُمْ فارضَوْا علينا
وحَقِّكُمُ لقد جئنا حِمَاكُمْ ... وآوينا لكم لٰكِنْ طُرِدْنا
وحالت بيننا حُجبُ المعاصي ... ولولا الذَّنْبُ عنكم ما حُجبنا
وما كان النَّوى والبُعدُ مِنْكُمْ ... ولٰكن أصله مِمَّا اقترفنا
فتحتُمْ بابَ جُودِكمُ امتناناً ... علينا بعد جُرْمٍ كان منَّا
فلمْ نصلُح لقربِكُمُ ولٰكن ... أسأنا ثمَّ تُبنا ثمَّ عُدنا
وعامَلْناكُمُ بالعَدْلِ دَهْراً ... وعاهدناكُمُ زَمَناً فخُنَّا
ولم يُنقَضْ لكم عهدٌ ولٰكن ... علينا قد نقضْنَا ما نقضْنَا
طُرِدْنَا بالجرائمِ عَنْ رضاكم ... ولو كُنَّا له أهلاً قُبلنا

وأقــرَرْنَــا بــزلًــتنــا لــديــكــم فجــودُوا بــالــرِّضــا، إنَّــا اعتــرفنــا

ومَنْ يـرجو العبيـدُ سوى المـوالي فــأنــتم راحــمــونــا كيــف كــنَّــا

وهــل في غيـركم عنكم بــديــلٌ وهــل لــولاكــم لـلحـقِّ مـعــنـى

فـمــا أشهـى وِصَــالَكُـمُ وأحـلى ومــا أعـلى مـقــامَـكُـم وأســنـى

فــعــزَّتُــنــا تــذلُّــلُنــا إلــيــكــم وأشـرف حـالِنَـا لكُمُ ان خَضعْنـا

بـجــاه محـمَّــدٍ خيــرِ الــبــرايــا تشفَّعنــا لكم وبــه اعتصمنــا[1]

عــليــه تـحـيَّــةُ مــا لاح بــرقٌ وتــاق لِـحُـبِّــه قـلبُ الـمُـعَـنَّـى

---

(1) انظر لزاماً ص ٤٨ ت (١).



الفصل الثالث عشر

يا هٰذا، كم لك على المعاصي مُصِرٌّ؟ متى يكونُ منكَ المتاب؟ جسمُك باللَّهو عامر، وقلبك مِنَ التَّقوى خراب، ضيَّعتَ الشَّباب في الغفلة، وعندَ الكِبَر تبكي على زمان الشَّباب. في المجلس تبكي على الفائت، وإذا خرجت عدتَ للانتهاب. لا حيلةَ لِوَعْظي فيك وقد غلق في وجهك الباب. كم لي أحدِّثُ قلبَك، وأرى قلبَك غائباً مع الغُيَّاب، يا مَنْ قلبُه مشغول، كيف تفهم الخطاب. وافرحةَ إبليس إذا طُرِدتَّ عَنِ الباب! هٰذا مأتم الأحزان، هٰذا المجلس قد طاب. رَحَلَتْ رفاقُ التَّائبين إلى رفاق الأحباب. يا وحشَةَ المهجور المُبعد عَنِ الباب إذا لم يجد للقُرب والدُّنوِّ سبباً مِنَ الأسباب. يا منقطعاً عَنْ رفاق الأحباب، تعلَّق بأعقاب السَّاقة بِذُلٍّ وانكسارٍ ودمع ذي انسكاب، وقل: تائهٌ في بَرِيَّة الحِرمان، مقطوعٌ في تيه الشَّقاء، مسبولٌ دونه الحِجَاب، كلَّما رام القيامَ، أقعدَه وأبعدَه بذنوبه الحُجَّاب. لا زادَ ولا راحلةَ ولا قوَّة، فأين الذَّهاب؟ عسى عطفة مِنْ وراءِ ستر الغيب تُهَوِّنُ عليك صِعاب المصاب.

لله درُّ أقوام شاهدوا الآخرة بلا حجاب، فعايَنُوا ما أعدَّ الله للمطيعين مِنَ الأجر والثَّواب. ترى: لماذا أضمروا أجسادَهم وأظمؤوا أكبادهم، وشردوا رُقَادَهم، وجعلوا ذِكرَه بُغيَتَهم ومُرادهم؟!

وأنشدوا:

يا رجال اللَّيل مهلاً عرِّسُوا　　إنَّني بالنَّوم عنكم مشتغلْ

شَغلتْني عنكمُ النَّفسُ التَّي تقطعُ اللَّيلَ بنَوْمٍ وكَسَلْ
أنا بطَّالٌ وأنتمُ رُكَّعٌ زاد تفريطي وزدْتُم في العملْ
قلت: مهلاً سادتي أهلَ الوفا حملَ القومُ وقالوا: لا مَهَلْ

قال وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبيٍّ مِنَ الأنبياء: أنْ إذا أردت أن تسكُنَ معي في حظيرةِ القُدُس، فكن وحيداً في الدُّنيا، فريداً مهموماً حزيناً، كالطَّير الوحيد يظلُّ في أرض الفلاةِ، يَرِدُ ماءَ العيون، ويأكل مِنْ أطرافِ الشَّجر، فإذا جَنَّ عليه اللَّيلُ، آوى وحده استيحاشاً مِنَ الطَّير، واستئناساً لِرَبِّه.

ويُروى عن سفيان الثوري رضي الله عنه أنه قال: مرَّ عابدٌ براهب، فقال له: يا راهبُ، كيف ذكرُك للموت؟ قال: ما أرفع قدماً ولا أضع أُخرى، إلَّا خشيتُ أنْ قد مِتُّ.

قال: كيف كان نشاطُك للصَّلاة؟ قال: ما سمعتُ أحداً سمع بالجنَّة، فأتت عليه ساعةٌ إلَّا صلَّى ركعتين.

قال العابد: يا راهب، ما لكم تلبسون هذه الخرق السود؟ قال الراهب: لأنها من لباس أهل المصائب.

فقال له العابد: أكلُّكُم معاشرَ الرُّهبان قد أُصيبَ بمصيبة. قال الراهب: يا أخي، وأيُّ مصيبةٍ أعظمُ مِنْ مصيبةِ[1] الذُّنوب على أهلها؟

قال العابد: فما تذكَّرتُ هٰذا الكلام، إلَّا بكيتُ[2].

قال العتبي: أنشد رجلٌ مِنْ أهلِ الزُّهدِ هٰذه الأبيات:
ويوم ترى الشمس قد كُوِّرَت وفيه ترى الأرضَ قد زُلزِلَتْ

---

(١) من قوله: «إلا البعض» ص٧٢ إلى هنا سقط من نسخة المغرب.
(٢) رواه أبو نعيم في «الحلية» ٤/٤٤ بنحوه عن وهب بن منبه مختصراً.

وفيه ترى كلَّ نفسٍ غداً إذا حُشر الناس مَا قدَّمتْ
أترقدُ عيناك يا مُذنِباً وأعمالُكَ السُّوءُ قد دُوِّنتْ
فإمَّا سعيدٌ إلى جنَّةٍ وكفَّاه بالنُّورِ قد خُضِّبَتْ
وإمَّا شقِيٌّ كُسِي وجهُه سواداً وكفَّاه قد غُلِّلَتْ

خرج عمر بن عبدالعزيز في بعض أسفاره، فلمَّا اشتدَّ الحرُّ عليه، دعا بعمامة، فتعمَّم بها، فلم يلبث أن نزعها، فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، لمَ نزعتَها؟ لقد كانت تقيكَ الحرَّ. قال: ذكرتُ أبياتاً قالها الأُوَلُ، وهي هٰذه:

مَنْ كان حين تَمَسُّ الشَّمسُ جبهَتَه أو الغبارُ يخافُ الشَّيْنَ والشَّعثا
ويألَفُ الظِّلَّ كي تبقى بشاشتُه فسوفَ يسكُنُ يوماً راغماً جدثا
في قعرِ مظلمةٍ غبراءَ موحشةٍ يُطيلُ تحتَ الثَّرى في جوفِها اللَّبثا[1]

وقد خرج عيسى بن مريم عليه السلام على الحواريين وعليهم آثارُ الغُبار، وعلى وجوههم النور، فقال: يا بني الآخرة، ما تنعَّم المتنعمون إلاَّ بفضل نعمتكم.

وقيل للحسن البصري رضي الله عنه: ما بالُ المتهجِّدين أحسنُ النَّاس وجوهاً؟ فقال: خَلَوْا بالرَّحمن، فألبسهُم نوراً مِنْ نوره.

وروى أبو ماجد، قال: كنت أحبُّ الصُّوفية، فاتبعتُهم يوماً إلى مجلس عالم، فرأيت في المجلس شخصاً تتمنَّى النُّفوسُ دوام النَّظر إليه، وهو يبكي كلَّما سمع العالمَ والقارىءَ يقول: الله، الله، فلم تنقطع له دمعةٌ.

---

(١) الأبيات دون الخبر في «سير أعلام النبلاء» ١٣٨/٥، وبعدها:
تَجهَّزي بجهازٍ تبلغين به يا نفسُ قبلَ الرَّدى لم تُخلقي عبثا
وقال الذهبي إنها من شعره.

فتعجَّبتُ مِنْ توكُّف عبراتِه، وترادُفِ زفراتِه، مع صِغَر سنِّه، وغضِّ شبابه، فسألتُ بعضَ الصُّوفية عنه، فقال: إنَّه تائبٌ غزيرُ الدموع، كثيرُ السُّجود والركوع، رقيق القلب شفيق الحبِّ.

فبينما نحن كذلك، إذ قرأ القارئ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فقام قائماً على قدميه، وهو يقول: سيدي، خاب مَنْ في قلبِه غيرُ ذكرِك. وهل في الأكوان غيرُك حتى يُذكر يا حبيبَ القُلوب؟!

وأنشدوا:

تهتُّكي في الهوى حلا لي ... وعاذِلي ما لَهُ وما لي
يلومُني في الغرامِ جهلاً ... وكلَّما لامني حلا لي
قالوا: تسلَّيتَ قلتُ: كلَّا ... يا قوم مثلي يكون سالي
قالوا: تعشَّقتَ قلتُ: أهلاً ... لقد تعشَّقْتُ لا أُبالي

قال أبو علي: الرِّجال في هٰذا المقام على أربعة أقسام:

القسم الأول: رجلٌ قدِ استولى على قلبه عظمةُ الله ومحبَّتُه، فاشتغل بذكره عَنْ ذكرِ مَنْ سواه، ولم تُلهه الأكوانُ عَن الاستئناس بذكره، فهذا هو الذي وصَفَهُ الله تعالى، فقال: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

والثَّاني: رجلٌ عاهدَ الله تعالى بصِدْقِ الإجابة، وتحقُّقِ العبودية، وإخلاصِ الورع، والقيامِ بالوفاء، فهو الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والثالث: رجلٌ يتكلَّمُ لله وفي الله وبالله ومن أجل الله، ويأمر بالمعروف، وينهى عَنِ المُنكر على سائر ضمائر الأسرار، ثمَّ على ظواهر

النُّفوس والأغيار، وهو الذي وصفه الله تعالى، فقال: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ...﴾ [يس: ٢٠].

والرابع: رجلٌ يتكلَّمُ سرُّه عَنْ نفسهِ وعَنِ المَلكين الموكلين، ولا يطَّلعُ على سرِّه إلَّا مولاه، وهو الذي وصفه الله تعالى، فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ إلى قوله: ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]. فهٰذا هو في ظاهره كالسَّليِّ الخَليِّ، وفي باطنه كالمتولِّي الشَّجيِّ.

وأنشدوا:

إليك وإلَّا لا يفيدُ سرى السَّاري ... ولا حرف إلَّا ما تلاه لك القاري
فيا مُنيتي يا بُغيتي بل ورحمتي ... ويا جنَّتي في كلِّ حالٍ ويا ناري
إذا صحَّ منكَ الاعتقادُ فكلُّ ما ... على الأرض فانٍ مِنْ شُموسٍ وأقمارِ

قال المغيرة بن حبيب[1]: كنت أسمع بمجاهدة المحبين، ومناجاة العارفين، وكنت أشتهي أن أطَّلعَ على شيءٍ مِنْ ذلك، فقصدت مالك بن دينار، فرمقتُه على غفلة، وراقبتُه مِنْ حيثُ لا يعلم لياليَ عدَّة، فكان يتوضأ بعد العشاء الآخرة، ثم يقوم إلى الصلاة، فتارة يفني ليلَهُ في تكرار آية أو آيتين، وتارة يدرج القرآنَ درجاً، فإذا سجد وحان انصرافه مِنْ صلاته، قبض على لحيته، وخنقته العَبْرةُ، وجعل يقول: بحنين الثّكلى وأنين الوَلْهَى، يا إلٰهي، ويا مالك رِقِّي، ويا صاحبَ نجوايَ، ويا سامعَ شكواي، سبَقْتَ بالقول تفضلاً وامتناناً، فقلت: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، والمحبُّ لا يعذِّبُ حبيبه، فحرِّم شَيْبَةَ مالك على النار. إلٰهي، قد علمتَ

(١) في الأصول «جبير» وهو تحريف.

ساكنَ الجنَّةِ مِنْ ساكن النَّار، فأيُّ الرَّجلين مالك، وأيُّ الدَّراين دارُ مالك؟

ثم يناجي كذلك إلى أن يطلُع الفَجْرُ، فيصلي الصُّبح بوضوءِ العَتمَةِ رحمه الله [1].

(١) الخبر بنحوه في «الحلية» ٢/٣٦١ و ٦/٢٤٧.



الفصل الرابع عشر

يا مَنْ أقعده الحرمان، هٰذه رفاقُ التّائبين عليك عبُور. لا رسالةَ دمعٍ ولا نفَسَ آسفٍ، ما أراك إلا مهجور. هٰذا نذيرُ الشَّيب يُنذر بالرِّحلة تهيَّأ يا منذور. كم أَعذار؟ كم كسل؟ كم غفلة؟ ما أجدك يوم الحساب معذُور. بيتُ وصلِك خراب، وبيت هجرك معمور. بَادِرْ عساك تجبرُ بالتَّوبة وتعود مجبور، سجدةٌ واحدةٌ واصل بها السَّحر وتنجو مِنَ الأهوال، ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ [الرعد: ١٥].

لِلَّهِ دَرُّ أقوام قلوبُهم معمورةٌ بذكر الحبيب، ليس فيها لغيره حَظٌّ ولا نصيب، إنْ نطَقُوا فبذكره، وإن تحرَّكُوا فبأمره، وإن فرِحُوا فبقُرْبِهِ، وإن تَرِحُوا فبعَتْبِهِ، أقواتُهم ذكرُ الحبيب، وأوقاتُهم بالمناجاة تطيب، لايصبِرون عنه لحظة، ولا يتكلَّمُون في غير رضاه بلفظة.

وأنشدوا:

حياتي مِنك في رُوحِ الوِصالِ ... وصبري عَنْكَ مِنْ طلَب المُحالِ

وكيفَ الصَّبرُ عنْكَ وأيُّ صبرٍ ... لعطشانٍ عَنِ الماءِ الزُّلالِ

إذا لَعِبَ الرِّجالُ بكلِّ شيءٍ ... رأيتُ الحُبَّ يلعبُ بالرِّجالِ

---

(١) الأبيات في «المدهش» ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣ للمصنف.

رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا بلغَ العبدُ أربعينَ سنة، ولم يغلِبْ خيرُهُ على شرّه، قبَّله الشَّيطانُ بين عينيه، وقال: فديتُ وجهاً لا يُفلِحُ أبداً، فإنْ منَّ اللَّهُ عليه، وتابَ إليه، واستنقذه مِنَ الضَّلالة، واستخرجه مِنْ غمرات الجَهالة، يقول الشيطان لعنه الله: يا ويلاه، قطع عمره بالضَّلالةِ، فـأقرَّ بـالمعصية عيني، ثم أخـرجه اللَّهُ مِنَ الجهـالة بتـوبته ورجـوعه إلى ربه»(١).

وذُكر في بعض الأخبار أنَّ رجلاً كان مِنْ فُقهاء أهلِ بغداد، وكان ممن يُسار إليه في العلم والصَّلاح، وكان شيخاً كبيراً فاضلاً، وأراد الحجَّ إلى بيت الله الحرام، وزيارةَ قبر نبيِّه عليه الصلاة والسـلام(٢)، فألَّفَ مِنْ أصحابه جماعةً مِنَ الَّـذين كانـوا يقرؤون عليـه، فارتبط معهم على أنَّهم يخرُجون متوكِّلين على اللَّهِ عز وجل.

فلمَّا ساروا في بعضِ الطَّريق، وإذا بدَيْرِ نصرانيٍّ، وقد أعياهُم الحرُّ والعطش، فقالوا: يا أستاذَنا، نسيرُ لهذا الدير، فنستظل حتَّى يبردَ النَّهارُ، ونرحل إن شاء الله تعالى، فقال لهم: افعلُوا ما شئتم، فساروا إلى ذٰلك الدَّيرِ، ونزلوا عندَ جداره وقد أصابهُم العياء والحرُّ، فنام الطَّلبة، والشَّيخُ لم ينم.

قال: فتركهم الشَّيخُ نائمين، وخرج يطلبُ ماءً لوضوئه، ولم يكن له همٌّ إلاَّ ذٰلكَ، فبينما هو يمشي في حَوْمَةِ الدَّير يطلبُ الماءَ، فرفع رأسه، فرأى جاريةً صغيرةَ السِّنِّ، كأنَّها الشُّمسُ الضَّاحيةُ، فلما رآها الشَّيخُ تمكَّن إبليسُ مِنْ قلبِه، ونسيَ الوضوءَ والماءَ، ولم يكن له همٌّ إلاَّ الجارية، فأقبل يقرعُ البابَ قرعاً عنيفاً، فخرج إليه راهبٌ، وقال له: من أنت.

---

(١) ذكره الغزالي في «إحياء علوم الديـن» ٣/٢٨ ـ ٢٩، وقال العراقي: لم أجد له أصلاً.

(٢) انظر ص ٣٣.

قال له: أنا فلانٌ العالمُ الفلانيُّ، وعرَّفَه بنفسه، واسمِه.

فقال له الراهب: ما تريدُ يا فقيه المسلمين؟

قال له: يا راهبُ، هٰذه الصَّبية التي بدت مِنْ أعلى الدَّيرِ، ما هي منك؟

قال الراهب: هي ابنتي، فَما سؤالُك عنها؟

قال له الشيخ: أُريدُ أن تزوِّجَني إياها.

قال له الراهب: إنَّ ذٰلك لا يجوزُ عندنا في ديننا، ولو كان جائزاً، لكنت أُزوجها منك بغير مشورتها، ولكن قد جعلتُ لها على نفسي عهداً، أن لا أُزوِّجَها إلاَّ مَنْ ترضى لنفسها، ولٰكن أنا أَدخل عليها وأُعلمها بخبرك، فإن هي رضِيَتْكَ لنفسها، زُوَّجتك منها.

قال له الشيخ: حباً وكرامة.

قال: فذهب الرَّاهب إلى ابنته، فأعلمها بالقصَّة، والشَّيخ يسمع.

فقالت: يا أبت، كيف تزوِّجُني منه، وأنا على دين النَّصرانية، وهو على دين الإسلام، إنَّ ذٰلك لا يتمُّ له إلاَّ أن يدخُلَ في دينِ النَّصرانية.

قال: فعندَ ذلك، قال لها الراهب: أرأيتِ إن دخلَ في دينِك، تتزوجينه؟.

قالت: نعم.

والشيخ العالم في هٰذا كلِّه يتضاعف به الأمرُ، وإبليسُ يُـزيِّنُها في عينيه، وأصحابه رقودٌ، ليس عندهم علمٌ بما حلَّ به.

قال: فعندَ ذٰلك، أقبل عليها الشيخُ، وقال لها: قد نبذت دينَ الإسلام، ودخلتُ في دينِكِ.

قالت له الجارية: هٰذا زواجٌ قدريٌّ، ولٰكن لا بدَّ مِنْ حقٍّ الزوجية ودفعِ المهر، وأين الحق؛ أراك رجلًا فقيراً، ولكن أقبلُ منكَ في حقِّي أن ترعى هٰذه الخنازير عاماً كاملاً، ويكون ذٰلك صداقي.

قال لها: نعم، لك ذٰلك، ولكن أشترط عليكِ أن لا تحجُبي وجهَكِ عنِّي، لأَنظرَ إليك غُدوة وعشيًا.

قالت: نعم.

فأخذ عصاه التي كان يخطُب عليها، وأقبل بها على الخنازير، يزجُرُها لتمشيَ للمرعى.

وجرى هٰذا كلُّه وأصحابُه نِيامٌ، فلمَّا استيقظُوا مِنْ نومهم، طلبُوا الشَّيخَ، فلم يجدوه، فسألوا عنه الرَّاهبَ، فأعلمهم بالقصة.

قال: فمنهم مَنْ خرَّ مغشياً عليه، ومنهم من بكى وناح، ومنهم من تأسَّف على ما حلَّ به.

ثم قالوا للراهب: وأين هو؟.

قال لهم: هو يرعى الخنازير.

قال: فمضينا إليه، فوجدناه متَّكئاً على عصاه التي كان يخطُب عليهَا وهو يزجر بها الخنازير، وقلنا له: يا سيدنا، ما هذا البلاء الذي حلَّ بك.

وجعلنا نذكِّره فضْلَ القرآنِ والإسلام، وفضلَ محمَّدٍ ﷺ، وقرأنا عليه القرآنَ والحديثَ.

فقال لنَا: إليكم عنِّي، فأنا أعلمُ بما تذكِّرونني به منكم، ولٰكن قد نزل بيَ البلاءُ مِنْ عند ربِّ العالمين.

قال: فكُلَّما عالجناه ليسيرَ معنا، ما قدَرنَا عليه، فمضينا إلى مكَّةَ وتركناه، وفي قلوبنا منه حسرةٌ.

وقضينا حجَّنا ورجعنا نريدُ بغدادَ، فلمَّا صرنـا إلى ذٰلك المـوضع، فقلنا: تعالَوْا ننظر ما فَعل الشَّيخُ، لعلَّه ندِمَ وتابَ إلى اللَّهِ عزَّ وجل، ورجع عمَّا كان فيه.

قال: فذهبنا إليه، فوجدناه على حالته، وهو يزجُر الخنازيرَ، فسلَّمنا عليه، وذكَّرناه، وقرأنا عليه القرآنَ، فما ردَّ علينا شيئاً، فانصرفنا عنه وفي قلوبنا منه حسرةٌ عظيمة.

قال: فلما صِرنا على بُعْدٍ مِنَ الدَّير، وإذا نحنُ بسوادٍ قد أقبل علينا مِنْ ناحية الدَّيرِ، وهو يصيحُ علينا، فوقفنا له، فإذا هو صاحبُنا الشَّيخ قد لحِقَ بنا.

وقال: أشهدُ أن لا إلٰه إلاَّ اللَّهُ، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، وأنا قد تُبتُ إلى اللَّهِ، ورجعت عمَّا كنتُ فيه، وما كان ذٰلك إلاَّ مِنْ ذنبٍ كان بيني وبين ربِّي عاقبـني به، فكان مِنَ البلاء ما رأيتم.

قال: فَسُرِرْنا بذٰلك غايةَ السُّرور، وجئنا إلى بغداد، وأقبل الشَّيخُ على العبادة والاجتهاد أكثرَ ممَّا كان عليه قبلَ ذلك، فبينما نحنُ يومـاً في دارِ الشَّيخ نقرأ عليه، وإذا نحنُ بامرأةٍ قد قرعَتِ البابَ، فخرجنا إليها وقلنا لها: ما حاجتُك أيَّتُها المرأة.

قالت: أُريد الشَّيخَ، وقولوا له: إنَّ فلانة بنتَ فلانٍ الرَّاهب قد جاءت لتُسلِمَ على يديك، فأذن لها بالدُّخول، فدخلت، وقالت له: يـا سيِّدي، جئت لأُسلم على يديك.

فقال لها الشَّيخ: وما كانَتِ القصَّةُ.

قالت له: لمَّا ولَّيت عنِّي، غلبَتْني عيناي، فنمتُ، فرأيتُ فيما يرى النَّـائمُ عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنـه، وهـو يقـول: لا دينَ إلاَّ دين محمَّدٍ ﷺ، قال لي ذٰلك ثلاثَ مرَّاتٍ، ثم قال لي بعد ذٰلك: ما كان اللَّهُ

ليبتليَ بك وليًا مِنْ أوليائه. وها أنا قد جئت إليك، وأنا بين يديك، وأقول: أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ففرح الشَّيخُ بذٰلك؛ حيثُ منَّ اللَّهُ عليها بدينِ الإسلام على يديه، فتزوَّجها على كلمة الله وسنَّةِ رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال: فسألناه عَنْ ذٰلك الذَّنب الَّذي كان بينه وبين الله.

قال: كنت يوماً ماشياً في بعض الأزِقَّة، وإذا برجلٍ نصرانيٍّ قد لصق بي، فقلت له: ابعد عنِّي عليكَ لعنةُ اللَّهِ. فقال: ولم؟ قلت له: أنا خيرٌ منك.

فالتفت النَّصرانيُّ، وقال: ما يُدريك أنَّكَ خيرٌ منِّي، وهل تدري ما عندَ اللَّه تعالى حتَّى تقولَ هٰذا الكلام؟.

وقد بلغني بعد ذلك أنَّ هٰذا الرَّجلَ النصرانيَّ قد أسلم وحَسُن إسلامُه، ولزم العبادة، فعاقبني اللَّهُ تعالى مِنْ أجلِ ذٰلك ما رأيتم.

نسألُ اللَّهَ العافية في الدُّنيا والآخرة.



الفصل الخامس عشر

معاشر التائبين: تعالوا نبكي على الذنوب فهٰذا مأتم الأحزان، تعالو نسكب المدامع. ونشتكي الهجران، لعلَّ زمانَ الوصلِ يعودُ كما كان.

هذا بياضُ الشَّيب يُنذِرُ بخراب الأوطان، يا من تخلَّف حتَّى شابَ، قد رحلتِ الأَظعان.

يا تائِهاً في تيهِ التخلُّف، يا حائراً في بريَّةِ الحرمان، نهارُك في الأسباب، وليلُك في الرُّقاد، هٰذه الخسارة عِيان، إذا ولَّى الشَّباب، ولم يربح، ففي المشِيبِ يكونُ الخُسران، أَمَلُكَ طويلٌ بعيدٌ، وربما هُيِّئَتْ لكَ الأكفان.

قف على ساحل التوبة، فَبِحَارُ المعاصي طوفان، ضيَّعْتَ ربيعَ الشَّباب حتى ذَبُل مِنْ معاصي الرَّحمٰن، فعندَ إقبال المشيبِ، ندِمْتَ على ما قد كان. إن لم يُشاهدْكَ رفيقُ التَّوفيقِ، وإلَّا ففي الحرمانِ حرمان. وقد يرحم المولى مَنْ ضعُفَ عَنِ الأسباب ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وأنشدوا:

أتبني بِناءَ الخالدينَ وإنَّما بقاؤُك فيها ـ لو عقَلْتَ ـ قليلُ
لقد كانَ في ظلِّ الأراكِ مَقِيل لِمَنْ كلُّ يومٍ يقتفيه رحيلُ

ويروى عن الحسن البصري رضي الله عنه، أنه كان يقول: يا ابن آدمَ، إنَّ لكَ عاجلاً وعاقبة، فلا تُؤْثِرْ عاجلتَك على عاقبتِك، فقد ـ واللَّهِ ـ رأيتُ أقواماً آثَرُوا عاجلتَهم على عاقبتِهم، فهلكُوا وذلُّوا وافتضحُوا.

يا ابن آدم، بعْ دُنياك بآخرتك تَـرْبَحْهُما جميعـاً، ولا تَبعْ آخـرتك بدنياك فتخسرْهُما جميعاً.

يا ابن آدم، لا يضرُّك ما أصابَك مِنْ شدَّةِ الدُّنيا إذا ادُّخِرَ لك خيرُ الآخرة، وهل ينفعُك ما أُصبتَ مِنْ رخائِها إذا حُرمت خيرَ الآخرة.

يا ابن آدم، الدُّنيا مطيَّةٌ، إن ركِبْتَها حملَتْكَ، وإن حملْتَها قتلتْكَ.

يا ابن آدم: إنَّك مرتَهَنٌ بعَمَلِك، وآتٍ على أجلِكَ، ومعروضٌ على ربِّكَ، فخذ ممَّا في يديك لِما بين يديك، وعندَ الموت يأتيك الخبر.

يا ابن آدم، لا تُعلِّقْ قلبَك بالدُّنيا فتعلِّقَه بشرٍّ متعلَّقٍ، حسبُك أيهـا المرْءُ ما بلَّغكَ المحلَّ.

ويروى عن مالك بن دينار رضي الله عنه، أنه كان ماشياً في بعض أزقَّـة البَصرة، إذا هـو بجاريـةٍ مِنْ جواري الملك، راكبـة ومعها الخـدمُ والمماليكُ، فسمع مالكٌ حسَّها خلفَـه، فالتفتَ إليهـا وهي راكبةٌ، فـرأى زهرتَها وهيأتها وحالَها، فنادى: أيَّتُها الجاريةُ هل يبيعُك مولاك.

قال: فلمَّا سمعت منه تلكَ الكلمةَ، نظرت إليه، فرأت عليه عباءةً خَلِقَـةً باليةً، وله هيأةٌ حسنةٌ وتواضُعٌ وسكينةٌ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ.

فقالت للخدم: أمسِكُوا مَطِيّتي، فمسكوها، فردَّت رأسَها إليه، وقالت له: يا شيخُ، أعِدْ عليَّ مقالَتك. قال: قلتُ هل يبيعُـك مولاك. قـالت: ويلي عليكَ، وهل لمثلِك ما يشتريني به لو باعني؟!

قال: فحفَّ به المماليك، قال: خلُّوا عنِّي أسيرُ معكم، فسار معهم حتَّى أتت قصرَها، فقام إليها حَجَبَةُ الدَّارِ فأنزلُوها، فدخلت، وبقي مالكُ ببابِ القصر حتَّى وصلت إلى مولاها، فقالت: يا مولاي، ألا أُحدِّثُك بعجَبٍ؟!.

قال: وما هو يا حسنة؟

قالت: يا مولاي، لقيني شيخٌ كبيرٌ فقير عليه عباءةٌ رثَّةٌ باليةٌ، فنظر إلى حُسني وجمالي وبهائي وكمالي ومماليكي، فأعجبه ما رأى مِنْ هيأتي، فقال: هل يبيعُك مولاك؟ فضحك مولاها مِنْ ذٰلك، وقال لها: وأينَ هو ويلَكِ؟! قالت: قد جئتُ به معي، وها هو بباب القصر، فقال: أدخِلُوه عليَّ.

فدخل مالكُ، ولم يعرِفْهُ الرَّجُلُ، فلمَّا وقفَ بباب مجلسه، إذ هو ببيت مملوءٍ بضُروبٍ مِنَ الوطأ، والمتَّكأ، وإذا هو بصاحب القصر قاعدٌ على مرتبةٍ عظيمةٍ، فجعل مالكُ ينظُرُ إليه. فقال: ما لَكَ؟ أُدخُل أيُّها الشيخ.

فقال مالك: لا أدخلُ حتَّى ترفعَ هٰذا الوِطاء، وتُغيِّب عني فِتنتَه، حتى لا أنظر إليه، ولا أطأ شيئاً منه.

فألقى اللّٰهُ الهيبةَ والطَّاعةَ في قلب صاحبِ القصر، فأمر برفع الوطاء والبُسُط، حتَّى كشف عَنِ الرُّخام، وقعد صاحبُ القصر على كرسيٍّ، وقال: اجلس أيُّها الشَّيخ كما أحببتَ.

قال: لا والله حتى تنزلَ عَنْ هٰذا الكرسيِّ، وتجلس على هٰذا المرمر. قال: فجلس الرَّجلُ، وجلس مالكُ معه.

فقال رب البيت: قل حاجتَك أيُّها الشَّيخُ.

قال: جاريتك هٰذه التي دخَلَتْ عليكَ السَّاعة، أتبيعُها لي؟.

فقال له صاحب القصر: وهل لك ما تبتاعها به مني؟.

قال: وما ثمنُها؟.

قال له: إنَّ مِنْ شأنها وقدرها وحالها ومالها، تساوي كذا وكذا ألفاً.

فقال مالك: والله ما تساوي عندي نواتين مُسَوستين، فضحك الرَّجُلُ، وضحكتِ الجاريةُ، وضحكَ الجواري والخدم من وراء السّترِ من كلام مالك.

فقال مالك: ما الذي أضحكَكُم؟.

قال صاحب البيت: وكيف كان ثمنُها بهٰذه الخساسةِ عندَك؟

فقال مالك: لكثرة عيوبها.

قال: ومَنْ أعلمك بعيوبها.

قال: أنا أعلم من عُيوبها ما لم تعلم أَنت.

قال: أعلِمني بها، وأوقِفني عليها.

قال: إن لم تتعطَّر تغيرت، وإن لم تستَكْ بَخِرَت[1]، وإن لم تغتسل بظرت، وإن لم تمتشط قَمِلَتْ وشعثت، وإن عُمِّرَتْ عن قليلٍ هَرِمَتْ وهي ذات بُخارٍ، وبصاق، وحيضٍ، وبَوْلٍ، وغائط وأقذار جملة، وآفات بينة، ولعلَّها لا تريدك إلا لنفسها، ولا تحبك إلَّا لتمتعها بك، وتمتُّعِك بها، فلا تفي بعهدك، ولا تصدُق في ودِّك وعهدك ولا يتخلَّفُ عليها أحدٌ مِنْ بعدك إلَّا رأته مثلك. وأنا أجدُ بدون ما سألت جاريةً خُلِقَتْ مِنْ سُلالة الكافور، ولو مُزِجَ بريقها الأُجاجُ لطاب، ولو دُعِيَ ميتٌ بكلامها لأجابَ، ولو بدا معصمها

---

(١) البخر: نتن الفم ورائحته الكريهة.

للشَّمس لأظلمت دونَه، ولو برز لسوادِ اللَّيلِ لسطَع نورُه، ولو واجهت الآفاق بحُلِيِّها وحُلَلِها، لتزخرفت، ولو نفخ ريح ذوائبها على الأرض وما فيها لتعطَّرت، فهي العطرة الشَّكِلَةُ المُغَنَّجة المتنسقة، التي نشأت في رياض المسك والزَّعفران وغَنيت بماء التَّسنيم، فلا يكسف بالها، ولا يحولُ حالها، ولا يُخْلَفُ عهدُها، ولا يتبدَّل ودُّها، ولا يُتوَقَّعُ صدُّها. فأيُّهما أحق بالرِّفعة أيها المغرور؟.

قال: التي والله وصَفْتَ، فما ثمنُها يرحمُك الله؟.

قال: اليسير المبذول؛ أن تتفرَّغ ساعةً مِنْ ليلك، فتقوم فتصلي ركعتين تخلصهما لربِّك، وأن تضع طعامك بين يديك، فتذكر جائعاً، فتؤثره لله على شهوتك، وأن تخطو بالطريق فتلتقط منه حجراً ومدراً، وأن تحرِّكَ لسانَك بطِيبِ الكلام، أو بذكر الله، وأن تقطع أيَّامَك باليسير مِنَ القُوتِ، وترفع همَّتك عن دار الغفلة، فتعيش في الدنيا عيش القَنُوع راسخاً، وتأتي غداً يوم القيامة آمناً، وتنزل على الملك الأكبر مخلَّداً.

قال: فعند ذٰلك نادى: يا جارية.

قالت: لبَّيكَ يا مولاي.

قال: أسمِعْتِ ما قالَ الرَّجل؟.

قالت: نعم.

قال لها: هل هو صادق، أم كاذب؟.

قالت: بل هو ـ واللّٰهِ ـ صادق.

قال: فأنتِ إذن حرةٌ لوجه الله تعالى، وضيعة كذا وكذا عليك صدقة، وأنتم أيُّها الغلمانُ أحرارٌ، وضياع كذا وكذا عليكم صدقة، وهٰذه الدَّارُ صدقةٌ بجميع ما فيها مِن الأثاث والأموال على الفُقراء والمساكين.

ومدّ يده على ستر كان على بعض أبوابه، فأخذه وستر به نفسه ورمى جميع ما كان عليه مِنَ اللِّباس.

قالت الجارية: يا مولاي، لا عيش لي بعدَك، فرمت بكسوتها ولبست ثوباً خشناً وخرجت معه، فودَّعهما مالكُ بنُ دينار ودعا لهما وأخذا طريقاً، وأخذ مالك طريقاً آخر.

قال ناقل الحديث: فذكر أنهما لم يزالا يعبدان الله عز وجل على تلك الحالة حتى لقياه. رحمة الله عليهم ونفعنا ببركاتهم... آمين[1].

---

(١) الحكاية في كتاب «التوابين» لابن قدامة ص١٤٢ - ١٤٤.



الفصل السّادس عشر

يا تائهاً في الضَّلال بلا دليلٍ ولا زاد، متى يوقِظُك منادي الرَّحيل فترحل عنِ الأموال والأولاد؟ قل لي: متى تتيقَّظُ وماضي الشَّباب لا يُعاد، ويحكَ! كيف تُقدِمُ على سفر الآخرة بلا راحلة ولا زاد. ستندم إذ حان الرَّحيل، وأمسيت مريضاً تُقاد، ومُنِعْتَ التصرُّفَ فيما جمعت، وقطَّعتِ الحسراتُ منك الأكبادَ، فجاءتك السَّكرات ومُنِعَ عنك العُوَّاد، وكُفِّنْتَ في أخصر الثِّياب، وحُمِلْتَ على الأعواد، وأُودعت في ضِيقِ لحدٍ وغُربةٍ ما لها مِنْ نفاد، تغدو عليك الحسراتُ وتروحُ إلى يوم التَّناد، ثم بعده أهوال كثيرة، فيا ليتك لمعايَنتها لا تُعاد.

فاغتنموا بضائع الطاعات، فبضائع المعاصي خاسرة ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠ - ٢١].

وأنشدوا:

احذَرْ دُنياكَ وغِرَّتها	واحذر أن تُبْدِ لها طلبا
تبغي وُدّاً مِمَّن قِدْماً	لك قَدْ قَتَلَتْ أُمّاً وأبا
وعلى الجيرانِ فقد جارت	كُلاًّ قهرت أولت عَطَبا
كَمْ مِنْ ملكٍ ذي مملكةٍ	قد مالَ لها سُكْراً وصبا
أضحى في اللَّحدِ ومقعدُهُ	بترابِ اللَّحدِ قد احتجَبا
اطلُب مولاك ودَعْ دُنياك	ففي أُخراكَ تَرَى عجَبَا
كم مِنْ قصرٍ قد شِيدَ بناً	بالموتِ وها أضحى خَرِبَا

يـا طـالَـبَـهـا، لا تَـلْه بِـهَـا　　كـم تـاهَ بـهـا مَـلِكٌ غُـصِـبـا
أين المـاضَـونَ؟ لقـد سكنُـوا　　لـحـدًا فـرداً خَـرِبَـاً تـربـا
كـانـوا ومَضَـوْا ثمَّ انقـرضُـوا　　فـتـأدبْ أنـتَ بِـهِـمْ أدبـا
فـالـعمـرُ مضى والـشَّيـبُ أتـى　　والـمـوتُ لحَيْنِـك قـد قَـرُبـا
فـأعِـدَّ الـزَّادَ فـمـا سـفـرٌ　　عـمـرُ الأَيَّـامِ قَـدِ انتـهـبـا
بـادِر بـالـتَّـوب وكُـنْ فَـطِنَـا　　لا تـلقَ بـجـريـتِـك الـنَّـصبـا
فـلعـلَّ الـلَّهَ بـرحـمـتِـهِ　　يُلقي بـالـعفْـوِ لـنـا سـبـبـا

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله: كنت أحمل الحطب من الجبال وأتقوَّتُ به، وكان طريقي فيه التقوى والتحري، فرأيت جماعة مِنْ صُلحاء البصرة في النوم، منهم الحسن، ومالك بن دينار، وفرقدٌ السَّبَخي.

فقلت لهم: أنتم أئمَّةُ المسلمين فدلُّوني على الحلال الذي ليس لله فيه تَبِعَةٌ، ولا للخلق فيه مِنَّةٌ، فأخذوا بيدي وأخرجوني من طرسوس إلى مرجٍ فيه خُبَّازى، فقالوا لي: هٰذا هو الحلالُ الذي ليس فيه للَّهِ تَبِعَةٌ، ولا للخلق فيه مِنَّة.

قال: قعدتُ آكلُ منه دهراً نيِّئاً، وآكلُ منه مطبوخاً، فأوجدني اللَّهُ تعالى قلباً طيباً. قلت: إن كان أهلُ الجنَّةِ بالقلبِ الذي لي، فهم - واللَّهِ - في عيشٍ.

فخرجتُ يوماً على باب البلد، وإذا بفتى يـريدُ البلدَ، وكـانت لي قطيعات بقيت لي مِنْ ثمنِ الحطب الذي كنت أبيعه قبل ذٰلك، فقلت: هٰذه لا أحتاج إليها، أدفعها لهٰذا الفقير يُنفِقُها.

فلمَّا دنا منِّي، أدْخلتُ يدي لأخرجها له، فرأيته قد حرَّك شفتيه، وإذا كلُّ ما حولي مِنَ الأرض ذهبٌ وفضَّةٌ، حتَّى كاد يخطَفَ بصري.

قال: ثم خرجت مرَّةً أُخرى، فرأيتُه قاعداً وبين يَديه ركوةٌ وفيها ماءٌ،

فسلَّمتُ عليه، ثمَّ طلبتُ منه أن يكلِّمَني فمدَّ رجلَه، فقلب الرَّكوة بمائِها، ثم قال: كثرةُ الكلامِ تنشِّفُ الحسناتِ، كما تنّشفُ هٰذه الأرضُ الماءَ، يكفيك.

قال: محمد بن غسان صاحبُ الكوفة وقاضيها: دخلتُ على أُمِّي في يوم عيد أضحى، فرأيتُ عندها عجوزاً في أطمارٍ رثَّةٍ، وإذا لها بيان ولسان، فقلت لأمي: مَنْ هٰذه؟ فقالت: خالتك عانية أمُّ جعفر بن يحيى البرمكي، وزير هارون الرَّشيد، فسلَّمتُ عليها، وسلّمَتْ عليَّ، فسألتها عن حالها، وقلت لها: صيَّركِ الدَّهرُ إلى ما أرى!.

قالت: نعم يا بنيُّ، إنَّما كنَّا في عوارٍ ارتجعها الدَّهرُ منَّا.

فقلت لها: حدِّثني ببعض شأنكِ.

قالت: خذه جملةً، وقس على ذلك. لقد مضى عليَّ عيدٌ مثلُ هٰذا منذ ثلاث سنين، وعلى رأسي أربعمائة وَصِيفةٍ، وأنا أزعمُ أنَّ ابني عاقٌّ، وقد كان بعثَ إليَّ برسمِ الأضاحي ألف رأسٍ مِنَ الغنم، وثلاثمائة رأسٍ مِنَ البقر، دون ما يتبعُ ذٰلك مِنَ الزِّينةِ واللِّباس، وقد جئتِكُم اليومَ أطلب جلدَيْ شاتين أجعل إحداهما شِعاراً، والآخر دثاراً[1]: تَعني غطَاءً بالليل.

قال: فغمَّني ذٰلك مِنْ قولها، وكربني ما رأيتُ مِنْ حالها، وأبكاني ـ واللَّهِ ـ قولُها، فوهبت لها دنانيرَ كانت عندي[2].

فانظر يا أخي حالَ الدُّنيا، وكيف يحولُ، ونعيمها كيف يذهبُ ويزول، فالمغرورُ ـ واللَّهِ ـ مَنِ اغترَّ بها، والمسعودُ مَنْ رأى عيبها وفرّ منها

---

(١) الشِّعار: ماولي شعر جسد الإنسان دون ماسواه من الثياب، والدِّثار: ما يُتَدثَّرُ به، وهو كل ما فوق الثياب.

(٢) أورده ابن كثير في «البداية والنهاية» ١٠/٩٧ مختصراً.

والمصائِبُ في الدُّنيا أعداد: فواحد يصاب في الأموال والأولاد، والآخر يعرى من الإسلام بالطرد والإبعاد.

قال بعضُ السَّادات: كنتُ جالساً عند الحسن البصريِّ رضي الله عنه، فمرَّ بنا قومٌ يجرُّون قتيلاً، فلمَّا رآه الحسنُ البصريُّ، وقع مغشياً عليه، فلما أفاقَ مِنْ غشيته، سألته عن أمره، فقال: إنَّ هٰذا الرَّجلَ كان مِنْ أفضل العُبَّادِ وكبارِ السَّادات الزُّهاد، فقلت له: يا أبا سعيد، أخبرنا بخبره، وأطلعنا على أمره.

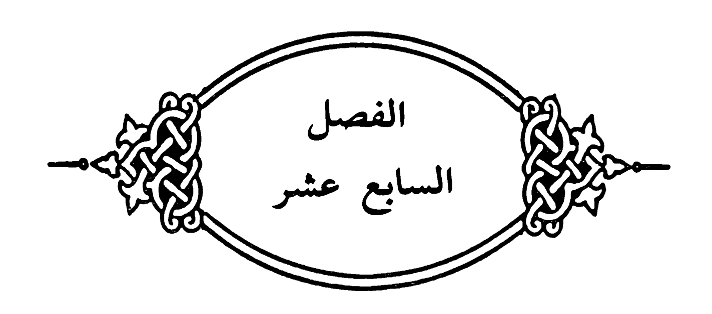
قال: إنَّ هٰذا الشيخ خرج من بيته يريدُ المسجدَ ليصلِّيَ فيه، فرأى في طريقه جاريةً نصرانيَّةً، فافتُتِنَ بها، فامتنعت عليه، فقالت: لا أتزوَّجُك حتَّى تدخُلَ في ديني، فلمَّا طالت المدَّةُ، وزاد به الأمر جبذته شهوتُهُ، ثم غلبت عليه شِقوتُهُ، فأجاب إلى ذٰلك، وبرىء مِنْ دين الحنيفيَّة.

فلمَّا صار نصرانيّاً، وكان منه ما كان، خرجتِ المرأة مِنْ خلف السَّتر، وقالت: يا هٰذا، لا خيرَ فيك، خرجت مِنْ دينك الَّذي صحبْتَهُ عمرَك من أجلِ شهوةٍ لا قَدْرَ لها، لٰكن أنا أتركُ دينَ النَّصرانية طلباً لنعيمٍ لا يفنى عنِّي طُولَ الأبد في جوار الواحدِ الصَّمدِ، ثم قرأت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص].

فتعجَّبَ النَّاسُ مِنْ أمرها، وقالوا لها: أكُنتِ تحفظينَ هٰذه السُّورة قبل هٰذا؟! قالت: لا والله، ما عرفتُها قطُّ، ولٰكن هٰذا الرَّجل لما أَلَحَّ عليَّ، رأيت في النَّوم كأنِّي دخلتُ النَّارَ، فعرض عليَّ مكاني منها، فارتعبتَ وخفت خوفاً شديداً، فقال لي مالك: لا تخافي ولا تحزني، فقد فداكِ اللَّهُ بهٰذا الرَّجل منها، ثم أخذ بيدي، وأدخلني الجنَّةَ، فوجدت فيها سطراً مكتوباً. فقرأته، فوجدت فيه ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾

[الرعد: ٣٩]، ثم أقرأني سورةَ الإخلاص، فأقبلت أردِّدُها، ثم انتبهتُ وأنا أحفظُها.

قال الحسن: فأسلمتِ المرأةُ، وقُتِلَ الشَّيخُ على رِدَّتِهِ نصرانياً. نسأل الله العافية.



يا مَنْ يُذنب ولا يتوب، كم كُتبت عليكَ الذُّنوب، ويحكَ خلِّ الأملَ الكذوب. واأسفا، أين أربابُ القُلوب، تفرَّقت بالهوى في شُعوب، ندعوكَ إلى صلاحك ولا تؤوب، واعجباً لك، ما النَّاسُ إلاَّ ضُروب.

يا دهر ما أقضاك مِنْ متلوِّنٍ	في حالتَيْكَ وما أقلَّك مُنصِفا
وغدوتَ للعبد الجَهُول مُصافيا	وعلى الكريم الحرِّ سيفاً مُرْهَفا
دهرٌ إذا أعطى استردَّ عطاءه	وإذا استقامَ بدا لهُ فتحرَّفا
لا أرتضيكَ وإن كرُمْتَ لأنَّني	أدري بأنَّكَ لا تدوُوم على الصَّفا
ما دامَ خيرُك يا زمانُ بشرِّهِ	أولى بنا ما قل منك وما كفى

روى الحسن البصري رضي الله عنه أنه قال: أدركتُ أقواماً، وصحبتُ طوائفَ، كان يأتي على أحدهمُ الخمسونَ سنةً ونحوها ما طوى منهم أحدٌ ثوباً قطُّ لفراشٍ ولا نوم، ولم يأمُر أهله قطُّ بعملِ طعامٍ، ولا جَعل بينه وبين الأرض فراشاً، ولقد كان يأكلُ أحدُهم الأكلةَ، فيودُّ أنَّها حجرٌ في بطنه، وما كانُوا يفرحُون بشيءٍ مِنَ الدُّنيا أقبل ولا يتأسَّفُونَ على شيءٍ مِنْهَا أدبر، ولهي أهونُ عليهم مِنْ هٰذا التُّرابِ الَّذي تطؤونَه بأرجلكم، ولقد كان أحدهم يعيش عمرَه مجهوداً شديد الجهد، والمالُ الحلالُ إلى جنبه، فيقال له: ألا تأخذُ مِنْ هٰذا المال شيئاً لتقتاتَ به؟ فيقول: لا والله، إنِّي لأخاف إن أصبتُ منه شيئاً، يكون فساداً لقلبي وديني.

ويروى عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، أنه تزوَّج امرأةً من كندة يقال لها صواب، فأتاها ووقف بباب البيت ونادى باسمها، فلم تُجبه.

فقال لها: يا هٰذه، أخرساء أنتِ أم صماء؟ ألا تسمعين؟!.

قالت: يا صاحبَ رسول الله ﷺ، ما بي خرسٌ ولا صممٌ، ولكنَّ العروسَ تستحيي أن تتكلم.

فدخل المنزل، فإذا بالأستار والأرياش ولباس الدِّيباج، فقال: يا هٰذه، أبيتُك هٰذا محمُومٌ فدثرته، أم تحوَّلتِ الكعبةُ في كندة؟!.

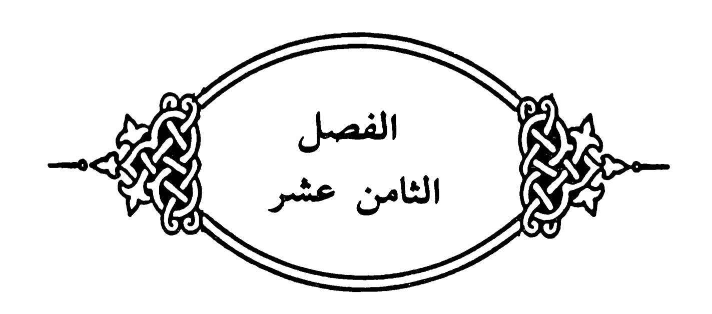
قالت: لا يا صاحبَ رسوله الله، ولكن العروس تُزَيِّنُ بيتها، فرفع رأسه، فرأى خدماً وُقُوفاً على رأسه قد أتَوْه بالماءِ والطَّعام، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نامَ على الموثور، ولبس المشهور، وركب المنظور، وأكل الشَّهوات، لم يَرِحْ رائحةَ الجنَّة».

قالت: يا صاحب رسول الله ﷺ، أُشهِدُكَ أنَّ كلَّ ما في البيت صدقةٌ لوجه الله تعالى، وكلُّ مملوكٍ حرٌّ لوجه الله تعالى، واكفني بُراً، أكفِكَ اشتغالَ البيت ومحاولة العيش، فقال لها: رحمك الله وأعانك[1].

نفعنا الله ببركاتهم بمنه.

---

(١) روى أبو نعيم الخبر في «الحلية» ١/١٨٥ ـ ١٨٧ دون ذكر الحديث المرفوع في آخره.



الفصل الثامن عشر

يا غافلاً عن مصيرِهِ، يا واقفاً مع تقصيرِه، سبقَك أهلُ العزائم، وأنت في بحر الغفلة عائِم، قِفْ على الباب وُقُوف نادِم، ونكّس رأسَ الذُّلّ وقلْ: أنا ظالم، ونادِ في الأسحار: مذنبٌ وراحم، وتشبَّه بالقوم وإن لم تكُن منهم وزاحم، وابعث بريح الزَّفَرات سحاب دمعٍ ساجم، وقُم في الدُّجى نادباً، وقف على الباب تائباً، واستدرك مِنَ العمر ذاهبَه، ودع اللَّهو جانباً، وطلِّقِ الدُّنيا إن كنت للآخرة طالباً، يا نائماً طُولَ اللَّيلِ، سارت الرِّفقَةُ، ورحل القوم كلُّهم، وما انتبهت مِنَ الرَّقدة.

ويروى عن إياس بن قتادة رضي الله عنه ـ وكان سيِّدَ قومه ـ أنه نظر يوماً إلى شعرةٍ بيضاءَ في لحيتـه، فقال: اللهم إنيِّ أعـوذُ بك من فجـأة الأمور، أرى الموتَ يطلُبني، وأنا لا أفوته، ثم خرج إلى قومه، وقال لهم: يا بني سعدٍ، قد وهبت لكم شبابي فلتهبوا لي شَيبتي، ثم دخل داره، ولزم بيته حتَّى مات[1].

وأنشدوا:

أَمِنْ بعـد شيبٍ أيُّهـا الـرَّجـلُ الكهـلُ ... جهِلْتَ ومنـك اليومَ لا يَحْسُنُ الجهـلُ
تحكَّمَ شيبُ الـرأسِ فيـك وإنَّمـا ... تميـلُ إلى الدُّنيـا وَيخـدَعُـك المَطْلُ
دعِ المـطلَ والتَّسـويفَ إنَّـك ميِّتٌ ... وبـادر بـجِـدٍّ لا يـخـالـطُه هَـزْلُ

---

(١) انظر «حلية الأولياء» ٣/١١٠، و«صفة الصفوة» ٣/٢٢١ ـ ٢٢٢.

سـأبكي زمـانـاً هـدَّني بفِـراقـه		فـليس لقـلبي عَنْ تـذكُـرِهِ شُغْـلُ
عجبتُ لقلبي والكَـرى إذ تهـاجـرا		وقـد كـان قبـلَ اليـوم بينهُمـا وصـلُ
أخـذت لنفسي حتفَ نفسي بكـفِّهـا		وأثقلْتُ ظهـري مِنْ ذنـوبٍ لهـا ثِقْـلُ
وبـارزت بـالعِصيـان ربّـاً مهيمنـاً		لـه المنُّ والإحسان والجـودُ والفضـلُ
أخـافُ وأرجـو عـفـوَه وعقـابَـه		وأعـلـمُ حـقّـاً أنَّـه حَـكَـمٌ عَـدْلُ

ورُوي عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه كان يقول: يا ابن آدم، هبطت صحيفتُك، ووُكِّلَ بك ملكان كريمان؛ أحدُهما عن يمينك، والآخر عن يسارِك، فالذي عن يمينك يكتُب حسناتِك، والذي عن يسارِك يكتب سيِّئاتك، اعمل ما شئت، وأقْلِلْ أو أكثِر، حتى إذا فارقتَ الدُّنيا، طُوِيَتْ صحيفتُك، وعُلِّقَتْ في عنقك، فإذا كان يومُ القيامة، أخرجت، وقيل لك: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤].

يا أخي، عدل والله عليك من جعلَك حسيبَ نفسِك.

يا ابن آدم، اعلم أنَّك تموتُ وحدَك، وتدخلُ قبرَك وحدَك، وتُبعَثُ وحدَك، وتُحاسَبُ وحدَكَ.

يا ابن آدم: لو أنَّ النَّاسَ كلَّهم أطاعوا الله، وعصيتَ أنت، لم تنفعْكَ طاعتُهم.

وروي عن إبراهيم بن أدهم أنَّه لقي رجلًا، فقال له: كيف حالُك يا أبا إسحاق، فقال له:

نـرقِّـعُ دُنيـانـا بتمـزيق ديننـا		فـلا دينُنا يبقى ولا ما نَـرْقَـعُ[1]
فـطوبى لعبـد آثـرَ الـلَّهَ رَبَّـه		وجـادَ بـدُنيـاه لِـمَـا يتـوقَّـعُ

ويروى أنَّ عونَ بنَ عبدالله كان يقول: ويحي، كيف أغفلُ ولا يُغْفَلُ

---

(١) «الحلية» ٨/١٠، «عيون الأخبار» لابن قتيبة ٢/٣٥٥، والعقد الفريد لابن عبد ربه ٣/١٧٦.

عنِّي؟ وكيف يهنأ عيشي، واليوم ثقيل مِنْ ورائي؟ كيف لا أُبادِرُ بعملي، ولا أدري متى أجلي؟ أم كيف أُسَرُّ بالدُّنيا ولا يدوم فيها حالي، أم كيف أُوثِرُها وقد أضرَّت بمن آثرها قبلي؟ أم كيف يشتدُّ حرصي عليها وفي غيرها قراري وخُلدي؟ أم كيف تُعجبُني وهي زائلةٌ ومنقطعة عنِّي؟ أم كيف لا يطولُ حُزني وربّي لا أدري ما يفعلُ بي في ذُنوبي[1].

ويُروى عن عائشةَ رضي الله عنها أنَّها قالت: كانت تأتي أربعُونَ ليلةً ما يُوقَدُ في بيت رسولِ الله ﷺ مصباحٌ ولا نارٌ. قيل لها: فبمَ كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: الماء، والتَّمر[2].

وعن عائشة بنت سُليمان زوجِ يوسف بن أسباط أنَّها قالت: قال لي يوسفُ بنُ أسباط: إنِّي لأشتهي مِنَ اللَّه ثلاثةً، قلت: وما هي؟ قال: أشتهي أن أكونَ حين أموت ليس في مُلكي شيءٌ، ولا يكون عليَّ دينٌ، ولا يكون على عظمي لحم.

ولقد أُعطي ذٰلك كلُّه ولقد قال لي في مرضه: هل بقي عندك نفقةٌ؟ قلت: لا، فقال: أي شيءٍ تُريدين؟ فقلت: أخرج هٰذه الخابيةَ إلى السُّوق للبيع، قال: فإذا فعلتِ ذٰلك، انكشف حالُنا، فقال الناس: إنَّما باعوها مِنْ الحاجة.

قالت: وكان عندنا خروفٌ أهداه لنا بعضُ إخواننا، فأمر بإخراجه إلى السُّوق، فبيعَ بعشرةِ دراهم.

فقال لي: اعزلي منها درهماً لحَنُوطي، وأنفقي سائِرها.

---

(١) حلية «الأولياء» ٤/٢٥٤ ـ ٢٥٥.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ، وأخرج البخاري (٦٤٥٨) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان يأتي علينا الشهر ما نوقد فيه ناراً، إنما هو التمر والماء. وفي رواية (٦٤٥٩): إن كنا لننظر إلى الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، وانظر «صحيح مسلم» (٢٩٧٢).

قالت: فمات وما بقي مِنَ الدَّراهم إلاَّ الدِّرهم الذي أمرَ بعزله لحَنُوطه. رضي الله عنه ونفعنا ببركاته[1].

يا من تحدِّثُه الآمال، دع عنك هٰذه الوساوِس، متى تنتبه لصلاحك أيها النَّاعِس، متى تطلُب الأخرى، يا من على الدُّنيا ينافِس. متى تذكُر وحدتَك إذا انفردتَ عن كلِّ مؤانِس، يا من قلبُه قد قسا وجفنُه ناعس.

وأنشدوا:

إنِّي بُلِيتُ بأربعٍ ما سُلِّطت إلا لِعُظْمِ بَلِيَّتي وشقائي
إبليس والدُّنيا ونفسي والهوى كيف التَّخلُّص مِنْ يَدَيْ أعدائي

ورُوي عن عبدالأعلى بن عليٍّ رضي الله عنه قال: صعدت على جبل لبنان؛ لأرى من أتأدب به وأتهذَّب بأخلاقه، فدلَّني اللَّهُ على أحدهم في مغارة، فوجدت فيها شيخاً تلوح على وجهه الأنوارُ وقد علتهُ السَّكينةُ والوقار، فسلمت عليه، فأحسن الرَّدَّ، فبينما أنا قاعدٌ عنده، وإذا أنا بمطرٍ عظيمٍ وسيلٍ شديد، فاستحييت أن آوي إلى المغارة من غير إذنه، فناداني وآواني وأقعدني على صخرة بإزائه، وكان يصلي على مثلها، وقد ضاق صدري من المطر، وتضييقي عليه في موضعه، فناداني، وقال لي: مِنْ شرائِط الخُدَّام التَّواضعُ والاستسلامُ. فقلت له: ما علامة المحبة؟.

قال: إذا كان البدنُ كالحيَّة يلتوي، والفؤاد بنارِ الشَّوق يكتوي، فاعلم أنَّ القلبَ على المحبَّة منطوٍ، وكل نقمة يشاهدها المحبُّ دون الهجر فهي نعمة، فالكلُّ عنه عِوَضٌ إلاَّ المحبوب. ألا ترى إلى آدمَ عليه السلام شاهد العتاب والنِّقمة، ولكنه لمَّا لم يكن معه هجرٌ، كانت مِنَحَاً ونعمة، وجعل يقول رضي الله عنه:

جسدٌ ناحِلٌ ودمعٌ يفيض وهوى قاتلٌ وقلبٌ مريضُ

---

(١) انظر «صفة الصفوة» ٤/٢٦٥ - ٢٦٦.

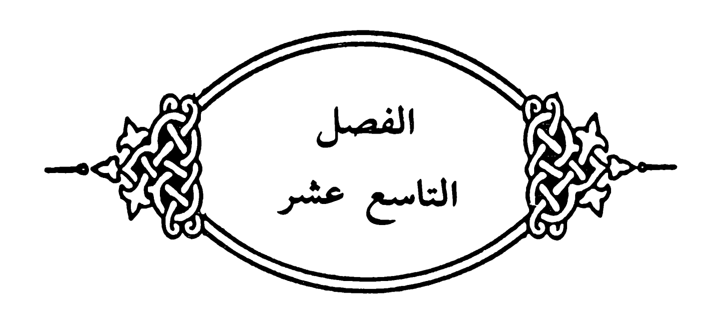
وسقــامٌ على التَّنــائي شــديــدٌ   وهــمــومٌ وحُــرْقَــةٌ ومــضــيضُ
يــا حبيبَ القُلوبِ قلبَي مــريضٌ   والـهــوى قــاتلي ودمـعي يـفيضُ
إن يكن عــاشـقٌ طــويــلٌ بــلاه   فبـلائي بـك الــطَّويـلُ العــريضُ

قال: وصاح الشيخ صيحةً، فسقط ميتـاً، فخرجُت لأنـظرَ معي مَنْ يدفِنُه وأجهزه، فما وجدتُ أحداً.

فرجعت إلى المغارة، فطلبتُه، فما وجدتُه، فبقيتُ متحيِّراً في أمـره متفكِّراً، فسمعتُ هاتفاً يقول:

رُفِـعَ الـمحـبُّ إلى الـمحبــوب   وفـاز بــالـبُـغـيــةِ والـمــطلوب

نفعنا الله ببركاته ورضي الله عنه.



الفصل التاسع عشر

يا أخي: لا يبيعُ الباقي بالفاني إلاَّ خاسر، وإياك والأنسَ بمن ترحَلُ عنه، فتبقى كالحائر، رفيق التَّقوى رفيق صادق، ورفيق المعاصي غادر، مهر الآخرة يسير؛ قلبٌ مخلصٌ، ولسانٌ ذاكر، إذا شِبْتَ ولم تنتبه، فاعلم أنك سائر، فديت أهل التهجُّد بلسان باكٍ وجفن ساهر، كم لهم على بابٍ تتجافى جنوبُهم مِنْ تملُّقٍ ودمعٍ قاطر، إذا تنسَّمُوا نسيمَ السَّحَرِ أغناهُم عن نسيم العذيب وحناجر، عصفت بهم رواشقُ الاستغفار البواكر، عمروا منازل الخدمة، ومنزل الغفلة خرابٌ داثر.

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: رأيت شاباً في بعض السَّواحل مصفرَّ اللَّونِ على وجهه نور القَبُول، وآثار القُرب وعزُّ الأُنس، فقلت: السَّلام عليك يا أخي، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقلت له: ما علامة المحبة، فقال: التَّشتُّتُ في البلاد، والتهتُّكُ في العباد، وتحريمُ الرُّقاد، وخشيةُ البعاد.

وأنشدوا:

أبليتَ مَنْ أحببتَ يا حسن البلا ... وخصصت بالبلوى رجالاً خُشَّعا

أحببتَ بلواهم وطولَ حنينِهم ... وأطلتَ ضُرَّهم لكي يتخضَّعا

إخواني، كم إلى دير المحبة من موارد ومصادر، نبَهوا رواهب الشَّوق لتكون إليهم سائِر، طلبوا منه شراباً عتيقاً جلّ عَنْ معاصرة العاصر، فتح لهم دِنان التولُّه، فانفض منه رحيقُ التَّحقيق له شعاع يملأ البصائر، أدار

عليهم أقداحَ الوجد، فحنُّوا إلى المزيد حنين الذَّاكر، خامرهم سُكْرُ التولُّهِ، فبدا لهم كل غائبٍ وحاضر، استزادوا مِنْ هٰذا الشَّرابِ الطَّيِّبِ الطَّاهر، بذلُوا فيه النُّفُوسَ والأوطان والغائب والحاضر، أطربهم تلحينُ أهلِ ديرِ المحبَّة، فتواجدوا تواجُدَ كابرٍ عن كابر، محبوبُهم ساقيهم، ومجلسُ أنسهم منضَّدٌ بأنواع الأزاهر، ملوكٌ في وقت السُّكر، عبيدٌ في وقت الصَّحو، فهم بين غائب وحاضر.

شربة مِنْ هٰذا المُدام رخيصة بِبَذْلِ الكون والأوائِلِ والأواخر، لا يتركه إلا سفيهٌ ليس لتيه شقائهِ مِنْ آخِر، اقْبَل نُصحي وبادِر قبلَ غَلْقِ بابه وباكر، يُغنيك عن كلٍّ مطعوم ومشروب، وعن كلٍّ نسيم عاطر.

منها شَرِبَ آدمُ، وناح عليها نوح، ونُشر زكريًّا بالمناشر، وعُرِضَ الخليلُ على النار، فما أحسَّ بما هو إليه سائر، وعاجل الشَّوقَ موسى فقال: أرني لعلي أرى المنظور في الناظر، وكم لداود من سُكر أشواق وتلحين مزامر، وهام عيسى في البراري لا يأوي على بادٍ ولا حاضر، شربها شرباً نبيُّنا محمد ﷺ يوم السَّبت، فأبقت فيه بقيَّة أوجبت المدائِحَ والمفاخر.

لك انفتح الكون، فاختر هٰذا الشَّراب الطَّيِّبَ الطَّاهر، قطرةٌ منها نهر الكوثر تروي منها في ظمأ الهواجر، دارت على الصِّدِّيق والفاروق والسعيد إلى العاشر. اجتمعُوا لشربها في الأول، واجتمعوا لشربها في الآخر، أبقوا في دِنانِ المعاني بقايا الكرام فعل الأكابر، صفت لأهل الصُّفَّة، فصفت بشربها السَّرائِر.

فاخلَعْ في شربها العذار، فما لك إن خلعت مِنْ عاذِل، وإن لم تخلعه فما لك مِنْ عاذِر، وزمزم واطرب وارقُص، فالكون كونُك، ومحبوبك حاضر. صن موضع السِّرِّ عن سواه، وإيَّاكَ والخاطر الخاطر، إن نظرتَ لغيره، أبعدك وما لك إن بَعِدْتَ مِنْ ناصر.

يا معشر الفقراء، هٰذا سماعُكم، فأين من هو معي حاضر، يا أرباب الأحوال، معكم أتحدَّثُ، ولكم أصفُ، ولركبكم أُساير، يا معشر التَّائبين، أما يهُون عليكم بذلُ المعصية لنَيْلِ هٰذا الجوهر الفاخر. إن فاتك هٰذا السَّماع ولم تطرب، فأنت في بريَّه الحِرمان حائِر.

قال أبو بكر الوراق رضي الله عنه: حقيقة المحبَّة مشاهَدةُ المحبوب على كلِّ حالٍ، فإنَّ الاشتغال بالغير حجاب، وأصلُه التَّسليم واليقين، فإنهما يبلُغان إلى درجات المتَّقين في جنات النعيم.

وأنشدوا:

أُحبُّ الصَّالحينَ ولستُ منهم ... وأطلُبُ أن أنال بهم شفاعة
وأكره مَنْ بضاعَتُه المعاصي ... ولو كنَّا سواءً في البِضَاعة[1]

ويروى عن ذي النون المصري رضي الله عنه أنه قال: بينما أنا في بعض الفيافي والقفار أطوفُ، وإذا بغُلام قدِ انتقع لونُه ونحَل جسمُه، يتلألأ نورُ الخدمة بين عينيه، وينطق آثار القَبُول مِنْ بين وجنتيه، وعلى وجهه سَمْتُ الطَّاعة والمجاهدة، وهيأة المؤانسة والمشاهدة، وعليه طِمرَانِ، وعلى بدنه جبَّةُ صوفٍ متفتِّقةُ الأكمام والذيول، وعلى أحد كمَّيه مكتوب ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. وعلى الكُمِّ الآخر مكتوب: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، وعلى أذيالها مكتوبٌ: لا تباع ولا تُشترى، وعلى صدرها مكتوب: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦]، وعلى ظهرها مكتوبٌ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وعلى رأسه مكتوب:

(١) البيتان للإمام الشافعي، وهما في «ديوانه» ص ٥٦.

حبُّ مولاي بلائي حيثُ مولاي دوائي

فما رأيتُ أنظفَ مِنْ طمرين كانا عليه، فتهيّأت لخطابه، ثم دنوت منه بعد ساعة، فقلت: السلام عليك يا عبدالله، فقال: وعليك السلام يا ذا النون، فقلت له: ومن أين عرفتني يا أخي؟! فقال: اطَّلعَتْ حقائقُ الحقِّ مِنْ ضميري على مكنون ضميرِكَ، فشاهد صفاء معرِفَتِك في غياهب غُيوب همَّتك، فتناطقا وتعانقا، فعرّفني أنَّك ذو النون المصري.

فقلت له: يا أخي، ما ابتداء المحبَّة؟

فقال: الاعتبار بهٰذه الآية التي تراها وتسمعها، وأشار إلى المكتوبة على طمريه، فقلت له: يا أخي وما انتهاء المحبَّة؟ فقال: يا ذا النون، محبوبٌ بلا انتهاء، ومحبَّة بابتهال محال، فقلت له: يا أخي، الزُّهدُ في الدُّنيا طلب للعُقبى، أَم طلب للمولى؟.

فقال: يا ذا النون، الزُّهد في مخلوق لطلب مخلوقٍ آخرَ خسران، وإنَّما يصلُح الزُّهد في الدُّنيا المخلوقة لطلب المولى الخالق.

يا ذا النون، صغُرَتْ همَّة عبدٍ رضِيَتْ مِنْ محبوبٍ قديمٍ بجنَّةٍ مخلوقةٍ. إنَّما معنى الزُّهد: التجنُّب عَنِ الأغيار، وتتبُّع الأخيار، ومشاهدة الآثار لوجود الملك الجبار، فمن طلب الأغيار، فمطلوبه مشهودُه، ومن طلب الجبار، فمطلوبه محبوبُه، فالمخلوق إذا رضي بمخلوق مثله، فالمشاكلةُ مقصوده.

يا أخي ذا النون: الدُّونُ كل الدُّون والمغبونُ كل المغبُون مَنْ هجر لَذَّة الكرى والهوى، وأبغض طيب الدُّنيا، ثم رضي بدون المولى، وكدَّ نفسه وهجر دنياه، رهبة أن تكونَ النَّارُ مثواه، أو رغبة أن تكونَ الجنةُ مأواه[1].

---

(١) سبق أن بينا في ص ٣٩ ت (١) فساد مثل هذا القول.

فقلت له: يا أَخي، تصبرون في هٰذه الفيافي المقفرة، والمهالك المقحطة، بلا زاد؟.

فغضب، وقال: يا بطَّالُ، ما هٰذا الاعتراضُ على من لم يُطلعكَ على حاله، ولا يأتمنك على سرِّه، أمَا أمرنا في حال المأكول والمشروب، فهكذا، فوكز برجلِهِ اليُمنى على الأرض، فإذا بعينٍ مِنْ سمن وعسل، فأكل وأكلتُ معه، ثمَّ وكز الأرض برجله اليُسرى، فإذا بعين مِنَ الماء أحلى مِنَ العسل، وأبرد مِنَ الثَّلج، فشرب وشربتُ معه، وردَّ الرَّملَ عليهما، فعادتِ الأرضُ كما كانت، كأن لم يكُنْ بها شيءُ قطُّ، ثم ولَّى عني وتركني، فبقيتُ باكياً، وممَّا عاينت متعجباً، رضي الله عنه، ونفعنا بأمثاله.



يا أسيراً في قبضة الغفلة، يا صريعاً في سَكْرَة المُهلة، يا ناقض العهد، انظر لمن عاهدت في الزَّمن الأول، أكثرُ العمر قد مضى، وأنت تتعلَّل، يا مدعُوّاً إلى نجاته وهو يتوانى، ما هٰذا الفتُور والعمرُ قد تدانى، كأنَّك بالدَّمع يجري عند الموت هتَّانا.

يا أخي: ما أحسن ما كنتَ فتغيَّرتَ، ما أقومَ جادَّتك، فكيف تعثَّرت؟ يا معاشر المطرودين عن رفاق التَّائبين ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

كان بعض الأغنياء كثيرَ الشُّكر فطال عليه الأمدُ، فبطَرَ وعصى، فما زالت نعمتُهُ ولا تغيَّرت حالتُه، فقال: يا ربِّ، تغيَّرت طاعتي، وما تغيَّرت نعمتي، فهتف به هاتف يقول: يا هٰذا، إنَّ لأيَّامِ الوِصال عندنا حرمةً وذماماً، حفظناها نحن لك، وضيَّعتها أنت لنا.

وأنشدوا:

سأتْرك ما بيني وبيك واقفاً … فإن عُدتَ عُدنا والوِدادُ سليمُ
تواصلُ قوماً لا وفاءَ بعهدهم … وتتركُ مثلي والحِفَاظُ قديمُ

قال رجل لحاتم الأصم رضي الله عنه: أوصني بشيءٍ أتصل به إلى باب الله سبحانه وتعالى، فقد عزمتُ على سفرِ الحجِّ.

فقال: يا أخي، إن أردتَ أنيساً، فاجعل القرآن أنيسَك، وإن أردتَ

رفيقاً، فاجعل الملائكةَ رفقاءَك، وإن أردت حبيباً، فاللَّهُ سبحانه يتولى قُلوبَ أحبابه، وإن أردت الزَّادَ، فاليقينُ بالله سبحانه وتعالى نعمَ الـزَّادِ، واجعل البيتَ قبلةَ وجهِكَ، وطُفْ بسرِّكَ حولَهُ.

وقال: عطاء السُّليمي لعمر بن يزيد السلمي: أوصني.

فقـال: يا أحمـدُ، الدُّنيـا بلاءٌ في بـلاءٍ مع هـوى النَّفس ومقارنـة الشَّيطان، والآخرة بلاء في بلاء مع الموافقة والحساب. فيا لها من نفوس مضمحلَّةٍ فيما بينهما، فحتى متى تسهو وتلعب، وملَكُ الموت في طلبك لا يغفلُ عنك، والملائكةُ يكتبُون عليك أنفاسَك.

قال: فخر مغشياً عليه(١).

يا من صحيفتُهُ سوداءُ، اغسلها بالدُّموع، وتعرَّض لمجال المتهجِّدين، وقل: ضالٌّ ضلَّ عَنِ الطَّريق مقطوعٌ، هٰذا مـأتمُ الأحزان، إلى أيِّ وقتٍ تدَّخِرُ الدُّموع، هٰذا مجلس الشَّكوى، هٰذا وقت الرجوع.

فبادروا إخواني، وافهموا أسرارَ المراد، ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وأنشدوا:

مـا الذنبُ لي فيمـا مضى سـالفـا ... الـذَّنبُ للدَّهـرِ وسـوءِ القضـا
فـامنُن وجُدْ بـالصَّفح عَنْ مـذنبٍ ... معتـرفٍ بـالـذَّنب فيمـا مضـى
قـد ظـلَّ مِنْ خـوفِك في حَيْـرةٍ ... في قلبِـهِ منـكَ لهيبُ الـغضـا
إن كـان لي ذنبٌ فـلي حُـرْمَـةٌ ... تـوجِبُ لي منكَ جميلَ الـرِّضـا

ومن كتـاب «لوامـع أنوار القلوب»، قـال الأصمعي: كنت مارًّاً في البادية، وإذا أنا بامرأةٍ كأنَّهـا فلقةُ قمـرٍ، فدنـوت منها، وسلَّمت عليهـا، فأحسنت إليَّ الرَّدَّ، ثم قلت: يا جاريةُ، كلِّي بكُلِّكِ مشغولٌ، فقالت في

(١) انظر «الحلية» ٦/٢١٩ - ٢٢٠.

الحال: كلِّي لكلِّكَ مبذولٌ، ولكن إن أعجبك حُسني، فانظر خلفك، فإنَّكَ ترى مَنْ هي أحسنُ مني، فنظرتُ خلفي، فما رأيتُ أحداً، فصرخت عليَّ، وقالت: إليك عنِّي يا بطَّال، لما رأيتُك مِنْ بعيدٍ حسبتُك عارفاً، فلما تكلَّمت حسبتُك وامقاً[1]، وإذا بك يا مسكينُ لا عارفاً ولا وامقاً[1]، تدَّعي محبَّتي وتنظرُ إلى غيري، وأنت لم تصل إلى قُربي، ثم ولَّت عني، ورمقت إلى السَّماء بطرفها، ونادت، آه... آه، إلهي، حبُّ الوصال شرَّدني، آه آه، خوف القطيعة أزعجني، آهٍ مِنَ الانفصال قبل الاتصال، وجعلت تقول:

حبِّي في ذي القِفَارِ شرَّدني آه مِنَ الحبِّ ثم آه[2]
خوفُ فراق الحبيب أزعجني آه مِنَ الخوف ثم آه
شبه حالي بتاجر غَرِقٍ نجا مِنَ البحر ثمّ تاه

ومن الكتاب المذكور: قال سالم: بينما أنا سائرٌ مع ذي النون المصري في جبل لبنان، إذ قال: مكانَك يا سالم حتَّى أعودَ إليك، فغاب عنِّي ثلاثةَ أيام في الجبل، وأنا أُطعِمُ نفسي مِنْ نبَاتِ الأرض، وأسقيها مِنْ غُدرانها إذا طالبتني بشيء من القُوت.

فلما كان بعد ثلاثة أيَّامٍ، عاد إليَّ وهو متغيِّرُ اللَّون، ذاهبُ العقل.

فقلت له: هل عارضَك السَّبُعُ يا أبا الفيض؟.

فقال: دعني من تخويف البشريَّة، إنِّي دخلتُ كهفاً مِنْ كهوف هٰذا الجبل، فرأيتُ فيه رجلاً أبيضَ الرَّأس واللحية، أشعثَ أغبرَ، نحيفاً، كأنَّه خرج مِنْ قبره، ذا منظر يهول وهو يصلي، فسلَّمت عليه، فردَّ عليَّ السَّلامَ، وقال لي: الصَّلاة، وقام إلى الصَّلاة، فلم يزل راكعاً ساجداً حتَّى صلى

---

(١) في نسخة: «عاشقاً» والمعنى واحد.

(٢) أنشد هٰذا البيت أبو القاسم بن حبيب في «عقلاء المجانين» ص ٦٢ عن أبي علي الحسن بن أحمد القزويني، قال: رأيت مجنوناً في القفار يرقص ويقول: . . .

العصرَ، واستند إلى حَجَرٍ كان بـإزاء محرابـه، وهو لا يكلِّمُني، فبـدأتُه بالكلام، وقلت له: يرحمُك الله، أوصني بشيءٍ أنتفعُ به، وادْعُ لي بدعوة.

فقال لي: يا بني، من آنَسَهُ اللَّهُ سبحانه بقربه، أعطاه أربعَ خصال: عِزّاً من غير عشيرة، وعلماً مِنْ غَير تعلُّم، وغنىً مِنْ غير مالٍ، وأُنساً مِنْ غير جماعة، ثمَّ شهق شهقة، فلم يفق إلاَّ بعد ثلاثة أيام، حتى ظننتُ أنَّه ميت، فلما أفاقَ، قام وتوضأ من عينٍ كانت إلى جنبه، وسألني عمَّا فاته مِنَ الصَّلاة، فأخبرتُه، فقضاه، ثم قال لي:

إنَّ ذكـرَ الـحبيبِ هيَّـج قـلبـي ثـمَّ حبُّ الـحبيبِ أذهـلَ عـقلي

وقد استوحشت مِنْ ملاقاة المخلوقين. وأنِسْتُ بذكرِ ربِّ العالمين، انصرف عني بسلام.

فقلت: يرحمك الله، وقفتُ عليك ثلاثـة أيام رجـاءَ الزِّيـادة منك. فقال: أحِبَّ مولاك، ولا تحبَّ غيره، ولا تُرِد بحبِّـه بدلاً، فـالمحبُّون لله سبحانه هم تيجانُ العُبَّادِ، وأعلام الزُّهَّادِ، وهم أصفياء الله وأحباؤه.

ثم صرخ صرخةً، ووقع فحرَّكتُه، فإذا هو ميت، فما كان إلاَّ هُنيهةً، وإذا بجماعة مِنَ العُبَّاد قدِ انحدروا من الجبل فغسلوه وكفَّنُوه وصلَّوْا عليه ودفنوه، فسألتهم: ما اسم هٰذا الشَّيخ الصالح؟ فقالوا: شيبانُ المصاب.

قال سالم: فسألتُ عنه أهل الشام، فقـالوا: نعم، رجـلٌ مجنونٌ، خرج مِنْ أذى الصِّبيان، فقلت لهم: هل تعرفون مِنْ كلامه شيئاً؟ قالوا: نعم، كان إذا ضجر يقول: إذا أنا بك لم أجن يا سيدي فبمن أجن[1]. رحمه الله ونفعنا به.

---

(١) الخبر في «صفة الصفوة» ٣٤٨/٤ - ٣٥٠، وفيه: «إذا بـك لم أجن يـا حبيبي فبمن».



الفصل الحادي والعشرون

يا أخي، لِلَّهِ دَرُّ أقوامٍ نَعَّمهم مولاهم بقُربِهِ، فحجبهم عَنْ خطراتِ الوسواس. حمى إقليم قلوبهم من غُبار الشَّهوات من حمايته بحراس، قبِلُوا أمره بالقَبُول، وقاموا به على العينين والراس، قدَّموا زادَ الأعمال لسفر الموت وظُلمةِ الأرماس، يا بطَّالُ، أبطال ميدان الدُّجى لِلَّهِ درُّهم مِنْ أبطالٍ وأفراس، خلع عليهم خُلعةَ الرِّضا، وناداهم مرحباً بالأحباب الأكياس، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وأنشدوا:

أيا نفسُ توبي قبل أن يَنْكشِفَ الغَطا ... وأُدعى إلى يوم النُّشورِ وأجزَعُ
فللَّهِ عبدٌ خائِفٌ مِنْ ذُنوبه ... تكاد حشاه مِنْ أسى تتقطَّعُ
إذا جنَّه اللَّيلُ البهيمُ رأيتَه ... وقد قام في محرابِهِ يتضرَّعُ
يُنادي بذُلٍّ: يا إلٰهي وسيِّدي ... ومن يهربُ العاصي إليه ويفزَعُ
قصدتُكَ يا سُؤْلي ومالي مُشَفَّعٌ ... سوى حُسْنِ ظنِّي حين أرجو وأطمعُ
فَجُدْ لي بعفوٍ وامْحُ ذنبي ونجِّني ... مِنَ النَّار يا مولى يَضُرُّ وينفَعُ
بهٰذا يُنالُ الملكُ والفوزُ في غدٍ ... ويُجزَى نعيماً دائماً ليس يُقطَعُ

وقف الفضل الجوهريُّ العالم في الحرم متوجِّهاً إلى الكعبة وهو محرم ثم قال بأعلى صوته:

يا تَلفَى بحتُوف المُراقبَة والمعرفة، يا قَتلى بسُيوفِ المؤانسةِ والمحبَّة، يا حَرقى بنارِ الخوف والاشتياقِ، ويا غرقى في بحرِ المُشاهَدَةِ والتَّلاق، هٰذه

ديارُ المحبوب، فأين المحبُّون؟ هٰذه أسرار القُرْبِ، فأين المُشتاقون؟ هٰذه آثارُ الدِّيار والرُّبوع فأينَ القاصدون؟ هٰذه ساعـةُ العَرْضِ والاطِّـلاع على الدُّموع فأينَ الباكون.

ثم شهق شهقةً عظيمةً وغُشي عليه، فأفاقَ بعد ساعةٍ، وهو يقول:

مُـنْـذُ تـبَـدَّى لـنـاظـري بَـلْبَـلَ الشَّـوقُ خـاطـري
حـاضـرٌ غـيـرُ غـائـبٍ سـاكـنٌ في الـضَّـمـائـرِ
هـو كَـنـزي الَّـذي بـدا فـي الـرُّسـوم الـدَّوائِـرِ

قـال الـراوي: فـدنـوتُ منـه، فقلت لـه: يـا سيـدي مـا عـلامـةُ المحبِّين لله؟.

قال: إنَّ للمحبِّين عندَ ظلامِ اللَّيلِ عندَ الله سبحانه وتعالى نشاطاً، وبينهم وبينَه انبساطاً، شغلَهُمُ الأُنسُ بمعبُودهم عن لَذَّة الكرى، وقطعهم الشُّغلُ به عن جميع الورى، ولا يُؤثِرُونَ على مناجاته مناماً، ولا يختارُون على كلامِهِ كلاماً، عرفه مَنْ عرفه، وذاقه مَنْ ذاقه، واستأنس به مَنِ استطابه.

سبحـان مَنْ حكم بـالفنـاء على الخـلائِق، فتسـاوى عنـدَه الملوكُ والعبيدُ، تفرَّد بالبقاء، وتوحَّد بالقِدَم، وصرف أقدارَه في المُلك بِما يُريد، ظهر افتقارُ الكلِّ إليه؛ الصَّالح والطَّالح والغوِيُّ والرشيد، ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩]

جوادٌ غَمرَ الكـلَّ عطاؤه، فـأين يفِرُّ العـاصي، ومَنْ يَجْبُرُ الفقيـد؟ كم جدَّلَ القضاءُ مِنْ زعيمٍ، وكم أُدخل للحضرة مِنْ طريد، ما أغفلَ أهلِ المعاصي عَنْ قسمة العباد، فمنهم شقيٌّ، ومنهم سعيد.

وأنشدوا:

إحدى وسِتُّون لو مرَّتْ على حجرٍ لكانَ مِنْ حُكمها أن يَخْلَقَ الحجرُ
تُؤَمِّلُ النَّفسُ آمالاً لتبلُغَهَا كأنَّها لا ترى ما يصنَعُ القدرُ

قال أبو إسحاق الجيلي: قدِمتُ على عليِّ بن عبدالحميد الغضائري، فوجدته أفضلَ خَلْقِ الله عبادةً، وأكثرَهم مجاهدةً، وكان لا يتفرَّغُ مِنْ صلاته آناءَ ليلِهِ ونهارِهِ، فانتظرتُ فراغَه. فلم أُصبه ولا وجدتُه.

فقلت له: إنَّا قد تركنا الآباءَ والأُمَّهاتِ والأهلينَ والأوطانَ والبنينَ والبنات بالرِّحلةِ إليك، فلو تفرَّغْتَ ساعةً تحدِّثنا بما آتاك اللَّهُ مِنَ العلم.

فقال: أدركني دعاءُ الشَّيخ الصَّالح سريٍّ السَّقطيِّ رضي الله عنه؛ جئتُ إليه وقرعتُ عليه البابَ، فسمعته يقول قبل أن يخرج إليَّ مناجاياً: اللهمَّ مَنْ جاءني يَشْغَلُني عن مُناجاتِكَ، فأشغله بكَ عنِّي، فما رجعَتُ مِنْ عنده حتَّى حُبِّبَتْ إليَّ الصَّلاةُ والشُّغْلُ بذكرِ اللَّهِ تعالى، فلا أتفرَّغُ إلى شيءٍ سواه، ببركة ذٰلك الشيخ.

قال أبو إسحاق: فرأيت كلامَه يخرجُ مِنْ قلبٍ حزين، وهمٍّ كمينٍ، والدَّمعُ يسابِقُه رضي الله عنه[1].

سبحان من ألَّفَ بحكمته بين لطائِف الأرواح، وكثائِف الأشباح، جعل اللَّيلَ والنَّهار جَناحيِ الأعمار، يطيران للفناء بلا ريش ولا جناح، سقى أرواحَ المحبِّين شرابَ المحبَّة، فللَّهِ ما أحلاه مِنْ راح، غنى لهم في مجلس أُنْسهم معبد الوَجْدِ، فشَرِبُوا بالدِّنان، لا بالأقداح، زيَّنُوا روضة الدُّجَى بأزهارِ التَّهَجُّدِ، واصطبحُوا على الأذكار أيَّ اصطباح، فهم بين صَبُوح وغبُوق[2] وبين رَيْحانٍ وراح، قلوبُهم في قالَبِ الابتلاء تنادي

(١) انظر «الحلية» ١٠/٣٦٦، و«تاريخ بغداد» ١٢/٣٠.
(٢) الصَّبُوح: ما يشرب أول النهار، والغبوق: ما يشرب بالعَشيِّ.

بلسان تَصَبُّرِهم: لا بَرَاح. خلع عليهم خُلعَةَ الرِّضا، وأجلسَهُم بين أفراحٍ مِنَ الشَّوق وافتِراح. نظرُوا إلى الكون، فما رأوا سواه، فليس عليهم في هيمانهم جُناح. غَشِيَ بصائِرَهم نورُ معرفته، فترنَّم عارفُهم بألسنةٍ مِنَ التَّوحيد، فصاح.

وأنشدوا:

يا أعز النَّاسِ عندي كيفَ حتَّى خُنتَ عهدي
سوفَ أشكو لَكَ حالي فَعَسى شكوايَ تُجدي
أنتَ مولاي تراني ودُموعي فوقَ خدِّي
أقطعُ اللَّيلَ أُقاسي ما أُقاسي فيه وَحْدي

قال ذو النون المصري رضي الله عنه: عطشتُ في بعض أسفاري عطشاً شديداً، فعدلت إلى بعضِ السَّواحل أُريدُ الماءَ، فإذا أنا بشخصٍ قد ائتزرَ بالحياء والإحسان، وتدرَّع بدراع البكاء والأحزان، قائم على ساحل البحر يصلّي، فلمّا سلَّم، دنوتُ منه، وسلمت عليه، فقال: وعليك السَّلامُ يا ذا النون.

قال: فقلتُ له: يرحمُكَ اللَّهُ، مِنْ أينَ عرفتني؟!.

قال: اطَّلعَ شُعاعُ أنوارِ المعرفة مِنْ قلبي على صفاءِ نُورِ المحبَّةِ مِنْ قلبك، فعرَفَتْ رُوحي رُوحَكَ بحقائقِ الأسرارِ، وألِفَ سرِّي سرَّك في محبَّةِ العَزيزِ الجَبَّار.

قال: فقلت: ما أراك إلَّا وحيداً!.

قال: ما الأُنسُ بغيرِ الله إلا وحشةٌ، وما التَّوكُّلُ بغيره إلَّا ذُلُّ.

فقلت له: أما تنظُر إلى تغطغطِ هٰذا البحرِ، وتلاطُم هٰذه الأمواج؟.

فقال: ما بك مَنِ العطش أكثرُ مِنْ ذٰلك.

فقلت: نعم، فدَلَّني على الماءِ بقرب منه، فشربت، ورجعتُ إليه، فوجدته يبكي بشهيقٍ وزفير.

فقلت له: يرحمُك الله، ما يبكيك؟!.

فقال: يا أَبا الفيض، إنَّ للَّهِ عباداً سقاهم بكأسِ محبَّتهِ شَربةً أذهبت عنهم لذَّةَ الكَرى.

قال: فقلت له: دُلَّني على أهلِ ولاية اللَّهِ يرحمُك الله.

قال: هُمُ الَّذين أخلصوا في الخِدمَةِ، فاستخصُّوا بالولاية، وراقبوا مولاهم، ففتح لهم في نور القلوب.

قال: فقلت له: ما علامةُ المحبَّة؟

فقال: المحبُّ لله غريقٌ في بحر الحُزن إلى قرارِ التَّحيرُّ.

قال: فقلت له: ما علامةُ المعرفة؟

قال: العارفُ بالله لم يطلب مع معرفته جنَّةً، ولا يستعيذُ مِنْ نارٍ[1]، فعرفه له ولم يُعظم سواه معه

ثم شهَق شهقةً عظيمةً، فخرجَتْ روحُه، فواريتُهُ في الموضع الذي مات فيه، وانصرفت عنه، رحمه الله، ونفعنا ببركاته.

---

(١) انظر ص ٣٩ ت (١).



الفصل الثاني والعشرون

يا أخي: لا تغسِلْ أدناس الذُّنوب إلَّا بماء المدامع، لا ينجو مِنْ قَتَار المعصيـة إلَّا مَنْ يُسارع، أحضِـرْ قلبَك ساعةً، عساه بنائحـة المـوعـظة يُراجع، كم لي أتلُو عليك صُحُفَ الموعظة، وما أظُنُّك سامع.

لكن يومِ المعصية ما أنحسَه مِنْ طالِع، ويوم الطَّاعة مختارٌ وكلٌّ سعدٍ فيه طالع، أطلُب ـ ويحكَ ـ رِفاقَ التِّائبين، وجدِّد رسائلَك للحبيب وطالِعْ، مصباحُ التَّقوى يدُلّ على الجادَّةِ، وكم في ظُلمةِ الغَفلة مِنْ قاطِع، ابكِ ـ ويحك ـ على مَوْتِ قلبِك وعَمَى بصيرتِك، وكثرةِ الموانع. إذا لم يَعِظْكَ الدَّهرُ والشَّيبُ والضَّعفُ، فما أنت صانِع، فباللَّهِ يا إخواني بادِرُوا بالمتَابِ، وراجعوا أنفسكم قبل يومِ الحساب.

مـا اعتـذاري وأمـرُ رَبيِّ عصيتُ   حينَ تُبـدي صحـائِفي مـا أتيتُ
مـا اعتـذاري إذا وقفتُ ذليـلاً   قـد نهـاني مـا أرانـي انتـهيتُ
يـا غنيَّـاً عَـنِ العبـادِ جميعـاً   وعَليمـاً بكـلٍّ مـا قـد سعيتُ
لـيس لي حـجَّـةٌ ولا لـي عـذْرٌ   فـاعفُ عن زلَّتي ومـا قـد جنَيْتُ

قال علي بن يحيى في كتاب «لوامع أنوار القلوب»: صحبتُ شيخاً مِنْ عسقلان سريعَ الدَّمعة، حسنَ الخدمة، كامل الأدب، متهجّداً بـاللَّيل متنسِّكاً في النَّهار، وكنتُ أسمعُ أكثرَ دُعائه الاعتـذارِ والاستغفار، فدخل يوماً في بعض كهُوف جبل اللُّكَّام وغِيرانِه، فلما أمسى رأيتُ أهلَ الجبال،

وأصحابَ الصَّوامعِ يُهرولُون إليه، ويتبرَّكون بُدعائه، فلمَّا أصبحَ وعزَم على الخُروج، قام أحدُهم، وقال: عِظني، فقال: عليك بالاعتذارِ، فإنه إن قبِلَ عذرك وفُزتَ بالمغفرة، سَلَك بك إلى درجات المقامات، فوجدتها أمانيك، ثمَّ بكى وشهَقَ وخرج مِنَ الموضعِ، فلم يلبث إلاَّ قليلاً حتَّى مات.

قال: فرأيتُه في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: حبيبي أكرمُ مِنْ أن يَعتذِرَ إليه مذنبٌ، فيخيِّب ظنَّه ولم يقبل عذرَه. قبِلَ اللَّهُ عذري، وغفرَ ذنبي، وشفَّعني في أصحاب اللُّكَّام.

لا شيءَ أعظم مِنْ ذنبي سِوى أمَلي ... في حُسْنِ عفوِكَ عَنْ جُرمي وعَنْ عملي
فإن يكن ذا وذا فالذَّنبُ قد عَظُما ... فأنتَ أعظمُ مِنْ ذنبي ومِنْ زللي

ويروى عن يوسف بن عاصم أنه ذُكِرَ له عن حاتمٍ الأصمِّ أنَّه كان يتكلَّم على النَّاس في الزهد، والإخلاص، فقال يوسف لأصحابه: اذهُبوا بنا إليه نسألُه عَنْ صلاته إن كان يُكملها، وإن لم يكن يكمِلُها، نهيناه عَنْ ذٰلك.

قال: فأتَوْهُ، وقال له يوسف: يا حاتمُ، جِئنا نسألُك عَنْ صلاتك، فقال له حاتمٌ: عن أيِّ شيء تسألُني عافاك الله؟ عن معرفِتها، أو عن تأديتها؟

فالتفت يوسفُ إلى أصحابه، وقال لهم: زادنا حاتمٌ مالم نُحسِنْ أنْ نسألَه عنه. ثم قال لحاتم: نبدأ بتأديتها.

فقال لهم: تقوم بالأمر. وتقفُ بالاحتساب وتدخُلُ بالسُّنَّة، وتكبِّرُ بالتَّعظيم، وتقرأ بالترتيل، وتركعُ بالخُشوع، وتسجُد بالخضوع، وترفعُ بالسَّكينة، وتتشَهَّدُ بالإخلاص، وتسلِّمُ بالرَّحمة.

قال يوسف: هذا التأديبُ، فما المعرفة؟

قال: إذا قُمت إليها، فاعلم أنَّ اللَّهَ مُقبلٌ عليك، فأَقْبِلْ على مَنْ هو مُقبِلٌ عليك، واعلم بـأنَّ جهةَ التَّصـديقِ لقلبك، أنَّـه قريبٌ منـك، قادرٌ عليك، فإذا ركعتَ: فلا تُؤَمِّل أن ترفَعَ، وإذا رفعت، فلا تؤمِّلْ أن تَسْجُدَ، وإذا سجـدت فلا تؤمِّـل أن تقوم. ومَثِّـلِ الجنَّةَ عن يمنيـك، والنَّارَ عن يسارِكَ، والصِّراطَ تحت قدميك، فإذا فعلت، فأنت مُصَلٍّ.

فالتفت يوسفُ إلى أصحابه، وقال: قومُوا نُعيدُ الصَّلاةَ التي مضت مِنْ أعمارنا[1].

يا مَنْ مات قلبُه، أيُّ شيءٍ تنفع حياة البدن إذا لم تُفَرِّقْ بينَ القبيح والحسن. سلبَك المشيبُ مِنَ الشَّباب، فأين البكاءُ، وأين الحزن؟ إذا كان القلبُ خراباً مِنَ التقوى، فما ينفع البكاءُ في الدِّمَن. ياقتيلَ الهجران، هٰذا أوانُ الصُّلْحِ بادِرْ عسى يزُول الحزن.

وقال عاصم بن محمـد في كتاب «لـوامع أنـوار القلوب»: كان لي معامل يهوديٌّ، فرأيته بمكة متضرِّعاً مبتهلاً فأعجبني حسنُ إسلامه. فسألته عن سبب إسلامه.

فقال: تقدَّمتُ إلى أبي إسحاق إبراهيم الآجُرِّيِّ النَّيسابـوريِّ، وهو يوقِدُ في تنورِ الآجُرِّ، أطلب ديناً كان لي عليه، فقال لي: أسلم، واحذر ناراً وقـودها النَّاس والحجارةُ، فقلت: لا بأس عليك يا أبا إسحاق، فأنت أيضاً فيها. قال: فعسى تعني قوله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] الآية، فقلت: نعم. فقال لي: أعطني ثوبَك، فأعطيتُه إياه، ثم لفَّ ثوبي في ثوبـه، ثم رمى بهما في التَّنُّـور، وصبر سـاعةً طـويلةً، ثم قام واجداً، شاهقاً، باكياً ودخل في الأتون، يعني مستوقَدَ النَّار وهي تتأجَّجُ لهيباً

---

(١) انظر «حلية الأولياء» ٨/٧٤.

وزفيراً، وأخذ الثياب من وسط النَّار، وخرج على الباب الآخر، فهالني ذٰلك من فعله، فهرولت إليه متعجِّباً، وإذا بالرُّزمة صحيحة كما كانت، فحلَّها، فإذا بثيابي قد احترقت كأنها فحمةٌ في وسط ثيابه، وثيابه صحيحة لم تمسها النَّار.

ثم قال: يا مسكين، هٰكذا يكون ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١].

فأسلمتُ على يديه في الحال، وهذا ما رأيت من أحوال الرجال[١].

لله دَرُّ أقوام ملأ قلُوبَهم بأنوارِ الحكمةِ والرَّشاد، حرَّك ساكن وجدهم، فتمايلهم كالغُصن الميَّاد، صفت زُجاجَةُ أرواحهم ورقَّ لهم شرابُ وَجْدِهم، وطابَ لهم سماعُ الإنشاد.

أدار عليهم حميا الحماية، فألِفَتْ عيونُهمُ السُّهادَ، فمنهم سكرانُ ونشوانٌ، وكلُّ أيَّامهم بمحبوبهم أعياد.

مدَّ عليهم أطناب ليل الخلوة غيرة مِنْ رقيبِ الرُّقاد، فهم يتشاكُون الأشواق بنفس تَلِفٍ في محبته أو كاد.

والمحروم نهارُه في الشَّقاءِ وليلُه في النَّومِ، وعمرُه في نَفَاد ركب مركب القضاء للمحنة، ففي أصل تركيبه فساد. ضيَّع أيامَه في الغفلة، وفي الكبر يبكي على فائتٍ لا يُعاد.

فيا معشرَ المذنبين جُدُّوا قبلَ الرَّحيل عَنِ الأجساد.

قال يوسفُ بن الحسن: كنتُ أسيرُ في طريق الشَّام، إذ عرض لي

---

(١) انظر تاريخ بغداد ٢١٢/٦، و«حلية الأولياء» ٢٢٣/١٠، و«صفة الصفوة» ٤٣٤/٤.

عـارضٌ، فعدلت عَنِ الـطَّريق، فهالتني المفـازة[1]، فبدَتْ لي صـومعةٌ، فدنوتُ منها، وإذا براهب فيها قد أخرج رأسَه منها، فأنِستُ به، فلَّما دنوتُ منه، قال لي: يا هٰذا، أتريد موضع صاحبكم؟

قلت: ومَنْ صاحبُنا؟

قال: رجلٌ في هٰذا الوادي على دينكم، متخلٍّ عَنْ فتنة الأقران، منفردٌ بنفسه في ذٰلك المكان، واشوقاه إلى حديثه!.

فقلت له: وما الذي يمنُعك عنه، وأنت على قرْبٍ منه؟

فقال: أصحابي أقعدوني في هٰذا الموضع، وأنا أخشى على نفسي القتل منهم، ولكن إذا مضيتَ إليه، فـأقْرِه منِّي السَّـلامَ، واسألـه لي في الدُّعاء.

قال: فمضيت إليه وإذا برجلٍ قدِ اجتمعت إليه الوحوش، فلمَّا رآني قرب مني وكنت أسمع جلبةً عظيمة للقوم، ولا أرى أحداً منهم، فسمعت قائلاً يقول: مَنْ هٰذا البطَّالُ الذي وطىءَ محلَّ العاملين؟

فرأيت رجلاً منكِّسـاً رأسه مسترسِلاً في كـلامه، تعلُوه هيبـةٌ ووقار شـديد. فسمعتـه يقول: لـك الحمدُ على مـا وهبتَ لي مِنْ معـرفتِـكَ، وخَصَصْتَني به مِنْ محبَّتك، لك الحمدُ على آلائِك، وعلى جميع بلائِك. اللهمَّ ارفَع درجتي إلى درجات الأبرار للرِّضا بحكمك، وانقُلني إلى درجة الأخيار.

ثمَّ صاح صيحةً عـظيمة، ثم قـال: آهٍ، مَنْ لي بهم، وخرَّ مغشيـاً عليه، فلم يتحرَّك لساني هيبةً له، فلما أفـاق مِنْ غشيته، قال لي: سِرْ، زوَّدك اللَّهُ التقوى، وسارَ عنِّي وتركني.

نفعنا الله به، وبأمثاله. . . آمين.

---

(١) المفازة: الصحراء.



الفصل الثالث والعشرون

يامَنْ سوَّفَ بالمتاب حتَّى شاب، يا مَنْ ضيَّعَ في الغفلة أيَّام الشَّباب، يا مطروداً بذنوبه عَنِ الباب، إذا كنتَ في الشَّباب غافلًا، وفي المشيب مُسَوِّفَاً، متى تقف بالباب؟ كم عوملت على الوفاء؟ ما هٰكذا فِعْلُ الأحباب، الظَّاهرُ منكَ عامر، والباطن ـ ويحك ـ خراب، كم عِصيانْ، كم مخالفة، كم رياء، كم حجاب؟ ولَّى طيبُ العمر في الخطايا، يا ترى متى تعودُ إلى الصَّواب؟.

ما بعد الشَّيب لهوٌ، كيف يجمُل بالشَّيخ التَّصَاب؟ أنت لو قدَّمت في متقادم عمرك الطَّاعة، لخُفِّفَ عنكَ الحساب. كيف والعمر ولَّى في الغفلة وفي طلب الأسباب؟ إذا أنذرك المشيبُ بالرِّحلةِ، ولم تقدِّمِ الزَّاد ماذا يكون الجواب.

ليت شعري أهل المعاصي كيف عيشهم يطيب ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١].

يُروى أنَّ محمد بن واسع رأى شباباً في المسجد، وقد خاضُوا في بحر الغيبة والضَّلالة، فقال لهم: أيجمُل بأحدكم أن يكون له حبيبٌ، فيخالفه ليفوز به غيره؟ فقالوا: لا. فقال: أنتم قعودٌ في بيت الله تخالفون أمره، وتغتابون النَّاسَ. فقالوا: قد تُبنا. فقال: يا أولادي، هو ربُّكم وحبيبُكم، وإذا عصيتمُوه، وأطاعه غيرُكم، خسرتموه. وربحه غيركم. أفلا يضرُّكم ذلك؟ قالوا: نعم. فقال: وَمْنَ خالفه، وربما عاقبه لو عاقبه، أفلا

تغيرون على شبابكم كيف يعاقَبُ بالنَّار والعذاب وغيُركم يفوزُ بالجَنَّة والثَّواب. قالوا: نعم. وحَسُنَ رجوعُهم إلى الله تعالى.

وأنشدوا:

ألا فاسلُك إلى المولى سبيلا ولا تَطْلُبْ سِوى التَّقوى دليلا

وَسِر فِيها بجِدٍّ وانتهاضٍ تَجِدْ فيها المنَى عَرْضًا وطُولا

ولا تركَنْ إلى الدُّنْيَا وعَوِّلْ على مولاك واجْعَلْهُ وكيلا

وإن أحببتَ أنْ تعتزَّ عِزّا يدومُ فكُنْ له عبداً ذَليلا

وواصل مَنْ أنابَ إليه واقطَع وِصَالَ المسرفين تكُنْ نَبيلا

ولا تفني شبابَك واغتَنِمْهُ ومَثِّلْ بَيْنَ عينيك الرَّحيلا

ولا تَصِلِ الدُّنَا واهجُر بنيها على طبقاتِهم هجراً جميلا

وعامِلْ فيهمُ المولى بصدْقٍ يضعْ لكَ في قلوبِهمُ القبُولا

ومن كتاب «أنس المريدين وقدوة الزاهدين»: قال يزيد بن الحباب: مررت بحمدونه المجنونة وهي قاعدة على قارِعَةِ الطَّريق وعليها جُبَّةُ صوف مكتوب بين كتفيها، بمداد هذا البيت المفرد:

سَلَبَ الرُّقادُ عن الجفون تشوُّقي فمتى اللِّقَا يا وارِثَ الأمواتِ

قال: فسلَّمتُ عليها، فردّتِ السَّلام، فقالت: ألستَ أنتَ يزيد بن الحباب؟ قلت لها: نعم، فبم عرفتيني؟! قالت: اتَّصلتِ المعرفةُ في الأسرار، فعرفتُك بتعريفِ الملك الجبَّار، ثم قالت: أسألك. قلت: اسألي. قالت: ما هو السَّخاءُ؟ قلت: البذلُ والعطاءُ. قالت: هذا هو السَّخاءُ في الدُّنيا، وما هو السَّخّاء في الدِّين؟ قلت لها: المسارَعةُ إلى طاعة المولى. قالت: نريد منه خيراً. قلت: نعم، بالواحدة عشرة أمثالها. قالت: يا يزيد. آه آه، ليس هٰذا مسارعةً، إنَّما المسارَعةُ إلى طاعة الله أن لا يطَّلِعَ على قلبك وأنت تريدُ منه شيئاً بشيءٍ، ثم أنشأت تقول هٰذين البيتين.

حَسْبُ المحبِّ مِنَ الحبيب بعلمه ... أن المحبَّ ببابه مطروحُ
فإذا تقلَّبَ في الدُّنا ففؤادُه ... بسهامِ لوعات الهوى مجروحُ

ويروى عن الحسن البصري رضي الله عنه أنه قرأ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، فقال: هذه موعظة وعظَ الله بها المسلمين، وذلك أنَّ الحُورَ العين تقول لولي الله، وهو متكىءٌ على نهر العسل وهي تعطيه الكأس، وهما في نعيم وسرور: أتدري يا حبيبَ الله متى زوَّجنيكَ الله ربِّي؟ فيقول: لا أدري. فتقول: نظر إليك في يومٍ صائفٍ بعيد ما بين الطَّرفين وأنت في ظمأ الهواجر، فباهى بك الملائكة، وقال: انظروا يا ملائكتي إلى عبدي، تركَ شهوتَه، ولذَّته، وزوجته، وطعامه، وشرابَه، رغبةً فيما عندي، أشهدُكم أنِّي قد غفرت له، فغفر لك يومئذٍ، وزوَّجنيك.

لله دَرُّ أقوامٍ لاطفهُم بأنْسِه، فتقرَّبُوا إليه بقلبٍ سليم، أذاقهم حلاوةَ مناجاته، فكلٌّ منهم بحبِّه يهيم، أسكَنَ قلوبَهم حبَّه، فليلُهم بالأشواق ليلُ سليم، طهَّرها مِنَ الهوى، فحبُّ الدُّنيا عنها راحل، وحب الآخرة مقيم على كل حال لا يعرفون سواه، فأهلاً به مِنْ تنعُّمٍ، وأهلاً به مِنْ نعيم.

للصَّالحين كراماتٌ وأسرار ... لهم مِنَ الله تخصيصٌ وآثار
صَفَتْ قلوبهم للَّهِ واتَّصَفَت ... بالصِّدق واكتنفت بالنّور أنوارُ
واستغرَقَتْ كلَّ وقتٍ مِنْ زمانهمُ ... في طاعةِ اللَّهِ أورادٌ وأذكارُ
صاموا النَّهار وقاموا اللَّيل ما سئِموا ... حتى تعرَّتْ على الظَّلماءِ أسحارُ
خَلَوْ به ورواق اللَّيل منسدلٌ ... حتى لهم قد تجلَّت منه أنوار
طوبى لهم، فلقد طابت حَياتُهُمُ ... وشُرِّفَتْ لهم في النَّاس أقدارُ
فازوا مِنَ الله بالزُّلفى وأسكنهم ... جنَّاتِ عدنٍ فنعمَ الدَّارُ والجارُ

يـروى عن إبراهيم بن أدهم رضي الله عنـه أنه كـان على بعض جبـال مكـة يحدِّثُ أصحابه، فقال: لو أنَّ ولياً مَنْ أولياء الله تعالى قالَ لهٰذا الجبل: زُلْ، لزال، فتحرك الجبل، فضربه إبراهيم برجله، وقال له اسكن، إنَّما ضربتُكَ مثلاً لأصحابي[1].

ورُوي عنـه أيضاً أنَّـه ركب البحرَ، فتحـرَّك ريحٌ عـاصِفٌ، فوضـع إبراهيمُ رأسه ونام، فقال أصحابه: أما ترى ما نحنُ فيه مِنَ الشِّدَّة. فقال: أوَ هٰذه شدة؟! قالوا: نعم. قال: لا، وإنَّما الشِّدَّةُ الحاجةُ للنَّاس، ثم قال: إلٰهي، أريتَنا قُدْرَتَك، فأرِنَا عفوَكَ. فصار البحرُ كأنَّه قَدَحُ زيتٍ[2].

وعنه أيضاً أنه كان في بعض الطرق مع أصحابه، فتعرَّض لهم أسدٌ، فقال له أصحابه: يا إبراهيمُ، هٰذا السَّبُعُ قد ظهر لنا، فقال: أرونيه، فلمَّا نظر إليه إبراهيم، قال: يا قَسْوَرَةُ، إنْ كنتَ أُمِرْتَ فينا بشيء، فامض لما أُمرتَ به، وإلاّ، فتنحَّ عنَّا.

قال: فضرب الأسدُ بذَنَبه، وولى هارباً، فتعجبنا منه حين فَقه كلامَ إبراهيم، رضي الله عنه، ونفعنا به[3].

---

(١) «الحلية» ٨/٤.
(٢) نفسه ٨/٥ ، ٦.
(٣) نفسه ٨/٤، ٥.



الفصل الرابع والعشرون

يا راحلاً بلا زاد والسَّفرُ بعيد، العين جامدةٌ والقلبُ أقسى مِنَ الحديد. مَنْ أولى منك بالضَّرَّاء وأنت تغرَقُ في بحر المعاصي في كلِّ يوم جديد. ما أيقظَكَ الشَّبابُ، ولا أنذرك الاكتهالُ، ولا نهاكَ المشيب، ما أرى صلاحَك إلا بعيد، فديت أهل العزائم، لقد نالُوا مِنَ الفضل المزيد، طَوَوْا فراشَ النَّوم، فلهم بكاءٌ وتعديد، دموعُهم تجري على خدودهم، خدَّدت في الخدود أيَّ تخديد، ما أنت مِنْ أهل المحبَّة، ولا مِنَ العُشَّاق يا قليلَ الهمَّة يا طريد.

لأمرٍ ما تغيَّرتِ اللَّيالي ... وأنت على البَطالَةِ لا تُبالي
تبيتُ منَعّماً في خفضِ عيش ... وتُصبِحُ في هواك رخيَّ بالي
ألم ترَ أن أثقالَ الخطايا ... على كتفيْكَ أمثالَ الجبالِ
أتكسِبُ ما اكتسبت ولا تُبالي ... فهل هو مِنْ حرامٍ أو حلالِ
إذا ما كنتَ في الدُّنيا بصيرا ... كففْتَ النَّفسَ عَنْ طُرقِ الضَّلالِ
ألا بأبي خليلٌ بات يُحيي ... طويلَ اللَّيل بالسَّبع الطِّوالِ[1]
بقلبٍ لا يفيقُ عَنِ اضطرابٍ ... وجَفْنٍ لا يكُفُّ عَنِ انهمالِ
أرى الأيَّامَ تنقُلُنا وشيكاً ... إلى الأجداثِ حالاً بعدَ حالِ

---

(١) السبع الطوال: هي سور: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال، واختلف في الأخيرة: هل هي مفردة، أم مع التوبة أم هي سورة يس.

سأقنعُ ما حييتُ بشطْرِ بُرٍّ أُشيِّعُه بريٍّ مِنْ زُلالِ
إذا كان المصيرُ إلى هلاكٍ فما لي والتَّنعُّمُ ثمَّ ما لي
أما لي عِبْرةٌ فيمن تفانى على الأيام مِنْ عمٍّ وخالِ
كأنَّ بِنْسوتي قد قُمْنَ خلفي ونعشي فوقَ أعناقِ الرِّجالِ
يعجِّلْنَ المسيرَ ولستُ أدري لدارِ الفوزِ أم دارِ النّكالِ
يبيدُ الكُلّ مِنَّا دون شكٍّ ويبقى اللَّهُ ربِّي ذو الجلالِ

يُروى عن رجل مِنْ أصحاب داودَ الطَّائي أنَّه قال: دخلتُ على داود، فقال لي: ما حاجتُك؟ قلت: زيارتُكَ، فقال: أمَّا أنت، فقد عملتَ خيراً حينَ زُرتَنا، ولكن انظر ماذا ينزل بي أذا قيل لي: من أنت فتُزار، أمِنَ العُبَّادِ أنت؟ لا والله. أمِنَ الزُّهَّاد أنتَ؟ لا واللَّهِ، ثم أقبل يوبِّخُ نفسَه، ويقول: كنت في الشَّباب فاسقاً، وفي الكهولة مُداهناً، فلما شِخْتُ، صرت مرائياً. لا والله إلا المرائي أشرُّ مِنَ الفاسق، وجعل يقول: يا إلٰه السَّموات والأرض، هَبْ لي رحمةً مِنْ عندِكَ تُصْلحُ شبابي، وتقيني مِنْ كلِّ سوءٍ، وتُعلي في أعلى مقامات الصَّالحين مكاني.

اسمع يا أخي مقامات الرِّجال، وكراماتِ ذوي الأحوال، الَّذين اختصَّهم مولاهم وحَبَاهُم بالإفضال.

وعن عبد الله بن عبد الرحمٰن، قال: حجَّ سفيانُ الثَّوريُّ مع شيبان الرَّاعي، فعرض لهم أسدٌ في بعض الطرق، فقال له سفيان: أما ترى هٰذا الأسد كيف قطع علينا الطَّريقَ، وأخاف الناس. قال شيبان: لا تَخَفْ، فلمَّا سمع الأسدُ كلامَ شيبان، بصْبَصَ إليه، وأخذ شيبانُ بأُذنِه، ففركها، فبصبص، وحرك ذَنَبه، وولىَّ هارباً، فقالَ سفيانُ: ما هٰذه الشُّهرة يا شيبانُ؟ قال: أو هٰذه شهرةٌ يا سفيان؟ لولا مكانُ الشُهرةِ، لوضعتُ زادي على ظهره حتىَّ آتي مكَّةَ[1].

(١) «صفة الصفوة» ٣٧٧/٤.

يُروى عن عبد الرحمٰن بن أبي عبادٍ المكِّي أنَّه قال: قَدِمَ علينا شيخٌ يكنى بأبي عبد الله. قال: أقبلت في السَّحَرِ إلى بئر زمزم، وإذا بشيخ قد سدَل ثوبه على وجهه، وأتى البئر واستقى، قال: فقمت إلى فضلتِه، فشربتُ منها. فإذا هو ماءٌ مضروبٌ بعسلٍ، لم أذُقْ ماءً قطُّ أطيبَ منه. فالتفتُّ وإذا بالشيخ قد ذهب، فلما كان في السَّحَر في الليلة الثانية أتيت البئر وإذا بالشَّيخِ دخلَ مِنْ باب المسجد قد سدَلَ ثوبَه على وجهه، فأتى البئر واستقى، فشرب وخرج، فقمت إلى فضلتِه، فإذا هو سَوِيقٌ ألذُّ ما يكونُ، فلمَّا كانَ في اللَّيلةِ الثَّالثة، أتى البئر أيضاً، واستسقى. فأخذت طرف مِلحَفَتِه، ولففتُه على يدي، ثمَّ شربتُ فضلتَه، فإذا هو لبنٌ مضروبٌ بسكّرٍ لم أذق قطُّ أطيبَ منه، فقلت: يا شيخُ، بحقّ هذا البيتِ عليك[1]، من أنت؟ قال: تكتُم عليَّ. قلت: نعم. قال: أنا سفيان الثوري[2].

لله دَرُّ أقوامٍ أفناهم شهودُه عن وجودهم، فحالُهم لشوقه مستديم، أقطعهم إقليم الكرى ما أبعدَهُ مِنْ أقليم، حماهُم عَنِ الأغيار غيرةً عليهم، وخلع عليهم حُلَلَ الرِّضا والتَّسليم، سقاهم مُدامَ الإلهام، فيالَهُ مِنْ مُدام، وياله مِنْ نديم، أسبلَ على العاصي سِترهَ، ليعودَ إلى بابه الكريم، تقرَّب برحمته للمُـذنبين، ليسكن رُوعَ المفلس مِنَ الطّاعة العديم، أرسل إليه رسالةَ اللُّطف على يدي رسولٍ كريمٍ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) انظر ص ٤٨ ت (١).

(٢) الحكاية في «الرقة والبكاء» لابن قدامة ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

وأنشدوا:

ألا قِفْ ببابِ الجُودِ واقرَعْهُ نـادماً تَجِـدْهُ متى ما جئتَـه غيـرَ مُـرتَـجِ
وقـل: عبد سـوءٍ خـوَّفَتْـهُ ذنـوبُـه فمَـدَّ إليكُم ضارعـاً كفَّ مُـرْتجي

ويروى عن أبي ريحانة صاحب رسول الله ﷺ أنَّه ركبَ البحر، فكان يخيطُ في السَّفينة، فسقطت إبرتُه، فقال: أعزِمُ عليك ياربِّ إلاَّ رددت عليّ إبرتي، فظهرت له حتى أخذها بيده[١].

قال: واشّتدَّ عليهمُ البحرُ، فقالَ له: اسكُن، إنَّما أنتَ عبدٌ حبشيٌّ، فسكن حتى صارَ مَثلَ الزَّيت، رضي الله عنه، ونفعنا ببركاته.

(١) انظر «الإصابة» ٢/١٥٧.



يا أخي، أفنيتَ عمرك في اللَّعب، وغيرُك فاز بالمقصود وأنت منه بعيد، غيرك على الجادَّة، وأنت مِنَ الشَّهوات في أوجال وتنكيد، تُرى متى يُقال: فلان استقال ورجع. يا لَهُ مِنْ وقتٍ سعيد، متى تخرج مِنَ الهوى وترجِع إلى مولاك العزيز الحميد، يا مسكين، لو عاينت قلق التائبين، وتملْمُلَ الخائفين مِنْ هولِ الوعيد، جعلوا قُرَّةَ أعينهم في الصَّلاة، والزَّكاة، والتزَّهيد، وأهل الحِرمان ضيّعُوا الشبَّابَ في الغفلةِ، والشَّيبَ في الحرص والأمل المديد، لا بالشَّبابِ انتفعتَ، ولا عندَ المشيبِ ارتجعت، يا ضيعةَ الشَّباب والمشيب. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١].

وأنشدوا:

عملتُ على القبائحِ في شبابي ... فَلَمَّا شِبْتُ عُدتُ إلى الرِّياءِ

فلا حينَ الشَّبابِ حَفِظتُ ديني ... ولا حينَ المشيبِ طَبَبْتُ دائي

فشابٌ عند مَصغرِهِ غَوِيٌّ ... وشيخٌ عِنْدَ مكبره مُرائي

قضاءٌ سابقٌ في علمِ غَيْبٍ ... فيا للَّهِ مِنْ سوءِ القضاءِ

يُروى في بعض الأخبار أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه لقي حذيفةَ بن اليمان وهو يومئذٍ أمير المؤمنين، فقال لحذيفة: كيف أصبحتَ يا حذيفة؟ قال: أصبحتُ يا أميرَ المؤمنين أُحبُّ الفتنةَ، وأكره الحَقّ، وأقول

بما لم يُخلَق، وأشهدُ بما لم أرَ، وأصلي بلا وُضوءٍ، ولي في الأرض ما ليس لله في السَّماءِ.

فغضب عمرُ لذلك غضباً شديداً، وهمَّ أن يبطشَ به، ثم تذكَّر صُحبَتَهُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، فأمسك، فهو كذلك إذ مرَّ به عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فرأى الغضبَ في وجهه، فقال ما أغضبكَ يا أميرَ المؤمنين، فقصَّ عليه القصَّةَ.

فقال: يا أمير المؤمنين لا يغضبك ذلك، أمَّا قولُه: إنَّه يحبُّ الفتنةَ، فهو تأويلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

وأمَّا قولُه: يكرهُ الحقَّ، فالحقُّ هو الموتُ الذي لا بُدَّ منه، ولا محيصَ عنه.

وأما قوله: يقول بما لم يُخلق: القرآن، فهو يقرأُ القرآن وهو غيرُ مخلوقٍ.

وأما قوله: يشهدُ بما لم يرَ، فإنَّه يصدق بالله ولم يره.

وأما قوله: يصلِّي بغير وضوءٍ، فإنه يصلِّي على النَّبيِّ ﷺ بغير وضوء.

وأما قوله: إنَّ له في الأرض ما ليس لله في السَّماء، فإنَّ له زوجةً وبنينَ، وليس لله شيء مِنْ ذلك .

فقال عمر: لله دَرُّكَ يا أبا الحسن، لقد كشفتَ عنِّي همَّاً عظيماً،

وروي أن رجلاً من أهل دمشق يسمى بأبي عبد ربه، وكان أكثرَ أهل دمشقٍ مالاً، وأنَّه خرج مسافراً، فأمسى إلى جانب نهرٍ ومرعى، فنزل فيه، فسمع صوتاً يُكثِرُ حمدَ اللَّهِ في ناحية المَرْج . قال: فاتَّبعتُه، فوجدته

رجلاً ملفوفاً في حصيرٍ، قال: فسلَّمتُ عليه وقلت له: مَنْ أنت يا عبدَ الله؟

قال: رجلٌ من المسلمين.

فقلت له: فما هذه الحالة؟

قال: نعمةٌ يجبُ عليَّ شكرها.

فقلت: كيف وأنت ملفوفٌ في حصيرٍ وأيُّ نعمةٍ عليك؟!.

قال: إنَّ الله خلقني، فأحسن خلقي، وجعل منشأي ومولِدي في الإسلام، وألبسني العافيةَ في أركاني، وستر عليَّ ما أكرهُ ذكرَهُ، فَمَنْ أعظمُ نعمةً مِمَّنْ أمسى في مِثْلِ ما أنا فيه؟

فقلت: رحمك الله، لعلَّك أن تقومَ معي إلى منزلي، فإنَّا نُزُولٌ على النّهرِ ها هنا بإزائِك.

قال: ولم؟

قلت: لتُصيبَ شيئاً مِنَ الطَّعام، ونعطيكَ ما يُغنيك عَنْ لُبس الحصير.

قال: ما لي في ذٰلك مِنْ حاجة.

فأبى أن يسيرَ معي، فانصرفتُ وقد تقاصَرَتْ عندي نفسي ومقتُّها، وقلت: لم أُخَلِّفْ بدمشق رجلاً أكثرَ منِّي مالاً، وأنا التمِسُ الزِّيادة، فقلت: اللهُمَّ إنِّي أتوبُ إليك مَّما أنا فيه، فتُبتُ ولم يعلم أحدٌ بما أجمعتُ عليه، فلما كان في السَّحَرِ، رحل النَّاسُ، وقَدَّمُوا إليَّ دابَّتي، فصرفتُها إلى دمشق، وقلت: ما أنا بصادقٍ في التَّوبة إن أنا مضيتُ إلى متجري، فسألني القومُ فأخبرتهم، فعاتبُوني على المشي معهم، فأبيتُ.

فلمَّا قدم على دمشق قال ناقل الحديث: فوضع يده في ماله وتصدق به، وفرَّقه في سبيل الله، ولَزِمَ العبادة حتَّى تُوفي رضي الله عنه، فلمَّا تُوفي

لم يُوجد عندَه إلاَّ قدر حقِّ الكفن[1].

وأنشدوا:

ذكَرَ الوعيدَ فطرفُه لا يهجَعُ	وجفا الرُّقادَ فبان عنه المضْجَعُ
متفرِّداً بغليلِه يشكو الَّذي	منه الجوانِحُ والحشا يَتوجَّعُ
لما تيقَّن صِدْقَ ما جاءت به الـ	آياتُ صار إلى الإنابَةِ يُسْرِعُ
فجفا الأحِبَّةَ في مَحَبَّةِ رَبِّهِ	وسما إليه بِهِمَّةٍ ما يُقْلِعُ
وتمتَّعَتْ بوِدَادِه أعضاؤُه	إذ خصَّها منه بِوُدٍّ يَنْفَعُ
كم في الظَّلام له إذا نام الوَرى	مِنْ زفرَةٍ في إثْرِها يَتَوَجَّعُ
ويقول في دَعواتِه: يا سيِّدي	العينُ يُسْعِدُها دُمُوعُ رُجَّعُ
إنِّي فَزِعْتُ إليكَ، فارْحَمْ عَبْرتي	وَإليكَ مِنْ ذُلِّ الخطيئةِ أفْزَعُ
مَنْ ذا سِواكَ يُجيرُني مِنْ زَلَّتي	يا مَنْ لِعِزَّتِه أذلُّ وأخضَعُ
فامْنُنْ عليَّ بِتَوْبَةٍ أحْيَا بها	إنِّي بَما اجْتَرَمَتْ يداي مُرَوَّعُ
قلَّ التَّصَبُّر عنكَ يا مَنْ حُبُّهُ	في الجارِحاتِ سقامُهُ يتسرَّع
كيف اصطبارُ مُتَيَّمٍ في حُبِّه	قِدْماً لكاساتِ الهَوى يَتَجرَّعُ
لاحت وعن صِدْقِ المحبَّة ما بدت	للنَّاظرينَ نُجومُ ليلٍ تَطْلُعُ
ما الفوزُ إلا في محبَّةِ سيِّده	فيها المُحِبُّ إذا تواضَع يُرْفَعُ

يروى أنَّ قتادة بن النُّعمانِ الأنصاري رضي الله عنه كان مِنَ الرُّماةِ المذكورين، شهدَ بدراً وأُحُداً، ورُمِيَتْ يومئذٍ عينُه، فسالت على خدِّه، فأتى النَّبيَّ ﷺ وهي في يده، فقال: ما هٰذا يا قتادة؟ قال: هٰذا ما ترى يارسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «إن شِئْتَ، صبرتَ ولك الجَنَّةُ، وإن شئتَ، رَدَدْتُها لك، ودعوتُ اللَّهَ لك، فلم تَفْقِدْ

---

(١) الحكاية في كتاب «التوابين» لابن قدامة ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

منها شيئاً»، فقال: و الله يا رسولَ الله إنَّ الجنَّة لجزاءٌ جزيلٌ، وعطاءٌ جليلٌ، ولكنِّي مبتلى بحُبِّ النِّساء، وأخافُ أن يَقُلْنَ: أعورُ، فلا يُرِدْنَني، ولكن أحبُّ أن تردَّها إليَّ وتسألَ الله ليَ الجَنَّةَ، فقال: «أفعلُ ذلك يا قتادةُ»، ثم أخذها رسولُ اللَّهِ ﷺ بيده، وأعادها إلى موضِعها، فعادت أحسنَ ما كانت، إلى أن ماتَ ودعا الله له بالجنَّةِ صلى الله عليه وسلم.

قال: فدخل ابنُه على عمرَ بنِ عبد العزيز رضي الله عنه، وهو خليفةٌ فقال له عمر: من أنتَ يا فتى؟ فقال:

أنـا ابنُ الَّذي سـالَتْ على الخَدِّ عينُـهُ ... فَـرُدَّتْ بِكَفِّ المَصْـطَفَى أحَسَنَ الـرَّدِّ
فعـادَتْ كمـا كـانَتْ بـأَحْسَنِ حـالهـا ... فيـا حُسْنَ مـا عَيْنٍ ويـا حُسْنَ مـا رَدِّ

فقال عمرُ: بمثْلِ هذا فليتوسَّلْ إلينا المتوسِّلُون. رضي الله عنه[1].

---

(١) انظر «الاستيعاب» ٣/٢٤٩، و«صفة الصفوة» ١/٤٦٣ ـ ٤٦٤، و«مناقب عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، و«أسد الغابة» ٤/١٥٦.



الفصل السادس والعشرون

يا هذا، لا يزالُ التَّائبون يهرُبُون إلى دَيْرِ الخَلوةِ هُرُوب الخائفِ إلى دار الأمان، لهم في سَحَر الليل تأنُّس بمدامعِ الأجفان، كتب السُّجودُ في ألواح جباهِهم خُطُوطَ العِرفان، كم لأقدامِهم في الـدُّجى من جَولان وكم لهم في وادي السَّحَرِ مِنْ عُيونٍ تجري كالطُّوفان، فإذا لاحَتْ أعلامُ الفَجْرِ كبَّروا عند مُشاهَدةِ العَيان، فَدَيْتُ طُرَّاق الدجى، فديت أرباب العزائم، فديت الفتيان.

بادِرُوا رواهبَ الخَلْوة، ها نحنُ لكم جيران، تركنا الأسباب والأهل والأوطان، فارَقْنَا شهواتِ النُّفوس والأبدان، وخرَّبنا دِيارَ اللَّهو، فأقْفَرَتْ منذُ زمان، طلَّقنا الدُّنيا بتاتاً، وهجرنا الدَّارَ والسُّكَّان، سقينا مِنْ شرابِ الأُنس شربة ولو كان ما كان، لبسوا حُلَّةَ الجُوع بالنَّهار، وتركوا خِدْمَة مَنْ جلَّ ومن هان، عَمَرُوا القُلُوبَ بـالتقوى، وبـالذِّكـرِ اللسان، لهم تـزاحُمٌ على باب الدُّجى، فمنهم صاحٍ ومنهم نَشوان، ومنهم مَنْ خامَرَه بالشَّوقِ، فهو مِنَ الحُبِّ ولهان، ومنهم مَنْ غلبَه الوَجْدُ، فهو هائمٌ سكران، أفناهُمُ الخوفُ وأذبلهم الأرقُ وهم مِنَ القلق كلَّ يوم في شأن. سيَّرهم ذكرُ الحبيبِ ولهم في التِّلاوة ألحان، نالُوا منازِلَ التَّوكُّل، وأصبحوا فيها قُطَّان، باعوا شهواتِ النُّفوس بأبخسِ الأثمان، سجَّلُوا على أنفسهم سِجِلَّ الرِّضا بالقضاء، فأهلاً بالرِّجال الشُّجعان، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ولهم تلحينٌ بـالقرآن،

خامرهمُ الخوفُ، فسكِرُوا مِنْ شرابه مخافَة النِّيران، منهم مَنْ سقي شراب المحبَّةِ صِرْفَاً، وتزايدت لهمُ الأحزان، ومنهم مَنْ مُزِجَ له بالأشواق، فعاين مِنه ألوان، كم خرَّبُوا في حُبِّه منازِلَ، وكم أيتَمُوا فيه مِنْ وِلدان. تراهم أبداً سُكارى عَرَايا في القِفار وفي البلدان. قلوبُهم مملوءةٌ بالخوف، وظاهرهم مُضَمَّخٌ بالأحزان، يُنادي لسانُ شوقهم: لا كانَ مِنْ ألم السلوى لا كان، خرق لهم حِجَابَ العادات وعقد على رؤوسهم للولاية تيجان، مجلِسُ أُنسِهم مُضَمَّخٌ بالمُشاهدة شديدُ الأركان.

يا معشر الفقراء، طوفُوا بهٰذا الدَّيْرِ، وزاحِموا على بابه، وباكروا هٰذه الدِّنان، طِيبوا على هٰذا السماع، وتواجدوا على هٰذه الألحان، معكم جمال المحبوب في الكون والحال.

يا معشر الفتيان، ما أطيبَ عيش الصِّدِّيقين، شَرِبُوا هٰذا الشَّراب وباحُوا بالكتمان، فما تراهم إلَّا بين واجدٍ وهائمٍ وخائفٍ وراجٍ وولهان.

فعندما تجلَّى لهُم محبوبهُم في قلوبهم، أغناهم عَنْ مُشاهدةِ العيان. لاطفهم بملاطفة: يا عبادي لا خوفَ عليكُم، اليومَ لكم الأمان. بعيني ما تحملتم مِنْ أجلي، فكم مِنْ جَفْنٍ ساهرٍ، وكم كبدٍ مِنَ الشَّوقِ ملآن، سأكشِفُ لكمُ الحِجَابَ عن وجهي فتتنعَّمُون بما لم يَخْطُر على قلبِ إنسان. أُلبِسُكُمْ حُلَلَ الرِّضا، وأبسط مجالسكم بالرضوان، أُسقِيكم شرابَ التَّوحيد صِرْفاً خالصاً، وأنا الحَنَّانُ المنَّان.

يا أهل السماع تواجدُوا، ويا معشرَ الإخوان، أين المشتاق؟ هٰذا الشَّرابُ، هٰذا كأسُ المتاب ملآن.

أينَ أنت مِنْ أهلِ الصَّفا يا مُضَيِّعاً عمرَه في العصيان؟ بادِرْ قبلَ تغيُّر الحال، فتعود بالخيبةِ والخُسران، واعصِ مِنْ لامَك وخالِفْ مَنْ

عذلك، وأطع من نصحك، ودع قالاً وقيلا.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١ - ٧٢].

قال(١) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: صلَّى بنا رسُول الله ﷺ صلاةَ العصرِ، فقام في الرَّكعة الأولى، حتى ظننَّا أنَّه لا يرفع رأسه، فرفعَ رأسَه، ورفعنا بعدَه، فلمَّا قُضِيَتِ الصَّلاةُ، انفتل مِنْ محرابه صلى الله عليه وسلم، وقال: «أين أخي وابنُ عمِّي علي بن أبي طالب»؟ فأجابه عليٌّ رضي الله عنه من آخرِ الصُّفوف، وهو يقول لبَّيك لبيَّكَ يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «أُدْنُ منِّي يا أبا الحسن»، فدنا منه، فلم يَزَلْ يُدنيه حتَّى جلسَ بين يديه. فقال: «يا أبا الحسن، أمَا سمعتَ ما أنزلَ اللَّهُ عليَّ في فضل الصَّفِّ الأول، والتَّكبيرةِ الأُولى؟» فقال: بلى يا رسول الله. فقال له رسول الله ﷺ: «فما الَّذي أبطأَك عَنِ الصَّفِّ الأول والتكبيرة الأولى، فهل شغلَكَ حبُّ الحسنِ والحُسين عَنْ ذٰلك؟» فقال له عليٌّ رضي الله عنه: وهل يشغَلُني حبُّهُما عَنْ حبِّ الله تعالى؟! قال له: «فما الَّذي شغلك عَنْ ذٰلك يا عليّ؟» قال: يا رسول الله، أذَّنَ بلالٌ وأنا في المسجد، فركعت ركعتين، وأقام بلالٌ الصَّلاةَ فكبَّرت معك التَّكبيرةَ الأولى، فوسوسني شيء مِنْ أمرِ الوضُوء، فخرجتُ مِنَ المسجد إلى منزلِ فاطمة رضي الله عنها، فناديتُ: يا حسنُ، يا حسينُ، فلم يُجِبْني أحدٌ، فبينما أنا كالمرأة الثَّكلى، أو كالحبَّة في المقلى، وأنا أطلُب ماءً لوضُوئي، إذ هتف بي هاتفٌ عن يميني، فإذا أنا بقدحٍ مِنَ الذَّهب الأحمر، وعليه مِنديلٌ أخضر، فكشفتُ المنديلَ، فإذا هو ماءٌ أشد بياضاً مِنَ اللبن، وأحلى مِنَ الشَّهْدِ، وألينُ مِنَ الزُّبْدِ، فتطهَّرْتُ

(١) لم أجد هذا الحديث فيما بين من المصادر، ويغلب عليه عدم الصحة.

للصَّلاة، وتمندَلْتُ بالمنديلِ، ورددتُه على القَدَح، والتفتُّ، فلم أره، ولم أرَ من وضعه، ولا مَنْ رفعه.

فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، وقال: «بخٍ بخٍ، هل تعلمُ مَنْ أتاك بالمنديلِ والقدح يا أبا الحسن؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أتاك بالقدح جبريلُ عليه السَّلام، والماءُ مِنْ حظيرة القُدُسِ، والذي مندلك بالمنديلِ ميكائيلُ عليه السَّلام، والَّذي أمسكَ يدَي على رُكبتي حتَّى أدركتَ معي الرّكعةَ الأولى إسرافيلُ عليه السلام. يا أبا الحسن، مَنْ أحبَّك، أحبَّه اللَّهُ، ومَنْ أبغضَك أبغضه اللَّهُ».

ويُروى أنَّ رسول الله ﷺ جلسَ ذاتَ يومٍ مع أصحابه، فإذا بيهودية قد أقبلت تبكي، حتى وقفت بين يديه، وجعلت تقول هٰذه الأبيات، وهي تبكي:

بأبي أَفْديك يا نُورَ الفَلَكْ — ليتَ شِعْري أيَّ شَيْءٍ قَتَلَكْ
غِبْتَ عنِّي غَيْبَةً مُوحِشَةً — أَتُرى ذِئْب يَهُودي أكَلَكْ
إنْ تكُنْ مَيتاً فما أسْرَعَ ما — كان في أَمر اللَّيالي أَجَلَكْ
أوْ تكُن حَيَّاً فَلا بُدَّ لمَنْ — عاشَ أنْ يَرْجعَ مِنَ حَيثُ سَلكْ

فقال لها رسول الله ﷺ: «مالك أيتها المرأة؟».

قالت: يا محمَّد، بينما أنا وولدي يلعبُ بين يدي، إذ خُطفَ، وبقي المكانُ منه بلقعة.

قال لها: «يا هٰذه، إن ردَّ اللَّهُ ولدَك على يدي، أتؤمنين بي؟».

قالت: نعم، وحَقّ الأنبياء الكرام؛ إبراهيم وإسحاق، ويعقوب عليهم الصلاة والسلام.

فقام رسول الله ﷺ، فصلّى ركعتين، ثم دعا بدعواتٍ، فما استكملَها حتَّى وُضِعَ الطِّفل بين يديه صلى الله عليه وسلم.

فقال له النَّبيُّ ﷺ: «أينَ كُنْتَ أيهُّا الطِّفلُ؟».

قال: بينما أنا ألعبُ بين يدي أُمِّي، إذا أقبل إليَّ عفريتٌ كافرٌ، فاختطفني، وذهب بي مِنْ وراءِ البحر، فلما دعوتَ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ، سلَّطَ اللَّهُ عليه جِنَّاً مؤمناً أشدَّ منه بطشاً، وأعظمَ خَلْقاً فانتزعني منه، وساقني إليك، فها أنا بين يديك صلى الله عليك.

فقالت المرأة: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

---

(١) لم أجده.



الفصل السابع والعشرون[1]

اعلم أنَّ الزنى مِنْ أكبر الكبائر، وهو شُؤْمٌ على صاحبه في الدُّنيا والآخرة، وَوَبالٌ على صاحبه.

وقد نهى الله تعالى عنه في مواضعَ مِنْ كتابه، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ ـ ٧].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزني الزَّاني حينَ يزني وهو مؤمن»[2]. أراد بذَلك أنَّ الزاني مُبعَدٌ عَنِ اللَّهِ تعالى، مُستَوْجِبٌ المقتَ مِنَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وفي الخبر أنَّ شابًّا أتى النبيَّ ﷺ، فقال: يارسولَ اللَّهِ، أَتأذَنُ لي في الزِّنى، فصاح النَّاس به، فقال: «اتْركوه، أدْن منِّي»، فدنا منه، فقال: «أتحبُّه لأُمِّك؟». قال: لا، جعلني اللَّهُ فداك. قال: «كذلك النَّاسُ لا يحبُّونه لأمهاتهم، ثم قال له: أتحبُّه لابنتك؟» قال: لا. قال: «كذلك النَّاسُ لا يحبُّونهُ لبناتهم». حتى ذكر الأُخت، والخالاتِ والعمّاتِ، وهو يقول: لا،

---

(١) في النسخة السعودية: فصل في الزنى.

(٢) أخرجه البخاري(٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) عن أبي هريرة، والبخاري (٦٧٨٢) عن ابن عباس.

ورسول الله ﷺ يقولُ: «كذلك النَّاسُ لا يحبُّونه»، ثم وضَع يدَه الكريمةَ على صدره، وقال: «اللَّهُمَّ طَهِّرْ قلبه، واغفِرْ ذنبه، وحصِّن فرجَه»، فلم يكُن بعد ذٰلك شيءٌ أبغضَ إليه مِنَ الزِّنى[1].

وقال رسول الله ﷺ: «لمَّا خُلِقَتِ المرأةُ، قال لها إبليس أنتِ نصفُ جُندي، وأنتِ موضِعُ سِرِّي، وأنتِ سهمي الذي أرمي به فلا أخطىء»[2]، فتحفَّظ رحمك الله مِنْ سهامِ الشَّيطان.

وقال رسول الله ﷺ: «الزِّنى مِنْ أكبر الكبائر، والزَّاني عليه لعنةُ اللَّهِ والملائكةِ والنَّاس أجمعين ألى يوم القيامة، فإنْ تابَ، تابَ اللَّهُ عليه»[3].

وقال ﷺ: «مِنْ علامة المؤمن أن يجعل اللَّهُ شهوتَه في الصَّلاة والصيام، وعلامة المنافق أن يجعلَ الله شهوتَه في بطنه وفرجِه»[4].

وقال ﷺ: «الزِّنى يُورثُ الفقرَ، ويُذهِبُ بهاءَ الوجه»[5] يقول الله تعالى: «آلَيْتُ على نفسي أَن أُفقِرَ الزَّاني ولو بعد حين»[6]. والزِّنى يَذْهَبُ بالمال، وبنُورِ الوجه، ويخلد صاحبه في النَّار.

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد ٥/٢٥٦ - ٢٥٧، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٦٧٩) و (٧٧٥٩) عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) أورده بهذا النص الغزالي في «الإحياء» ٣/٨٦، قال: وقال بعضهم...

(٣) أخرجه من حديث أبي هريرة دون قوله: «والزاني عليه لعنة الله... القيامة» أبو داود (٤٦٩٠)، وصححه الحاكم ١/٢٢، ووافقه الذهبي.

(٤) لم أجده.

(٥) أخرج الشطر الأول منه القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٦) عن ابن عمر بسند ضعيف. وانظر النص كاملاً في التعليق رقم (٢) من الصفحة التالية.

(٦) قال العجلوني في «كشف الخفاء» ١/٣٣٨: أخرج ابن عساكر من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى؛ إني قاتل القاتلين ومفقر الزناة.

قلت: ومما يدور على الألسنة: «بشر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر ولو بعد حين».
قال العجلوني: ولا صحة لها وإن كان الواقع يشهد لذلك.

وقال رسول الله ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «ما لقي اللَّهَ العبدُ بذنبٍ بعد الشرك بالله، أعظمَ مِنَ الزِّنى، ومِن امرىء يضع نطفَته في رَحِمٍ حرامٍ، وإنَّ الزَّاني يسيلُ مِنْ فرجِهِ يومَ القيامة صديدٌ لو وُضِعَتْ منه قطرةٌ على وجه الأرض، لأفسدت على أهل الدُّنيا معايِشهم نَتناً»[1]. وقال ﷺ: «إيَّاكم والزنى، فإنَّه ذَهَابُ البَهاءِ، وطولُ الفَقْرِ، وقصار العُمر، وأما اللواتي في الآخرة فسخطُ الله، وسوءُ الحساب، والخلودُ في النَّارِ»[2].

يا مَنْ عصى اللَّهَ في الشَّباب وقد ... أدركه الشيبُ راقِبِ اللَّهَ
صحفك بالسَّيِّئاتِ قد مُلِئَتْ ... بأيِّ وجهٍ تراكَ تقراها
أعدِدْ جواباً إذا سُئِلْتَ غداً ... وقَرَّبَ النَّارَ مِنْكَ مولاها
يا معشرَ المسلمين كم رَجُلٍ ... تلومُه النَّارُ حينَ يصلاها

وقال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ أغير مِن الله تعالى أن يرى عَبده أو أمته يزني، والله لو تعلمُونَ ما أعلمُ، لضحكتُم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ألا وإنَّ في النَّار لتوابيت مِنْ نارٍ فيها أقوامٌ محبوسُونَ في تلك التوابيت، فإذا سألوا الرَّاحَةَ، فُتِحتْ لهم تلك التَّوابيتُ، فإذا فُتِحَتْ، بلغ شَرَرُها أهل جهنَّم، فيستغيثُ أهلُ جهنَّم بصوتٍ واحد، ويقولون: اللَّهُمَّ العن أهل التَّوابيت، وهُم الذين يغتَصبُون فُرُوجَ النِّساء حَراماً»[3].

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وذكر في «كنز العمال» برقم (١٢٩٩٤) عن الهيثم بن مالك الطائي مرفوعاً: «ما ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له». وقال: رواه ابن أبي الدنيا قلت: وهذا مرسل.

(٢) روي الحديث بنحو هذا اللفظ عن علي وابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهم، وكلها ضعيفة انظرها في كتاب «الموضوعات» ١٠٥ ـ ١٠٨ للمصنف.

(٣) لم أجد نص الحديث مطولاً بهذا اللفظ، ورواه إلى قوله ﷺ: «ولبكيتم كثيراً» البخاري (١٠٤٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال ﷺ: «إنَّ الله لمَّا خلقَ الجنَّةَ، قال لها: تكلَّمي. قالت: سَعِدَ مَنْ دخلني، فقال الجبار جل جلالُه: وعزَّتي وجلالي، لا يسكنُ فيك ثمانيةُ نفرٍ مِنَ الناس، مدمنُ خمر، ولا مُصِرٌّ على الزِّنى، ولا نمَّامٌ، ولا دَيُّوثٌ، ولا شُرَطِيٌّ، ولا مُخَنَّثٌ، ولا قاطِعُ رَحمٍ، ولا الذي يقولُ: عليَّ عهد الله أن أفعلَ كذا وكذا ولا يفعلُه»[1].

فليس المصرُّ على الزِّنى، هو المداوِم عليه، ولا مُدمِنُ خمر هو الملازِمُ لشربه، ولكنه هو الذي إذا وجدَ الخمرَ شربها، ولم يمْنَعْهُ منها خوفُ الله تعالى، ومتى تهيأ له الزِّنى، ولم يَتُبْ مِنْ ذلك، ومن لم ينه النَّفْسَ عَنِ الهوى فإنَّ الجحيمَ هي المأوى.

وكان ابنُ عباس رضي الله عنهما يقول لغلمانِه: إن أردتُمُ النكاحَ نكحتم، أيِّ تزوَّجتم، فإن العبد إذا زنى، خرج الإيمانُ مِنْ قلبِه فلا يبقى للعبدِ إيمان[2].

وقال لقمان لابنه: يا بني، إيَّاك والزِّنى؛ فإنَّ أوله مخافة وآخره ندامة، ومَنْ بَعْدُ تلقى آثامه.

وأنشدوا:

يا مَنْ خلا بمعاصي اللَّهِ في الظُّلَمِ في اللَّوْحِ يُكتَبُ فِعْل السُّوءِ بالقَلَمِ
بهـا خَلَوْتَ وعَيْنُ اللَّهِ ناظِرَةٌ وأنتَ بالإثم منْهُ غيرُ مُكتَتِمِ
فهل أمِنْتَ مِنَ المولى عُقُوبتَه يا مَنْ عصى اللَّهَ بعدَ الشَّيبِ والهَرَمِ

واعلم أنَّ مَنْ غلبَه هواه، افتضح، فما نال الكراماتِ مَنْ نالها إلا بغلَبَةِ الهوى.

كما رُوي أنَّه كان في بني إسرائيل رجلٌ تَزوَّج امرأةً مِنْ بلدٍ آخر،

(١) ذكره الغزالي في «الإحياء» ٣/١٥٥ عن ابن عمر، وقال العراقي: لم أجده هكذا بتمامه.

(٢) انظر «مصنف ابن أبي شيبة» ٤/٤٠٤، و«مصنف عبد الرزاق» ٧/٤١٧.

فأرسلَ بثقته إليها ليسوقَها إليه، فراودته نفسُه، وطالبته بها، فزجرها، واستعصم بالله، قال: فنبَّأهُ الله تعالى بتَرْكِ هواه، وكان نبياً في بني أسرائيل.

وأنشدوا:

تـوقَّ نفسَـك لا تـأمَنْ غـوائِلَهـا فالنَّفْسُ أخبثُ مِنْ سبعينَ شيطانـا

وحكى ابنُ عباس عن كعب الأحبار رضي الله عنهما أنَّه قال: كان في بني إسرائيل صِدِّيقٌ منفردٌ للعبادة، فأقام في صومعتِه دهراً طويلاً، وكان يأتيه مَلكٌ في كلِّ يومٍ غُـدْوَةً وعشِيَّةً، فيقول له الملك: ألـك حاجـة؟ فيقول: الله أعلم بحاجتي.

وأنبت اللَّهُ له فوق الصَّومعةِ كَرْمَةً، تحملُ في كلِّ يومٍ بالعنب، وكان إذا عَطِشَ مدَّ يده، فينبُع منها الماءُ، فيشرب منه.

فلمَّا كان بعدَ مُدَّةٍ، مرَّت به امرأةٌ لها حُسْنٌ وجمالٌ، عندَ المغرب، فنادته: يا عبدَ اللَّهِ. فقال لها: لبيَّكِ. فقالت له: أيَرَاكَ ربُّكَ؟ قال لها: هو اللَّهُ الواحدُ القَهَّارُ، الحيُّ القيُّومُ، العالم بما في الصُّدورِ وباعثُ مَنْ في القُبورِ. قالت له: البلدُ منِّي بعيدٌ. قال لها: اصعدي.

فلمَّا صارت في صومعته، رمت بثيابها، وقامت عُريانةً، تجلو نفسَها عليه، فغضَّ بصرَهُ عنها. وقال لها: ويلَكِ، استُري نفسَكِ. قالت له: وما يضرُّكَ إذا تمتَّعت بي في هٰذه اللَّيلةِ؟.

فقال لنفسه: يا نفسُ، وما تقولين؟ قالت: والله إنِّي أتمتَّع بها.

قال لها: ويحَك أتُريدِينَ سرابيلَ القَطران، ومُقَطَّعاتِ النِّيرانِ، وتذهبِين بعبادتي هٰذه المدَّة، وليس كلُّ مَنْ زنى عُفِيَ عنه، وإنَّ الزَّاني يُكَبُّ على وجهه في النَّار، وهي نارٌ لا تُطْفَأ، وعذابُها لا يَفنَى، وأخافُ أن يغضَبَ اللَّهُ عليك، ولا يَرضَى أبداً عنكِ.

فراودته نفسه على ذلك، فقال: أعرضُ عليك ناراً صغيرةً، فإن صبَرْتِ عليها، متَّعتُك بهذه الجارية في هذه اللَّيلة.

قال: فملأ السِّراجَ دُهناً، وأغلظ الفتيلةَ، والمرأة تسمَعُ وتُبْصِرُ، ثم ألقى يدَه إلى الفتيلة، وهي تَتَّقِدُ، فصاح بالفتيلة: مالَكِ؟! أحرقي، فأكلت إبهامَه، ثمَّ أكلَتْ أصابِعَه، ثم أكلت يدَه، فصاحت الجارية صيحةً عظيمةً، فارَقَتِ الدُّنيا، فسترها بثوبها.

فلمَّا أصبحَ، صرخَ إبليسُ لعنه الله: أيُّها النَّاسُ، إنَّ العابد قد زنى بفلانةٍ بنت فلانٍ، وقتلها.

فركب الملِكُ في جُنده وأهل مملكتِه، فلمَّا انتهى إلى الصَّومعةِ، صاح، فأجابه العابدُ، فقال له: أينَ فلانة بنت فلان؟ قال له: عندي ها هنا. قال له: قل لها أن تنزِلَ. قال له: إنَّها قد ماتت.

قال له الملك: ما رضيت بالزِّنى حتَّى قتلت النَّفس الَّتي حرَّم اللَّهُ؟ فهدم الصَّومعةَ، وجعل في عُنُقِ العابد سِلَسِلَةً، فجَّره بها، وحُمِلَتِ المرأةُ، وجيء بالعابد إلى موقفِ العذاب، وكان القومُ ينشُرونَ الزَّاني بالمنشار، ويدُ العابدُ ملفوفَةٌ في كُمِّهِ وهو لا يُعلِمُهُم بقصَّتِه.

فوُضِعَ المِنشارُ على رأسه، وقيل لأصحاب العذاب: جرُّوا، فجرّوا.

فلمَّا بلغَ المنشارُ إلى دماغه، تأوَّه، فأوحى الله تعالى إلى جبريل عليه السلام: قل له: لا ينطق بشيء، وها أنا أنظُر إليك، وقد أبكى حملَة عرشي، وسُكَّانَ سماواتي، فَوَعِزَّتي وجلالي لَئِنْ تأوَّه الثانيةَ، لأهدِمَنَّ السماوات على الأرض، فما تأوَّه ولا تكلَّم حتى مات، رحمه الله.

فلمَّا مات، ردَّ اللَّهُ الرُّوحَ على المرأة، وقالت: ماتَ و الله مظلوماً، ما زنى وما أنا إلَّا بخاتَمي بِكرٌ.

ثم قصَّت عليهمُ القِصَّةَ، فأخرجُوا يَده، فإذا هي محروقَةٌ كما قالتِ

الجاريةُ. فقالوا: لو علمنا مـانشرنـاه، وخرَّ العـابدُ نصفين على الأرض، وعادت الجاريةُ كما كانت، فحفروُا لهما قبراً واحـداً، فوجـدُوا في القبر مِسْكَاً وعنبراً وكافُورَاً. ثم أتوا بهما ليصلُّوا عليهما، فناداهُم منادٍ مِنَ السَّماء: اصبِرُوا حتَّى تصلِّي عليهما الملائكَةُ، ثمَّ صلى عليهما النَّاسُ ودفنوهما، فأنبَتَ اللَّهُ على قبرهما الياسمين، ووجدوا على قبرهما رِقٌّ مكتوبٌ فيه:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، من الله عز وجل إلى عبدي ووليِّي، إنِّي نَصَبْتُ المنبـرَ تحتَ عرشي، وجمعتُ مـلائكتي، وخـطبَ جبـريـلُ عليـه السـلام، وأشهـدتُ المـلائكـةَ أنِّي زوَّجتُـكَ خمسين ألف عـروسٍ مِنَ الفردوس، وهٰكذا أفعَلُ بأهل طاعتي وأهلِ مراقبتي.

وقال ﷺ: «النَّظَرُ إلى محاسن المرأة سهمٌ مسمومٌ مِنُ سهامِ إبليس، فمن لم يغُضَّ بصـرَه عَنِ المحارم، كُحِّـلَ بصرُه يـومَ القيامـةِ بِمِرْوَدٍ مِنَ النَّار»[1].

وقـال رسول الله ﷺ: «النَّـظَرُ إلى محاسن المـرأةِ سهمٌ مسمومٌ مِنْ سهامِ إبليس، فمن غضَّ بصَره، أذاقه الله تعالى عبادةً يجدُ حـلاوةَ تلك العبادةِ في قلبه»[2].

وفي المناجاة أن الله تعالى قال لمـوسى عليه السـلام: يا مـوسى، حرمت على النَّارِ ثلاثةَ أعُينٍ: عينٌ سهِرَتْ في سبيلِ اللَّهِ، وعينٌ غَضَّت عَنْ محارِمِ الله، وعين بكت مِنْ خشيتي، ولِكُلِّ شيءٍ جزاءٌ، إلا الدَّمعةَ، فلا جزاءَ لها إلَّا الرَّحمةَ والمغفرةَ ودُخُول الجنَّة. و الله تعالى أعلم.

---

(١) لم أجده بهٰذا اللفظ، وانظر التعليق الآتي.

(٢) حديث ضعيف. رواه الحاكم ٣١٤/٤ من حديث حذيفة بن اليمان، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٦٢) عن ابن مسعود، وأبو نعيم في «الحلية» ١٠١/٦ عن ابن عمر، وأحمد ٢٦٤/٥، والطبراني (٧٨٤٠) عن أبي أمامة الباهلي.



وفي الخبر أنَّ النبيَّ ﷺ فقد كعباً فسأل عنه، فقيل له: إنَّه مريضٌ، فخرج يمشي حتّى أتاه، فلمَّا دخل عليه، قال: «أبشِرْ يا كعبُ»، فقالت له أمُّه: هنيئاً لك الجنَّةُ يا كعبُ. فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ هٰذه المتألِّية على الله؟» قال: أمي. قال: «وما يُدريك يا أمَّ كعب، لعلَّ كعباً قال ما لا يعنيه، أو سمع ما لا يعنيه؟»[1].

وقال ﷺ: «العبادة عشرةُ أجزاء، تسعةُ أجزاء في الصَّمت، وجزءٌ في الفِرار مِنَ النَّاس»[2].

وفي الحكمة: تسعةُ أعشارِ العبادة في الصَّمت.

وحُكِيَ أنَّ مريمَ عليها السَّلام لمَّا نَذَرَتْ أن لا تتكلَّمَ، وحبست لسانها لأَجْلِ الله تعالى، أطلق الله سبحانه وتعالى لسانَ صبيٍّ لا يعرِفُ الخِطَابَ، أنطقه الله لأجلها.

---

(١) رواه بهٰذا اللفظ ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١٠)، ومن طريقه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» ٤/٢٧٣. وانظر «جامع العلوم والحكم» ١/٢٩٢ - ٢٩٣ بتحقيقي.

(٢) رواه الديلمي في «مسند الفردوس» (٤٢٣١) عن ابن عباس، وفي آخره: «والعاشرة: اعتزالك عن الناس». وضعفه السيوطي.
ورواه الديلمي أيضاً من حديث أنس برقم (٤٢٢٢)، وفيه: و«العاشرة كسب اليد من الحلال». وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث «الإحياء» ٢/٨١: منكر.
ورواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» ٨/١٤٢ من قول وهيب بن الورد.

فمن حَفِظَ لسانَه لأجلِ الله تعالى في الدُّنيا، أطلقَ الله لسانَه بالشهادة عندَ الموتِ ولقاءِ الله تعالى. ومن سَرَّحَ لسانَه في أعراض المسلمين، واتَّبع عوراتِهم أمسك اللَّهُ لسانَه عَنِ الشَّهادة عندَ الموتِ.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَثُر كلامُه كثُرَ سقطُه، ومَنْ كثُرَ سقطُه، كثُرَتْ ذُنوبُه، ومَنْ كَثُرَتْ ذنوبُه، كانتِ النَّارُ أولى به»(1).

فلذلك كان الصِّدِّيقُ رضيَ الله عنه يضعُ في فيه حجراً ليمنَع به نفسَه عَنِ الكلام.

وسأل معاذُ رضيَ الله عنه رسول الله ﷺ: أيُّ الأعمالِ أفضلُ، فأخرج لسانَه، ووضع عليه يَدَهُ.

وأوصى عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه ولدَه الحسنَ، فقال لـه: أمسك عليكَ لسانَك، فإنَّ تلافَ المرءِ في مَنْطِقِه.

وذكِرَ أنَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه خطبَ النَّاس يوماً، فقال: إنَّ ربَّكم تعالى يقول: يا ابن آدم، لمَ تحرّضُ النّاسَ على الخيرِ، وتدَعُ ذلك من نفسك؟ يا ابن آدم، لم تُذَكِّرُ النَّاسَ وتنسى نفسَك؟ يا ابن آدم، لم تدعُوني وتفرُّ منِّي؟ إنْ كان كما تقول، فاحبس لسانَك، واذكر خطيئتَك، واقعُد في بيتك.

---

(1) حديث ضعيف. رواه أبو نعيم في «الحلية» ٣/٧٤، والعقيلي في «الضعفاء» ٣/٣٨٤، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٧٢ ـ ٣٧٤) عن عبد الله بن عمر.
ورواه الطبراني في «المعجم الأوسط» كما في «مجمع الزوائد» ١٠/٣٠٢ عن أبي هريرة.
لكن صح الحديث موقوفاً على عمر رضي الله عنه؛ أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٣)، وابن حبان في «روضة العقلاء» ص ٤٤، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٧٤)، وقال العقيلي: إسناده جيد.

وفي صحائف إبراهيم عليه السلام: على العاقل أن يكونَ بصيراً بزمانه، مُقبِلاً على شأنِه، حافظاً للسانه.

وعن مالك بن دينار رحمه الله تعالى أنَّه قال: إذا رأيتَ قساوةً في قلبك، أو وَهناً في بَدَنِكَ، أو حِرماناً في رزقك، فاعلم أنَّك تكلَّمتَ بما لا يعنيك.

وقال لقمان لابنه: يا بنيَّ، مَنْ رَحِمَ يُرحَمُ، ومَنْ يصمِتْ يسلَم، ومن يفعلِ الخير يَغْنَم، ومَنْ يفعَلِ الشَّرَّ يأثم، ومَنْ لا يملِكْ لسانه يندم.

وأنشدوا:

احفَظْ لسانَك أيُّها الإنسانُ ... لا يقتُلَنَّك إنَّه ثُعبانُ

كم في المقابِرِ مِنْ قتيلِ لسانِه ... كانت تهابُ لقاءه الشُّجعانُ

ويقال: إنَّ جميع الأعضاء تُبَكِّرُ كلَّ يومٍ للِّسانِ، وتقولُ له: ناشدتُكَ الله تعالى أن تستقيم، فإنَّك إنِ استقمتَ استقمنا، وإن اعوجَجْتَ اعوجَجْنا[1].

وقال بعضُ الحكماء: احبس لسانَك قبلِ أن يطُول حبسُك، وتتلف نفسك، فلا شيءَ أولى بطُولِ حبسٍ مِنَ اللِّسانِ ليقصر على الصَّواب ويُسْرِعَ إلى الجواب.

قال بعض الحكماء: تركُ فُضولِ الكلام يُثمِرُ النُّطْقَ بالحكمة، وتَرْكُ فُضولِ النَّظر يُثْمِرُ الخشوعَ والخشية، وترك فضول الطعام يثمر حلاوة العبادة، وتركُ الضَّحِكِ يُثمِرُ حلاوة الهيبة، وتركُ الرَّغبَةِ في الحَرامِ يُثمِرُ المحبَّةَ، وتركُ التجسُّس عَنْ عُيوبِ النَّاس يُثمرُ صلاحَ العُيوب، وتركُ

---

(١) روي ذلك مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري. انظر «مسند أحمد» ٣/٩٥-٩٦، و«سنن الترمذي» (٢٤٠٧)، و«الزهد» لهناد بن السري (١٠٩٧).

التَّوَهُّمِ في اللَّهِ تعالى يَنفي الشَّكَّ والشِّرك والنِّفَاقَ.

وأنشدوا:

الصَّمْتُ نفعٌ والكلام مَضَرَّةٌ فَلَرُبَّ صَمْتٍ في الكلام شِفَاءُ
فإذا أردتَ مِنَ الكلام شفاءً لسقامِ قلبِكَ فالقرانُ دَوَاءُ

واعلم: أنَّ التَّجسُّسَ عَن عُيوبِ النَّاسِ، وتَطَلُّبَ مساوئِهم، يبدي العورات، ويكشِفُ المخبَّآتِ.

وقد نهى اللَّهُ عزَّ وجلَّ عَنْ ذٰلك في كتابه العزيز بقوله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢] الآية.

فاتَّق الله، واشتَغِلْ بعيُوبِكَ عَنْ عُيوبِ النَّاس، ولا تكُنْ كمثل الذُّبابِ الذي لا يعرج على المواضع السَّليمةِ مِنَ الجسد، ولا ينزِلُ عليها، وإنَّما يقع على القُروحِ فيُدمِيها.

فمن بحثَ عَنْ مساوىءِ النَّاس، واتَّبع عوراتهم، واشتغَلَ بعيب غيرِه، وترك عيبَهُ، سلَّطَ اللَّهُ تعالى عليه مَنْ يبحَثُ في عيبِهِ ومساوئِه ليشهِّرَها، ويتَّبع عورتَه ويبديها وينشُرَها[1].

فالعاقلُ السَّعيدُ مَنْ نظَرَ في عيبه، وشُغِلَ بذلك عَنْ عُيُوبِ غيره، وعن كلِّ شيءٍ سوى الله تعالى.

وروي عَنِ النبيِّ ﷺ، عن جبريلَ عليه السَّلام، عنِ الله تعالى، أنّه قال: يا مُوسى خَمْسُ كلماتٍ ختمتُ بهنَّ التَّوراة، فإن عَملْتَ بهنَّ، نفعك

---

(١) أخرج أحمد ٤٢١/٤، وأبو داود (٤٨٨٠) عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عوراتهم، يتبع الله عورته، ومن يتبع عورته، يفضحه في بيته».

علمُ التَّوراة، وإن لم تعمل بهنَّ، لم ينفَعْكَ علمُ التوراة:

أوَّلُهُنَّ: يا موسى، كُنْ واثقاً بِرزقيَ المضمون لك ما لم تر خزائني نفِدَت.

الثانية: يا موسى، لا تخافَنَّ سُلطانَ الأرض ما لم ترَ سُلطاني زائلاً.

والثالثة: يا موسى، لا تجسس عن عيب أحدٍ ما لم تَخْلُ من العيوب.

الرابعة: يا موسى، لا تدعَنَّ مُحاربَة الشيطان ما دام روحُك في جسدك.

الخامسة: يا موسى، لا تأمَنْ عقابي ولو رأيتَ نفسَك في الجَنَّةِ.

وقال: يا أخي، إيّاك أن تعيِّر أحداً بما فيه، فإنِّي أخشى أن يبتلِيَك اللَّهُ ويعافيه، ولا تستر على الفاجِرِ الظَّاهر فجورُه، ولا على مَنْ لا يستتِرُ بالمعصية ويعلن بها[1].

قال رسول الله ﷺ: «لا يرى امرؤٌ مِنْ أخيه عورةً، فيستُرُها عليه إلا أدخله الله الجنة»[2].

وقال ﷺ: «مَنْ أقال مُسلماً عثرتَه، أقال الله عثرتَه يومَ القيامة»[3].

ويقال: إنَّ أبا حنيفة رضي الله تعالى عنه كان يسكُن بجواره شابٌّ

---

(1) لم أجده.

(2) رواه بهذا اللفظ من حديث أبي سعيد الخدري البغوي في «شرح السنة» (٣٥١٩)، والطبراني في «المعجم الصغير» (١١١٨)، و«الأوسط»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٦/٢٤٦: إسناده ضعيف.
قلت: لكن صح الحديث بلفظ: من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة». رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) عن ابن عمر، ومسلم (٢٦٩٩) عن أبي هريرة.

(3) رواه من حديث أبي هريرة أبو داود (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢١٩٩)، وصححه الحاكم ٢/٤٥.

مُولَعٌ بشُرب الخمر، فكان أبو حنيفـة يسهَرُ اللَّيـلَ على النَّظرِ في الكُتُبِ والقراءةِ، وكان بينه وبين الشَّابِّ جدارٌ، فكان يشربُ ويتمثل:

سـأُنْشِـدُهم إذا ما هُمْ جَفَـوْني أضَـاعُـوني وأيّ فتى أضـاعـوا

ويُكثر التَّردد بهذا البيت، فكان أبو حنيفة يستأنس بكلامه.

فلمـا كان ذات ليلةٍ، لم يسمـع له أبـو حنيفة حِسَّـاً، فلما خـرج لصلاة الصُّبح سأل عنه، فقيل له: إنَّ صاحبَ الشُّرطة لقاه مخموراً، فحمله إلى السِّجن، فلَّما صلى أبو حنيفة، مضى إلى منزلِ صاحبِ الشُّرطة، واستأذن عليه، وأعلمه بنفسه، فخرج إليه صاحبُ الشُّرطة حافيَ القدمين، عـارِيَ الرَّأس، وقبّل يده، وقال: يا سيدي، وما بلغَ مِنْ قدري حتَّى تأتِيني إلى منزلي؟ فقال أبو حنيفة: إنِّي جئتُك في قضيَّة جارٍ لي سُجنَ اللَّيلةِ، فقال: أشهدُك يا سيِّدي أنِّي أطلقتُه وجميع مَنْ سُجِنَ في تلك اللَّيلة.

قال: وانصرف أبو حنيفة والرَّجل معـه. ثم التفت إليه، وقـال: هل ضيَّعناكَ يا أخي، أم قُمنا بحقِّكَ رعْياً لقولك: أضاعوني وأي فتى أضاعوا؟ فقـال: لا والله لم تُضَيِّعْني، بل رعيتني ، جـزاك الله عَنِ الجوارِ خيـراً، وأشهدُك أنِّي تائبٌ لوجه الله تعالى.

قال فلزم الإمام، وعبدَ الله تعالى حتَّى أتاه اليقينُ[1].

---

(١) الحكاية في «تاريخ بغداد» ١٣/٣٦٢ ـ ٣٦٣ مع اختلاف يسير، وبيت الشعر فيه:

أضـاعـوني وأي فتى أضـاعـوني لـيـوم كـريـهـة وسِـداد ثـغـر



الفصل التاسع والعشرون

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ لأبي هريرة: «يا أبا هريرة، إنْ أحببتَ أن يُفشي لَـك اللَّهُ الثَّناءَ الحَسَنَ الجميـلَ في الدُّنيـا والآخـرة، فكفَّ لسـانَـك عَنِ المسلمين»[1].

وقال ﷺ: «ما صامَ مَنْ ظلَّ يأكُلُ لُحومَ النَّاس»[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أبغضُ عبادِ الله إلى الله كلُّ طعّانٍ لعَّان[3].

وقال سعيدُ بنُ عامرٍ عَنِ النَّبي ﷺ: مَنْ دعا رجلاً بغيرِ اسمِه، لعنته الملائكة[4].

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ العبد يُعطى كتابَه يـومَ القيامـةِ، فيرَى فيـه حسنـاتٍ لم يكُن عمِلَها قطُّ، فيقـولُ: يا ربِّ، مِنْ أينَ هٰـذه الحسناتُ؟

---

(١) لم أجده بهٰذا اللفظ. وروى الـديلمي في «مسند الفـردوس» (٨٣٩٠): «يا أبـا هريرة؛ إن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة، فكن خفيف الظهر من دم المسلمين وأعراضهم وأموالهم».

(٢) حديث ضعيف. رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» ٤/٣، والطيالسي في «مسنده» برقم(٢١٠٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» ٣٠٩/٦، وذكره الحافظ الزيلعي في «نصب الراية» ٤٨٢/٢، في جملة أحاديث قال عنها: كلها مدخولة، أي لا تصح.

(٣)رواه ابن المبارك في «الزهد» برقم (٦٨٠) عن ابن عمر.

(٤) حـديث ضعيف. رواه ابن السني في «عمـل اليـوم والليلة» (٣٩٤) عن عميـر بن سعـد.

فيقول: باغتيابِ النَّاس فيكَ وأنتَ لا تعلمُ»[1].

وقال حاتمٌ الأصمُّ: ثلاثةٌ إذا كنَّ في مجلسٍ، فالرَّحمةُ مصروفَةٌ عنه: ذِكْرُ الدُّنيا، والضَّحِكُ، والوقيعَةُ في النَّاس.

واعلم ـ رحمكَ اللَّهُ ـ أنَّ النَّميمةَ تُفْسِدُ الدِّين والدُّنيا، وتغيِّرُ القُلوبَ، وتُوَلِّدُ البغضاء، وسفكَ الدِّماءِ والشَّتاتَ. قال الله العظيم: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٣].

وسُئِلَ رسولُ الله ﷺ عَنِ الغيبة ما هي: قال: «أن تذكُرَ أخاكَ بما فيه وهو غائبٌ عنك، وإن ذكرتَه بما ليس فيه، فقد بهتَّهُ»[2] أي: فذلكَ البُهتان.

وقال ﷺ: «شَرُّ عبادِ الله: المشَّاؤون بالنَّميمة، المفرِّقُونَ بينَ الأحِبَّة»[3].

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنَّةَ قتات»[4].

وقال ﷺ: «مَنْ مشى بين اثنين بالنَّمِيمةِ، سلَّطَ الله عليه ناراً في قبره

---

(١) حديث ضعيف رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» عن شبيب بن سعد البلوي، والخرائطي في «مساوىء الأخلاق» (١٩٧) عن أبي هريرة، كما في «كنز العمال» ٣/٥٩٠.

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٤) عن أبي هريرة.

(٣) حديث ضعيف. رواه أحمد ٤/٢٢٧ عن عبد الرحمٰن بن غنم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن عبد الله بن عمر.
ورواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٥٥)، و«الغيبة والنميمة» (١١٧) عن أبي هريرة.
ورواه أحمد ٦/٤٥٩، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٥٧)، و«الغيبة» (١١٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» ٢٤/١٦٧ ـ ١٦٨ عن أسماء بنت يزيد. وانظر «مجمع الزوائد» ٨/٩٣.

(٤) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

تحرِقه إلى يومِ القيامة. وحيةً تنهَشُهُ حتَّى يدخلَ النَّار»[1].

قال ﷺ: «مَنْ ألقى بينَ اثنَينِ عَداوةً، فليتبَوَّأ مقعدَه مِنَ النار، ومَنْ أصلَح بينهما، فقد وجبت له على اللَّهِ الجَنَّةَ»[2].

قال بعض الحكماء: النَّميمةُ تهدي إلى القُلوب البغضاءَ، ومَنْ واجَهَكَ فقد شتمكَ، ومن نقَلَ إليكَ، فقد نقل عنك، والسَّاعي بالنَّميمة كاذبٌ لمن يسعى إليه، وخائِنٌ لمن يسعى به.

قال الشاعر:

احفَظْ لسانَك لا تُؤذي به أحداً مَنْ قال في النَّاس عيباً قيل فيه بمثله

قال الأصمعي: شاهدتُ أعرابيةً وهي تُوصي ابنها، فقالت: يا بُنَيَّ، أمنَحُك وصيَّتي وبالله التَّوفيقُ، فإيَّاك والنَّميمةَ، فإنَّها تُورِثُ العدواةَ بين الأهلِينَ، وتُفَرِّقُ بين المُحِبِّينَ، وإيَّاكَ والتَّعَرُّضَ للعيوب، فتَصيرَ لها أهلاً، وإيَّاك والجودَ بدينِكَ، والبُخْلَ بمالك، ومثِّل لنفسك مثالاً مِنْ غيرك، فما استحسنْتَهُ مِنَ النَّاس فافعله، وما استقبحتَهُ منهم فاجتنبه، فإنَّ المرءَ لا يرَى عيبَ نفسهِ.

ثم أمسكت، فقلت يا أعرابية، بالله ألا زدتيه، فقالت: يا حضريُّ، أعجبكَ كلامُ العرب؟ فقلتُ: أي والله.

فقالت: يا بني، إيَّاكَ والغدرَ، فإنَّه أقبحُ ما تعامل به النَّاس، واجمَع بينَ السَّخاءِ والعلمِ، والتَّواضُعِ، والحياءِ، وأستودِعُكَ الله، وعليك السَّلام.

---

(١) ذكره ابن عراق الكناني في «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة» ٢/٣١٣ بلفظ: «من مشى بالنميمة بين العباد، قطع الله لـه نعلين من نار يغلي منهما دماغه». ونسبه للديلمي في «مسند الفردوس» من حديث أنس.

(٢) لم أجده.

واعلم رحمك الله أنَّ الغيبة أشدُّ مِنْ ثلاثينَ زنية في الإسلام[1].

وقال بعض أهل العلم، الغيبة تنقضُ الوضوءَ، وتُفطِّرُ الصَّائمَ[2].

وكان بعضُ الفُقهاء يُعيدُ الوُضوء مِنَ الغيبةِ.

وقِيل: مَثَلُ صاحب الغيبةِ كمثل مَنْ نصبَ منجنيقاً، فهو يرمي به حسناتِه يميناً وشمالاً، وشرقاً وغرباً.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أتحبُّ أن أنصُـرَك على عدوِّك؟ قال: بِمَ؟ قال: بردِّك الغيبَةِ عَنِ المسلمين.

ومَنْ ماتَ تائباً عَنِ الغيبة والنَّميمة، فهو آخر مَنْ يدخلُ الجَنَّةَ، ومَنْ مات وهو مُصِرٌّ عليهما، فهو أوَّلُ مَنْ يدخُلُ النَّارَ[3].

وقال سليمان عليه السلام: يا رب، أيُّ الأعمال أفضلُ وأحبُّ إليكَ؟ فقال تعالى: عشرُ خِصَالٍ يا سليمان، أحدها: أن لا تذكُرَ أحداً مِنْ عبادي إلاَّ بخيرٍ، ولا تَغْتَبْ أحداً ولا تَجُسَّه.

فقال: ربِّ، احبِس عنِّي السَّبعةَ، فقد كربني هٰؤلاء[4].

---

(١) روى ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٧٦)، و«الغيبة» (٣٦) عن أنس بن مالك، قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فذكر أمر الربا، وعظّم شأنه، وقال: «إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل. وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم».
وأخرجه الحاكم في «المستدرك» ٣٧/٢ من حديث عبد الله بن مسعود، وفيه: «ثلاثة وسبعون باباً»، وصححه الحاكم على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر «مصنف ابن إبي شيبة» ١٣٤/١، و«الصمت» لابن أبي الدنيا (٦٦٢)، و«الزهد» لهناد بن السري ٥٧١/٢.

(٣) ذكره الغزالي في «الإحياء» ١٢٣/٣.

(٤) انظر «الزهد» لابن المبارك (٤٧١)، والصمت لابن أبي الدنيا (٦٤١).

وقال عطاءٌ السُّلَيمي: عذابُ القبر ثلاثة أثلاث: ثلثٌ مِنَ البول وثُلُثٌ مِنَ الغيبةِ، وثُلُثٌ مِنَ النَّميمة(١).

فإيَّاك يا أخي والتعرُّض للأقدار، وأن تغتابَ أحداً بما أودَعَ فيه الجبَّار، فإنَّ المولى جلَّ جلاله أعلمُ به، وأحكم ولو شاء لأهلكه وانتقم.

يُروى أنَّ عيسى عليه السلام مرَّ ببعض الأنهار، فإذا بصِبيان يلعبُونَ في ذٰلك النَّهر، ومعهم صبيٌّ أعمى قد كُفَّ بصرُه، وهم يغمِسُونَه في الماء، ويفِرُّون منه يميناً وشِمالاً، وهو يطلُبُهم ولا يَظْفَرُ بهم.

ففكَّرَ عيسى عليه السلام في أمره، ودعا ربَّه أن يَرُدَّ عليه بصَره، وأن يساوِيَ بينه وبينَ أصحابه.

فَرُدَّ عليه بصرُه، فلما فتح عينيه ورآهم وثب وثبة على واحدٍ منهم، فتعلَّقَ به، ولم يَزَلْ يغمِسُه في الماء حتَّى قتله، وطلبَ آخرَ فتعلَّق به كذٰلك حتَّى مات، وهرب الباقون.

فرأى عيسى عليه السَّلامُ ذٰلك، فتعجب، وقال: إلٰهي، وسيِّدي ومولاي، أنتَ بخلقك أعلم، فدعا ربَّه أن يَرُدَّه كما كان ويكفِيَهم أمرَه.

فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السَّلام: قد كنتُ أعلمتُك وتعرَّضتَ إليَّ في حُكمي وتدبيري، فخرَّ عيسى عليه السلام ساجداً.

واعلم أنه لا يجري في هٰذا العالم أمرٌ إلَّا وللمولى فيه حُكْمٌ وتدبيرٌ.

عن بعض السلف أنه قال: إذا كان يومُ القيامةِ، اجتمعَ القومُ الَّذين كانوا يتجالسون على غيرِ طاعةِ الله تعالى، ويتعاونون على المعاصي، فيجثُون على الرُّكَب، ويَعضُ بعضُهم بعضاً، وينهَشُ بعضُهم بعضاً،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٩٠)، و«الغيبة» (٥٢) عن قتادة بن دعامة السدوسي.

كالكلابِ، وهمُ الَّذِينَ خرجُوا مِنَ الدَّنيا على غيرِ تَوْبَةٍ.

قال الفقيه أبو الحسن علي بنُ فرحون القرطبي رحمه الله في كتابه المعروف «بالزَّاهر»، كان لي عمٌّ، وتوفي في مدينة فاس سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فرأيته بعدَ ذٰلك في المنام وهو داخلٌ عليَّ في داري، فقمت إليه ولاقيتُه بقُرْبِ الباب، وسلَّمْتُ عليه، ودخل ودخلتُ خلفَه، فلمَّا توسَّطَ في البيت، قعد واستند بظهرِه إلى الجدار، فقعدت بين يديه، فرأيته شاحبَ اللَّونِ متغيِّراً، فقلت له: يا عمَّاه، ماذا لقيتَ مِنْ ربِّك؟ قال: ما يلقى منَ الكريم يا بنيَّ، سمح لي في كلِّ شيء إلاَّ في الغيبة، فإني منذُ فارقتُ الدُّنيا إلى الآن محبوسٌ فيها، ما سمح لي بعد فيها، فأنا أُوصِيكَ يا بنيَّ: إيَّاكَ والغيبةَ والنَّميمة، فما رأيتُ في هٰذه الدَّارِ شيئاً أشدَّ بطشاً وطَلباً مِنَ الغيبة. وتركني وانصرف.

وأنشدوا:

يَمُوت كلُّ الأنام طُرًّاً   مِنْ صَالحٍ كانَ أو خَبِيثِ
فمستريحٌ وَمُستراحٌ   منه كما جاءَ في الحديث[1]

وقال سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه: يُؤتى بالعبدِ يومَ القيامةِ فَيُدْفَعُ له كتابُه، فلا يرى فيه صلاتَه ولا صِيامَه، ولا يرى أعماله الصَّالِحَةَ، فيقول: يا رب، هٰذا كتابُ غيري، كانت لي حسناتٌ ليس في هٰذا الكتاب، فيقال له: إنَّ ربَّك لا يَضِلُّ ولا يَنْسى، ذهب عملُك باغتيابِكَ النَّاس.

فإيَّاكَ يا أخي والغِيبَةَ والنَّميمة، فإنَّهما يَضُرَّانِ بالدِّين، ويُحْبِطَانِ عملَ العاملين، وتُورِثُ العداوةَ بينَ المسلمين، أعاذنا الله تعالى منهما.

---

(1) البيتان في «نفح الطيب» للمقري ٢/١٥٤، و«الازدهار فيما عقده الشعراء من الآثار» للسيوطي بتحقيق صديقنا الدكتور علي البواب ص ٨٠، وهما لأبي الحسن علي بن عبد الغني القيرواني، المعروف بالحصري، وقد ضُمنها قوله ﷺ لما مُرَّ عليه بجنازة: «مستريح ومستراح منه». انظر البخاري (٦٥١٢)، و«مسلم» (٩٥٠).



الفصل الموفي ثلاثين

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى حرَّم مِنَ المسلم دمَه ومالَه وعِرْضَه»(١).

فالغيبة بالقلب حرامٌ كما هي باللِّسان، وحرامٌ إلَّا أن يضطرَّ لمعرفته، بحيثُ لا يُمكِنهُ التّجاهلُ، فحدُّ الغيبةِ كما بيَّنهُ رسوله ﷺ وهو أن تذكُرَ أخاكَ بما يكرهُهُ إن بَلَغَهُ أو سمعه(٢)، وإنْ كُنتَ صادقاً سواء ذكرتَ نُقصاناً في نفسه، أو عقلِه، أو ثوبهِ، أو في فِعْلِهِ، أو في قوله أو في دينه، أو في داره، أو في دابَّته، أو في ولده، أو في عبده، أو في أَمَتِه، أو بشيءٍ ما يتعلَّقُ به، حتَّى قولك: إنَّه واسعُ الكُمِّ، طويلُ الذَّيل.

وقد ذُكِرَ رجلٌ عندَ رسول الله ﷺ، فقيل: ما أعجزَه، فقال: «اغتبتموه»(٣).

وأشارت عائشةُ رضي الله تعالى عنها إلى صفيَّةَ، وقالت لها كذا وكذا، وأشارت بيدها، تعني قِصَرَهَا، فقال رسول الله ﷺ: «اغتبتيها يا

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة بلفظ: «كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه».

(٢) انظر ص ١٥٧ ت (٢).

(٣) حديث ضعيف. رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٠٦) عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وابن المبارك في «الزهد» بنحوه.
ورواه ابن أبي الدنيا في «الغيبة» (٧٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» ٢٠/٣٩، وضعفه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٨/٩٤.

عائشةُ»، فقالت: يا رسول الله، أليست هي قصيرة؟ قال: «إنك ذكرتِ أقبحَ شيءٍ فيها»[1].

والغيبةُ لا تقتصر على اللِّسان، بل كلُّ ما يُفْهَمُ منه عرض يكرهُه المذكور فيه إن بلغه أو سمعه، باليد، أو بالرِّجل، أو بالإشارة، أو بالحركة، أو بالتَّعريضِ أو بالمحاكاة، فهي غِيبَةٌ.

وقد عظَّمَ الله تعالى أمر الغيبةِ، فقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].

فقيل: معناه الطاعن في النَّاس، الذي يأكلُ لحومَ النَّاسِ[2].

وقال رسول الله ﷺ: «مررتُ ليلةَ أُسريَ بي على قومٍ يخمشُون وجوهَم بأظفارهم، فقيل لي: هٰؤلاءِ الَّذين يغتابون الناس»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «ما النَّارُ في اليَبَسِ بأسرعَ مِنَ الغيبةِ في حسناتِ العبدِ»[4].

رُوِيَ عن عبدالملك بن حبيبٍ رحمه الله تعالى بإسناده عمَّنْ حدثه أنه

---

(١) أخرجه دون لفظ: فقالت: يارسول الله: أليست هي قصيرة... الخ. أحمد ١٩٨/٦، وأبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) قاله مجاهد بن جبر. انظر «الزهد» لوكيع (٤٣٩)، وهناد بن السري (١٢١٥)، و«الصمت» (١٨٥)، و«الغيبة» (٤٧) لابن أبي الدنيا، «والدر المنثور» للسيوطي ٣٩٢/٦.

(٣) حديث صحيح. رواه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أحمد ٢٢٤/٣، وأبو داود (٤٨٧٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٦٥)، و«الغيبة» (٢٦).

(٤) ذكره الغزالي في «الإحياء» ١٢٩/٣، وقال العراقي في تخريجه: لم أجد له أصلاً. ورواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٩٢)، و«الغيبة» (٥٤) من قول الحسن البصري، وفي إسناده داود بن المحبّر وهو متروك.

قال لمعاذ بن جبل: يا معاذ، حدِّثني حديثاً سمعتَه مِنْ رسول الله ﷺ. قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ إنِّي أحدِّثُك حديثاً، إنْ أنتَ حفظتَه، نفعكَ الله، وإنْ ضيَّعتَه ولمْ تحفَظْهُ، انقطعتْ حجَّتُك عندَ الله يومَ القيامةِ.

يا معاذُ: الله خلقَ سبعةَ أملاكٍ قبلَ أن يخلُقَ السماواتِ والأرضَ، فجعلَ لكلِّ سماءٍ ملكاً بوَّاباً عليها، فتصعَدُ الحفَظَةُ بعملِ العبدِ مِنْ حين يُصبحُ إلى حين يمسي، له نورٌ كنُورِ الشَّمس، حتَّى إذا بلغت به إلى سماءِ الدُّنيا، فتُزَكِّيه وتَكثِّرُه، فيقول الملَك الموكَّلُ بها للحفظةِ: اضرِبُوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ، أنا صاحبُ الغيبةِ، أمرني ربِّي أن لا أدَعَ عملَ مَنِ اغتابَ الناس يجاوزُني إلى غيري.

ثمَّ تأتي الحفظةُ بعملٍ صالحٍ مِنَ العبدِ، فتزكِّيه وتكثِّره، حتَّى تبلُغَ به إلى السَّماءِ الثانية، فيقولُ لهم الملَكُ الموكَّلُ بها: قفوا واضرِبُوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِهِ، إنَّه أرادَ بهٰذا العملِ عَرَضَ الدُّنيا، أمرني ربِّي أن لا أدعَ عملَه يجاوزُني إلى غيري، إنَّه كان يفتخِرُ على النَّاس في مجالسهم.

قال: وتصعدُ الحفظَةُ بعمل العبد يبتهِجُ نوراً مِنْ صدقةٍ وصيامٍ، وقد أعجبَ الحفَظَةَ، فيجاوزون به إلى السَّماءِ الثَّالثةِ، فيقولُ لهمُ المَلكُ الموكَّلُ بها: قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِه، أنا ملَكُ الكِبْرِ، أمرني ربِّي أن لا أدعَ عملَه يجاوزني إلى غيري، إنَّه كان يتكبَّرُ على النَّاسِ.

قال: وتصعد الحفظةُ بعمل العبدِ يزهر كما يزهر الكوكبُ الدُّري وله دَوِيٌّ مِنْ صلاةٍ وتسبيح وحَجٍ وعُمرةٍ، حتى يجاوزوا به إلى السَّماءِ الرَّابعة، فيقول لهمُ المَلكُ الموكَّلُ بها: قفوا واضرِبُوا بهٰذا العمل وجهَ صاحبه ظاهِره وباطِنه، أنا صاحبُ العُجْبِ، أمرني ربِّي أن لا أدعَ عمله يجاوزُني إلى غيري، إنَّه كان إذا عمل عملاً أدخل العُجْبَ فيه.

قال: وتصعَدُ الحفَظَةُ بعمل العبد مِنْ صوم وصلاةٍ وصدقةٍ وزكاةٍ وحج

وعمرة، حتَّى يجاوزوا بها إلى السَّماء الخامسة كأنه العروس المزفوفة، فيقول لهمُ الملَكُ الموكَّلُ بها: قفوا واضربُوا بهٰذا العمل وجهَ صاحبه، واحملوه على عاتقه، أنا ملَكُ الحسدِ، إنَّه كان يحسُدُ مَنْ يتعلَّمُ، ولا يعمل بمثل عمله، وكلُّ مَنْ كان يأخُذُ فضلاً مِنَ العبادةِ كان يحسُدُه، أمرني ربِّي أن لا أدعَ عملَه يجاوزُني إلى غيري.

قال: وتصعدُ الحفَظَةُ بعملِ العبد مِنْ صلاة وزكاة وحجٍّ وعمرة وصيام، فيجاوزون به إلى السَّماءِ السَّادسة، فيقولُ لهمُ المَلكُ: قفوا واضربوا بهٰذا العمل وجه صاحبِه، إنَّه كان لا يرحَمُ إنساناً ولا مسكيناً مِنْ عبادِ الله تعالى قطُّ إذا أصابه بلاءٌ أو ضُرٌّ، بل كان يَشْمَتُ به، أنا ملَكُ الرَّحمةِ، أمرني ربِّي أن لا أدعَ عملَه يجاوزُني إلى غيري.

قال: وتصعد الحفظَةُ بعملِ العبد مِنْ صلاة وصوم ونفقة وجهاد وورَع، له دويٌّ كدويِّ النَّحل، وضَوْءٍ كضَوْءِ الشَّمس، ومعه ثلاثةُ آلافِ ملَكٍ، فيجاوزون به السَّماءَ السَّابعةَ، فيقول لهم الملَكُ الموكَّلُ بها: قفوا واضربوا بهٰذا العملِ وجهَ صاحبِه، واقفلوا على قلبه، إنِّي أحجُبُ عن ربِّي كلَّ عملٍ لم يُرَدْ به ربِّي، إنَّما أراد بعمله رفعةً عند الفقهاء، وذِكْراً عندَ العلماء، وصيتاً في المدائن، أمرني ربِّي أن لا أدعَ عملَه يجاوزُني إلى غيري، وكلُّ عملٍ لم يكن لوجه الله خالصاً، فهو رياءٌ، ولا يقبل الله عملَ المرائي.

قال: وتصعدُ الحفظَةُ بعمل العبد مِنْ صلاة وزكاة وعمرة وخُلُقٍ حسنٍ وصمت، وذكر الله تعالى، فتشيِّعُه ملائكةُ السماوات السَّبعِ، حتَّى يقطعوا الحُجُبَ كُلَّها، ويقفوا بين يديِ الله تعالى، ويشهدوا له بالعمل الصَّالح لله تعالى، فيقول لهم: أنتُمُ الحفَظَةُ على عبدي، وأنا الرَّقيبُ على قلبِه، إنَّه لم يُرِدْني بهٰذا العمل، وأرادَ به غيري، فعليه لعنتي ولعنةُ أهلِ السَّماوات والأرض، فتقولُ الملائكةُ كلُّها: عليه لعنتُك ولعنتُنا، وتقولُ السماوات

كلُّها: عليه لعنةُ الله ولعنتنا، وتلعنه السماوات السَّبعُ ومَنْ فيهنَّ».

قال معاذ: قلتُ: يا رسولَ الله، أنتَ رسولُ الله، وأنا معاذٌ. قال: «اقْتَدِ بي، وإن كان في عملِكَ نقصٌ، يا معاذ، احفَظْ لسانَك مِنَ الوقيعةِ في إخوانك مِنْ حملةِ القُرآن، واحمِلْ ذُنوبَك، ولا تحملها عنهم، ولا تُزَكِّ نفسكَ بذمِّهم، ولا تُوقِعْ نفسَك عليهم، ولا تُدخِلِ الدُّنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبَّر في مجلسك لكي يحذر الناسُ مِنْ سوء خلقك، ولا تُمازِحْ رجلاً وعندك آخر، ولا تتعاظَمْ على النَّاس، [فتقطع عنك خيراتِ الدنيا والآخرةِ]، ولا تُمزِّقْ لحومَ النَّاس بلسانك، فتمزِّقُك كلابُ النَّارِ يومَ القيامة في النَّار، قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النازعات: ٢] هل تدري ما هُنَّ يا معاذ؟» قلت: ما هن بأبي أنتَ وأمي يا رسول الله؟ قال: «كلاب من نار تنشطُ العظم واللحم». [قال: قلت: يا رسول الله]، من يطيق هٰذه الخصال، ومن ينجو منها؟ قال: «يا معاذُ، إنَّه يسيرٌ على مَنْ يسَّره الله تعالى عليه».

قال: فما رأيتُ أحداً أكثرَ تلاوة للقرآن مِن معاذ لهذا الحديث[1].

---

(١) حديث موضوع. أورده مختصراً ابن حبان في «المجروحين» ٢/٢١٤، وأورده بطوله المصنف في كتاب «الموضوعات» ٣/١٥٤ - ١٥٩، وروى نحوه من حديث علي رضي الله عنه ٣/١٥٩ - ١٦١.
وقال: أما الحديث الأول، فإنه موضوع على رسول الله ﷺ، ولقد أبدع الذي وضعه واجترأ على الشريعة... وأما حديث علي، فلا نشك في وضعه.
قلت: والعجب من المصنف رحمه الله كيف يجزم بوضع هـذه الأحاديث ـ وهي كذلك ـ ثم يوردها في كتبه ومصنفاته في الرقائق والمواعظ، ومنها هٰذا الكتاب، دون أن يبين حالها.



الفصل الحادي والثلاثون

قال رسول الله ﷺ: «المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ مِنْ لسانِه ويده»[1].

وقال ﷺ: «المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلِمُه ولا يُسْلِمه»[2].

وقال ﷺ: «المسلمونَ كرجلٍ واحدٍ، إذا اشتكى رأسُه، تداعى بقيَّةُ جسدِهِ بالحُمَّى والسَّهر»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أن يسلمَ، فليلْزَمِ الصَّمتَ»[4].

وقال مُعاذ رضي الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أنؤاخذ بما نقول؟ فقال: «ثكِلَتْكَ أمُّكَ يا ابن جبل، وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على مناخرهم إلَّا حصائِدُ ألسنتهم»؟![5].

وقيل لعيسى عليه السلام: دُلَّنا على عملٍ ندخُلُ به الجنَّةَ. قال: فلا

---

(١) رواه البخاري (١٠) و (٦٤٨٤)، ومسلم (٤٠) عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠) عن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

(٣) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) عن النعمان بن بشير بنحوه.

(٤) حديث ضعيف جداً. رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٧١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٦٠٧).

(٥) حديث صحيح. رواه أحمد ٥/٢٣٠، والترمذي (٢٦١٦)، وصححه الحاكم ٢/٤١٢ - ٤١٣.

وانظره مع شرحه في «جامع العلوم والحكم» ٢/١٣٤، الحديث التاسع والعشرون بتحقيقي.

تنطقوا أبداً. قالوا: لا بُدَّ لنا مِنْ ذٰلِك. قـال: فلا تنـطِقُوا إلاَّ بخيـرٍ[1].

وقال ﷺ: «اخزُنْ لِسَانَك إلاَّ مِنْ خَيـرٍ، فإنَّـكَ بذٰلـك تَغْلِبُ الشَّيطانَ»[2].

وقال ﷺ: «إنَّ الله تعالى عندَ لسانِ كلِّ ناطقٍ، فليتَّقِ اللَّهَ امرؤٌ عَلِمَ ما يقول»[3].

وقـال ﷺ: «مَنْ كـانَ يؤمنُ بـاللَّهِ واليـومِ الآخـر، فليقُـلْ خيـراً أو ليصمُتْ»[4].

وقال ﷺ: «رَحِمَ الله عبداً قال خيراً أو صمَت»[5].

وقال ﷺ: «إن أكثر خطايا ابن آدمَ في لسانه»[6].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤٦).

(٢) حـديث ضعيف، رواه الطبـراني في «المعجم الصغيـر» (٩٤٩) عن أبي سعيـد الخدري مرفوعاً.
ورواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٩١) عن إبي سعيد الخدري موقوفاً. بإسناد حسن.
ورواه برقم (٦٧) عن البراء بن عازب مرفوعاً بلفظ: «كفَّ لسانك إلَّا من خير».

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٦٧)، وابن أبي شيبة في «المصنف» ١٣/٢٣٣ - ٢٣٤، والخـطيب في «تاريـخ بغداد» ٩/٣٢٩، وأبـو نعيمٍ في «حليـة الأوليـاء» ٨/٣٥٢ و ٩/٤٤ عن عمر بن ذر بن عبد الله المرهبي مرسلاً.
ورواه أبو نعيم ٨/١٦٠ عن ابن عمر مرفوعاً بإسناد ضعيف.

(٤) رواه البخاري (٦٠١٩)، ومسلم (٤٨) من حديث أبي هريرة. وانظره مع شرحه في «جامع العلوم والحكم» ١/٢٣٢ بتحقيقي.

(٥) رواه الطبرانيُ في «المعجم الكبير» (٧٧٠٦) عن أبي أمامة، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٥٨٢) عن أنس مرفوعاً بإسناد ضعيف.
ورواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٤١)، والقضاعي (٥٨١) عن الحسن البصري مرسلاً.
ورواه ابن المبارك (٣٨٠) وعنه ابن أبي الدنيا (٦٤) عن خـالد بن أبي عمـران مرفوعاً، وهٰذا معضل.
وحسَّن الحديث الشيخ الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» ٢/٥٣٦.

(٦) صحيح. رواه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» =

وقال رسول الله ﷺ: «لسانُ العاقلِ مِنْ وراءِ قلبهِ، فإذا أرادَ الكلامَ رجع إلى قلبه، فإنْ كان له تكلَّم، وإن كان عليه أمسك، وقلبُ الجاهلِ مِنْ وراءِ لسانه، فهو يتكلَّمُ بكلِّ ما عرضَ لهُ»[1].

وقال ﷺ: «إنَّ الرَّجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مِنْ رِضوانِ اللَّهِ تعالى، ما كان يظنُّ أنْ تبلُغَ ما بلغت، يكتُبُ اللَّهُ له بها رضوانَه إلى يوم القيامة»[2].

وقال ﷺ: «إنَّ الرَّجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمة ما يُلقي لها بالاً يهوي بها في نارِ جهنَّمَ، وإنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يرفعهُ اللَّهُ تعالى بها إلى الجنَّةِ»[3].

وإيَّاك يا أخي والعُجْبَ، فإنَّه مذمومٌ كيف كان: بالنَّفسِ أو بالفعلِ أو بالقولِ، ولا تغترَّ بفعلِكَ ولا بقولِكَ، فإنَّ اللَّهَ تعالى يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢].

= (١٠٤٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» ٤/١٠٧ عن عبد الله بن مسعود.

(١) أورده الغزالي في «الإحياء» ٣/٩٥، وقال الحافظ العراقي: لم أجده مرفوعاً.
قلت: ورواه ابن المبارك في «الزهد» (٣٩٠)، وأحمد في «الزهد» ص ٢٧١، وابن أبي الدنيا في «الصمت» عن الحسن البصري، قال: كانوايقولون، فذكره بنحوه.

(٢) رواه من حديث بلال بن الحارث مالك في «الموطأ» ٢/٢٥١، وأحمد ٣/٤٦٩، والترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٩٤)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٧٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٢٩ - ١١٣٦)، وصححه ابن حبان (٢٨٠ - ٢٨١)، والحاكم ١/٤٦ - ٤٧.

(٣) رواه البخاري (٦٤٧٨) عن أبي هريرة.
قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» ١١/٣١١: قال ابن عبد البر: الكلمة التي يهوي صاحبها بسببها في النار، هي التي يقولها عند السلطان الجائر، وزاد ابن بطال: بالبغي أو بالسعي على المسلم، فتكون سبباً لهلاكه، وإن لم يرد القائل ذلك، لكنها ربما أدّت إلى ذلك، فيكتب على القائل إثمها. والكلمة التي تُرفع بها الدرجات ويُكتب بها الرضوان، هي التي يُدفع بها عن المسلم مظلمة، أو يُفرَّج بها عنه كربة، أو ينصر بها مظلوماً.

وقال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات: شحٌ مُطَاعٌ، وهَوىً مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسه»(١).

وقال ﷺ: «لو لَمْ تُذنبوا، لخشيتُ عليكم ما هُو أشدُّ مِنَ الذَّنب، وهو العُجْبُ»(٢).

وقيل لعائشةَ رضي الله تعالى عنها: متى يكونُ الرجل مسيئاً؟ قالت: إذا ظنَّ أنَّه محسنٌ.

وقال ابنُ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما: الهلاكُ في اثنتين القُنوط والعُجْب.

وإنَّما جمعَ بينهما، لأنَّ القانِطَ لا يطلُب السَّعادة لقُنوطه، وإنَّ المعجَبَ لا يطلُبها لظنِّه أنَّه ظَفَرَ بها.

وذكر عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله تعالى عنهما أنَّه قال يوماً: أنا مِنَ الرَّاسخين في العلم، وقال يوماً: سلُوني قبلَ أن تفقِدُوني، فلما انصرف إلى منزله، بعثَ اللَّهُ له ملكاً على صُورةِ آدميٍّ، فدقَّ عليه الباب، فخرج إليه عبدالله بن عبَّاس، فقال له الملَكُ: يا ابنَ عبَّاس، ما تقولُ في النَّملة مع

---

(١) حديث حسن. رواه البزار في «مسنده» (٨٠ ، ٨١)، وأبو نعيم في «الحلية» ٣٤٣/٢، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٢٥ ـ ٣٢٧) عن أنس بن مالك.
ورواه البزار (٨٢)، وأبو نعيم ١٩/٣، عن ابن عباس وحسَّنه الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» ١٦٢/١. انظر «الأحاديث الصحيحة» للألباني ٤١٢/٤، رقم (١٨٠٢).

(٢) رواه البزار (٣٦٣٣) عن أنس بن مالك.
وجود إسناده المنذري في «الترغبب والترهيب» ٥٧١/٣، والهيثمي في «مجمع الزوائد» ٢٤٣/١٠.
وذكره الحافظ الذهبي في «ميزان الاعتدال» ١٨٠/٢، وقال: ما أحسنه من حديث لو صح!

صِغَرها، أينَ روحُها في مُقَدَّمِها، أو في مُؤَخَّرِها؟ فلم يجِدْ جواباً فدخلَ منزلَه، وأغلقَ بابَه، وآلى على نفسِه أن لا يَدَّعِيَ علماً أبداً.

قال الله تعالى: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٧٦].

وذكر أنه حضر بعض النحوِّيين في مجلس ابن شمعونَ الواعظِ، وكان مِنَ الزُّهَّادِ، فكأنَّ النَّحويَّ أخذَ على الشَّيخ لحناً في لسانه، وغلطاً في كلامه، فانقطعَ عنه النحويُّ، ولم يأتِ إلى مجلسه، فكتبَ إليه ابنُ شمعون: أراكَ من الإعجابِ رضيتَ أن تَقِفَ دُونَ الباب، أما سمعتَ رسالةَ بعض العارفين إلى بعض المتأدِّبين. كتب إليه: مَنِ اعتمدَ على ضَبْطِ أقوالِه، لحن في أفعاله، إنَّك رفعتَ وخفضتَ وجزمت، تهت وانقطعت.

ألا رَفعْتَ إلى الله جميع الحاجات؟ ألاَ خفضتَ صوتَكَ عَنِ المُنكرات؟ ألا جزَمْتَ نفسكَ عَنِ الشَّهوات؟ ألا نصبتَ بينَ عينيْك ميزانَ الممات، أما علمْتَ أنَّه لا يُقالُ غداً للعبدِ: لِمَ لَمْ تكُنْ معرباً وإنَّما يُقالُ له: لِمَ كُنْتَ مذنباً.

يا هٰذا، ليسَ المرغوب الفصاحة في المقال، وإنَّما المرغوب الفصاحةُ في الفعال. ولو كانتِ الفصاحةُ محمودةً في المقال دون الفعال، لكانَ هارونُ أولَى بالرِّسالةِ مِنْ موسى عليهما السلام، قال الله تعالى إخباراً عن قول موسى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾ [القصص: ٣٤]. فَجُعِلَتِ الرِّسالةُ لموسى لفصاحةِ أفعاله، والله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَته.

وأنشدوا:

ولاحن في الفِعَالِ ذو زَلَلٍ ... حتَّى إذا جاءَ قولُه وزَنَه

قال وقد أكسَبَهُ لفظُه ... تِيهاً وعُجْباً أخطأْنْ يا لحنه

قلتُ أخطأ الَّذي يقومُ غداً ... ولا يُرى في كِتَابِهِ حَسَنَه

روي أن رجلاً نظر إلى بِشْرِ بنِ منصور السليمي[1] رضي الله تعالى عنه وهو يُطيلُ الصَّلاة، ويُحْسِنُ العِبَادَةَ، فلمَّا فرغَ قال له: لا يغرَّنك ما رأيتَ منّي، فإنَّ إبليسَ ـ لعنَه اللَّهُ ـ عبدَ اللَّهَ آلافاً من السِّنينَ، ثم صار إلى ما صار إليه.

فمن سعادة المرء أن يُقِرَّ على نفسه بالعجز والتَّقصير في جميع أفعاله وأقواله.

قيل: المهلكات أربع هي: أنا، ونحن، ولي، وعندي.

قال رسولُ الله ﷺ: «النَّادِمُ على الذَّنبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ له»[2] «النادمُ ينتظرُ الرَّحمةَ، والمُعْجَبُ ينتظرُ المَقْتَ مِنَ الله تعالى»[3].

قال أبو الدّرداء رضي الله تعالى عنه: إن ناقدتَ النَّاسَ ناقدوك، وإن تركتَهُم لم يتركُوكَ، وإن هربتَ منهم أدركُوك، فالعاقلُ مَنْ وَهَبَ نفسَه وعِرْضَه ليومِ فقرِه، وما تجرَّعَ مُؤمِنٌ جُرعةً أحبَّ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ مِنْ غيظٍ كظمَه، فاعفُوا يُعِزُّكُمُ اللَّهُ، وإياكم ودمعةَ اليتيم، ودعوةَ المظلوم، فإنَّها تسري باللَّيل والنَّاسُ نيامٌ[4].

---

(١) في الأصول: «الحافي»، وهو خطأ، فبشر الحافي هو ابن حارث. وهذا الأثر أورده أبو نعيم في «الحلية» ٦/٢٤١ في ترجمة بشر السليمي.

(٢) حديث حسن، رواه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٨١)، وأبو نعيم في «الحليه» ٤/٢١٠، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٨٠)عن عبد الله بن مسعود.
ورواه الطبراني ٢٢/(٧٧٥)، وأبو نعيم ١٠/٣٩٨ عن أبي سعد الأنصارى.
وحسنه الحافظ ابن حجر العسقلاني لشواهده كما في «المقاصد الحسنة» للسخاوي ص ٢٤٩.

(٣) حديث ضعيف. رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٥٢٠)، وابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» ٦/٢٤٢٣، عن ابن عباس. وقال ابن عدي: منكر.

(٤) انظر «صفة الصفوة» ١/٦٣٤، و«حلية الأولياء» ١/٢١٨ و ٢٢١.

وقـال عبدُ اللَّهِ بنُ مسعـودٍ رضي الله عنه: أعـظمُ الخطايـا الكذبُ، وسبُّ المؤمنِ فُسوقٌ، وقتالُه كفرٌ، وحُرمَةُ مالِه كحُرمَةِ دمِهِ، [ومن يعفُ، يعفُ الله عنه، ومَنْ يكظِمِ الغيظ، يأجره الله] ومَنْ يغفِرْ، يغفر الله له، ومَنْ يصبر على الرَّزِيَّةِ يُعقِبْهُ اللَّهُ خيراً منها(١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: لمَّا أخذَ موسى عليه السلام الألواح، نظر فيها، وقال: إلهي أكرمتني بكرامةٍ لم تُكرِمْ بها أحداً قبلي، فأوحى الله تعالى إليه: أتدري لِمَ فعلتُ ذلك بك؟ قال: لا. قال: نظرتُ إلى قلوبِ عبادي، فلم أجد قلباً أشدَّ تواضعاً مِنْ قلبِكَ، فلذلك: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

يا موسى، إنَّما أقبلُ مَنْ تواضَعَ لعَظمتي، ولم يتعاظَم على خَلْقي، وألـزَمَ قلبَه خـوفي، وقطَعَ نهـارَه بـذكـري، وكَفَّ لسـانَـه عَنِ الشَّهـواتِ لأجلي(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «ما مِنْ جرعةٍ أحب إلى الله تعالى مِنْ جـرعةِ غيظٍ كظَمها رجل، ومَنْ كظم غيظاً وهو قادِرٌ على إنفاذه، ملأ الله قلبَه أمناً وإيماناً»(٣).

---

(١) «صفة الصفوة» ١/٤١١ ـ ٤١٢، و«حلية الأولياء» ١/١٣٨.

(٢) انظر «الدر المنثور» للسيوطي ٣/١٢٠، و«كنـز العمال» ١٥/٩١٠، و«إتحـاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» للزبيدي ٨/٣٥٦.

(٣) الشطر الأول من الحديث رواه أحمـد ٢/١٢٨، وابن ماجه (٤١٨٩)، عن ابن عمر، وهو صحيح.
والشـطر الثاني رواه الـطبـري في «تفسيـره» (٧٨٤٢)، والعقيلي في «الضعفـاء» ٣/١٠٢ عن أبي هـريرة، والقضـاعي في «مسند الشهـاب» عن رجل من أبنـاء أصحاب رسول الله ﷺ، عن أبيه وهو ضعيف.

وحُكيَ أنَّ غلاماً لجعفرٍ الصَّادقِ رضي الله تعالى عنه سكبَ على يده الماءَ في الطَّشتِ، فطار الماءُ على ثوبه، فنظر إليه جعفرٌ نظرةً منكرة، فقال العبد: يا مولاي: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ قال: كظمتُ غيظي. قال الغلام: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ قال: عفوتُ عنكَ. قال الغلام: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال اذهب، أنت حرٌّ لوجه الله تعالى، ولك مِنْ مالي ألفُ دينارٍ[1].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: ينبغي لحامل القرآن أن يُعرَف بليله، إذا النَّاسُ نائمون، [وبنهاره إذا الناسُ مفطرون، وبحزنه إذا النَّاسُ يفرحون]، وببكائه إذا النَّاسُ يضحكون، وبصمتِه إذا النَّاسُ يخلِطُون، وبخشوعه إذا النَّاس يختالُون، وينبغي لحاملِ القُرآن أن يكونَ باكياً محزُوناً، حليماً سكُوتاً، ولا ينبغي لحاملِ القرآنِ أن يكونَ جافياً، ولا غافلاً، ولا سَخَّاباً، ولا صيَّاحاً، ولا حديداً، ولا مُنزعجاً[2].

قال بعضُ الزَّاهدين: اغتنِمُوا مِنْ زمانكم خمساً: إن حضَرتُم، لم تُعرَفُوا، وإن غبتم لم تُفْقَدُوا، وإن شهِدتُم، لم تُشَاوَرُوا، وإن قُلتُم شيئاً، لم يُقبَلْ قولُكم، وإن عملتم شيئاً، لم تُغْبَطُوا به. وأوصيكم بخمس أيضاً: إن ظُلِمْتُم، لم تظلِمُوا، وإن مُدِحْتُم، لم تفرَحُوا، وإن ذُمِمْتُم لم تَجزعُوا، وإن كُذِّبْتُم لم تغضبُوا، وإن خانوكم فلا تخونوا.

= ورواه أحمد ٣/٤٤٠، وأبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١) و (٢٤٩٣)، وابن ماجه (٤١٨٦) عن معاذ بن أنس بلفظ: «دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء».

(١) ذكرها السيوطي في «الدر المنثور» ٢/٧٣ عن زين العابدين بن علي بن الحسين بن أبي طالب رضي الله عنهم.

(٢) «حلية الأولياء» ١/١٣٠، و«صفة الصفوة» ١/٤١٢ - ٤١٣.



اعلم أنَّ الرِّبا مِنَ المُهلكات وهو أخفى مِنْ دبيب النَّمل على الصَّفاء في اللَّيلة الظَّلماء، وإنَّ أدنى الرِّبا كالَّذي يزني مع أُمِّه والزّنية مع الأُمِّ أعظمُ وِزراً مِنْ سبعينَ زَنْيَةً مع غيرها.

قال الله العظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال رسول الله ﷺ: «دِرهَمُ الرِّبا أشدُّ عندَ الله مِنْ ست وثلاثينَ زنية في الإسلام»(١).

وقال [سَمُرة بن] جندب رضي الله عنه: كان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى صلاةَ الغَداةِ، أقبل علينا بوجهه الشَّريف، وقال: «هل رأى أحدٌ منكم رؤيا؟» قلنا: لا يا رسول الله، فذكر ﷺ حديث الرِّبا. قال: ثمَّ انطلقنا حتَّى أتينَا على نَهر مِنْ دَمٍ وفيه رجلٌ قائمٌ، وعلى شاطىء النَّهر رجلٌ قائم، وبين

---

(١) حديث صحيح. رواه أحمد ٢٢٥/٥، والدارقطني ١٦/٣.

يديه حجارةٌ، فأقبل الرَّجُلُ الَّذي في النَّهر ليخرجَ، فلما أراد أن يخرُجَ، رماه الرَّجُلُ بحجرٍ في فيه، فردَّه حيثُ كانَ، فجعل كلَّما جاءَ ليخرج رمى في فيهِ حجراً، فرجع كما كان».

قال: «فسألتُ عنه، فقيل لي: هٰذا آكلُ الرِّبا يُفْعَلُ به هٰكذا إلى يومِ القيامة»(1).

وقال موسى عليه الصلاة والسلام: يا رب، ما جزاءُ مَنْ يأكُلُ الرِّبا ولم يتُبْ منه؟ قال: يا موسى أطعمهُ يومَ القيامةِ مِنْ شجرِ الزَّقُّوم.

وأنشدوا:

أيا ذا الَّذي قلبُه ميِّتٌ ... بأكلِ الرِّبا ازدَجِرْ وانتَبِه
فكم نائمٍ نامَ في غِبْطَةٍ ... أتته المِنِيَّة في نومَتِهِ
وكم مِنْ مقيمٍ على لَذَّةٍ ... دَهَتْهُ الحوادثُ في لَذَّتِهِ
وكم مِنْ جديدٍ على ظهرها ... سيأتي الزَّمانُ على جِدَّتِه

وأمَّا آكلُ الحرامِ، قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ للَّهِ تبارك وتعالى مَلَكاً على بيت المقدس ينادي في كلِّ يومٍ وليلةٍ: مَنْ أكل حراماً، لم يَقْبَلِ اللَّهُ منه صِرْفاً ولا عدلاً حتى يخرجَ ذٰلك الحرامُ مِنْ بيته، فإن ماتَ على ذٰلك، فأنا بريءٌ منه»(2).

وقال ﷺ: «أخرِجُوا الأمانةَ مِنْ بُيوتكم، وردُّوها إلى أربابها، فإن لم

---

(١) قطعة من حديث مطول رواه البخاري (٧٠٤٧).
(٢) أورده الغزالي في «الإحياء» ٢/٨٩ عن ابن عباس، وقال الحافظ العراقي في تخريجه: لم أقف له على أصل.

تفعَلُوا، فلن تنفَعَكُم أعمـالُكم شيئاً، ولا ينفعكم قـولُ لا إله إلا الله مـع الحرام في البيت»[1].

وقال ﷺ: «منِ اكتسبَ درهماً حلالاً، وأنفقَه في حلالٍ، غفر الله له كُلَّ ذنبٍ إلاَّ الرِّبا والحرام»[1].

قال ﷺ: «طلبُ الحلالِ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ»، أي: بعد فريضة الإيمان[2].

وقال ﷺ: «مَنْ أكلَ لُقْمَةً مِنَ الحرامِ، لم يقبلِ اللَّهُ تعالى منه صلاةَ أربعين يوماً»[3].

«وكل لحم أنبته السُّحْتُ والحرامُ، فالنار أولى به»[4].

وقال ﷺ: «مَن اكتسبَ مالاً حراماً، لم يقبلِ اللَّهُ تعالى منه صدقَةً، ولا عِتْقاً، ولا حجًّا، ولا عُمرةً، وكانت له بعدده أوزاراً، وما يبقى منه بعدَ موتِه كانَ زادَه إلى النَّارِ»[5].

وقال ﷺ: «لو أنَّ رجُلاً اشترى ثوباً بعشرةِ دراهم، وكان فيهم درهمٌ حرامٌ، لم يقبل الله تعالى منه عملاً حتى يُؤدِّيَهُ إلى أهله».

---

(١) لم أجـده.

(٢) رواه الـطبراني في «المعجم الأوسط» عن أنس بن مـالك. وحسنـه الحـافـظان: المنـذري في «التـرغيب والتـرهيب» ٤٥٦/٢، والهيثمي في «مجمـع الـزوائـد» ٢٩١/١٠.

(٣) رواه الديلمي في «مسند الفـردوس» عن ابن مسعود، وقـال الزبيـدي في «شرح الإحياء» ٨/٦: حديث منكر.

(٤) رواه الترمذي (٦١٤) عن كعب بن عجرة، وحسنه.

(٥) لم أجده بهذا اللفظ. وروى ابن حبان في «صحيحه» (٣٣٦٧) بإسناد حسن عن أبي هريرة مرفوعاً: من جمع مالاً حراماً، ثم تصدق به، لم يكن له فيه أجر، وكان إصره عليه».

ويروى في حديث آخر: «لم يقبل منه عملاً ما دام عليه شيءٌ منه»[1].

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة لحم ولا دم نبت من حرامٍ أو خمر»[2].

وقال ﷺ: «لو أن أصحاب المال الحرام استُشهدوا في سبيلِ الله تعالى سبعينَ مرَّةً، لم تكنِ الشَّهادةُ لهم تَوبَةً، وتوبةُ الحرامِ ردُّه إلى أربابه، والاستحلال منهم»[3].

وقال ﷺ: «مَنْ أكل الحلال أربعين يوماً، نَوَّرَ اللَّهُ تعالى قلبَه، وأجرى ينابيعَ الحكمةِ على لسانه، ويهديه الله في الدُّنيا والآخرة»[4].

وفي المناجاة: أنَّ الله تعالى يقول لموسى عليه الصلاة والسلام: إن أردت أن تدعُوَني، فصُنْ بطنَك عن الحرام، وقل: يا ذا المنِّ القديمِ، والفضلِ العميمِ، يا ذا الرَّحمةِ الواسِعَةِ، فإنِّي أُجيبُك فيما سألتني.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: لو صُمتُم حتَّى تكونُوا كالحنايا، وصلَّيتُم حتَّى تكونُوا كالأوتارِ، لم يُقْبَلْ ذٰلك منكم إلَّا بورَعٍ حاجزٍ[5].

وقال بعض أهل العلم: الدُّنيا حلالُها حسابٌ، وحرامُها عقابٌ[5]، والحرام داءٌ لا دواءَ له إلَّا الفِرار للرحمن من أكله.

وأنشدوا في المعنى:

أُشَبِّهُ مَنْ يتوبُ على حرام ... كبيضٍ فاسدٍ تحتَ الحَمامِ

---

(1) حديث ضعيف. رواه أحمد ٢/٩٨.

(2) الطبراني ١٩/١٩٢.

(3) لم أجده.

(4) ضعيف. رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» ٥/١٨٩ عن أبي أيوب الأنصاري بلفظ: «من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة...».

(5) انظر «الإحياء» ٢/٩١.

يطولُ عناؤُه في غيرِ شُغْلٍ وآخِرُهُ يقومُ بلا تَمامِ
إذا كانَ المقامُ على حرام فلا معنى لتطويل القِيامِ

وقال يحيى بن معاذ رضي الله تعالى عنه: الطَّاعةُ مخزونَةٌ في خزائنِ الله تعالى، ومفتاحُها الدُّعاء، وأسنانُه أكلُ الحلالِ، فإذا لم يكن في المفتاحِ أسنان، فلا يفتح الباب، وإذا لم تفتح الخزانة كيف يتوصل إلى ما فيها من الطاعة.

فصُنْ لُقْمَتَكَ، وأطِبْ طُعمَتَك حتَّى يتبَيَّن لكَ مبيض صالح العمل من مسود خيطِ الأمل من فجرِ الأجل، ثمَّ أتِمَّ صيامَ الجوارحِ عَنْ حرامِ طعامِ الآثام إلى ليلِ القيامِ، فتفْطر على فوائد موائد ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

ومن لم يجتنب الحرامَ مِنَ الطَّعام، أفطر بعدَ طُول الصِّيامِ على مَرارةِ حرارةِ ثمرةِ الزَّقُّوم، فيا لَهُ مِنْ طعامٍ، ما أعظم ضَرَرَهُ! يُفَتِّتُ الفؤاد، ويقطع الأكبادَ، ويُمَزِّقُ الأجسادَ، ويورِثُ الأنكاد في الميعاد.

وقال سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه: كنت أقرأ الآيَةَ فَيُفْتَحُ لي فيها سبعونَ باباً مِنَ العلم، فلمَّا أكلتُ مالَ هٰؤلاء الأُمراءِ، صِرتُ أقرأُ الآية، فلم يُفتَحُ لي فيها بابٌ واحدٌ.

فالحرام مِنَ القُوتِ نارٌ تُذيبُ شحمةَ الفكر، وتُذهِبُ لَذَّة حلاوة الذِّكر، وتحرِقُ ثِيابَ إخلاصِ النِّيَّاتِ، ومِنَ الحرام يتولَّدُ عَمى البصيرة وظلام السَّريرة.

فاكتسب مالاً حلالاً، وأنفِقْه في قصدٍ، واجتنبِ الحرامَ وأهلَه، ولا تجالِسْهُم، ولا تأكل طعامَهم، ولا تصحب مَنْ كَسْبُه مِنَ الحرام إن كُنتَ صادقاً في ورَعِكَ، ولا تَدُلَّنَّ أحداً على الحرام فيأكله هو وتحاسَب أنت عليه، ولا تُعِنْه أيضاً على طلَبِهِ، فإنَّ المعينَ شريكٌ.

واعلم أنَّه إنمَّا تُقْبَلُ الأعمالُ مِنْ آكِلِ الحلال.

ويتعلق بذلك كتمانُ الفاقةِ والحسرات وإخفاء الأنين والزَّفرات، والرُّكون في الخلوات.

وأمَّا أكل مال اليتيم، فلو لم يكن فيه إلاَّ ما نطق به القرآنُ العظيم على لسان نبيِّه الكريم ﷺ حيث قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وأما الخيانةُ في الوزن والكيل، فاجتنب ذلك يا أخي ما استطعتَ، فإنَّ الله تعالى قد أمرك بالعهد فيهما في قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣].

وأياكَ يا أخي أن تغتَبِطَ بشيءٍ مِنْ حُقوقِ المسلمين، فإنَّ البركَةَ لا تكونُ مع الخيانةِ، وإنَّ قليلاً مِنَ الحرام يُتْلِفُ كثيراً مِنَ الحلال.

وإياك يا أخي إنْ خُنتَ درهماً، خانك إبليس في سبعينَ درهماً.

قال رسولُ الله ﷺ: «ثلاثةٌ مَنْ كُنَّ فيه فَهُو مُنافِقٌ، وإن صلَّى وصامَ: مَنْ إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وَعَدَ أخلفَ، وإذا ائْتُمِنَ خانَ»(١).

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) عن أبي هريرة.

وقال بعضهم دخلت لزيارة جارٍ لي كان يبيع الحنطةَ، فلمَّا قعدتُ عند رأسه وهو يقول: جبلان مِنْ نار، جبلان مِن نار، فسألتُ زوجَته، فقالت: إنَّه كال له مُدَّانِ، أحدُهما كبير، والآخر صغير، فإذا ابتاعَ مِنْ أحدٍ شيئاً اكتال بالمُدِّ الكبير، وإذا باع هو لأحدٍ شيئاً، كال له بالمدِّ الصَّغير، فعلمتُ أنَّ المُدَّين هما اللذان تصَّورا له جبلين من نار.

قيل: وكان رجلٌ بالبادية لبَّانٌ يخلط اللبن بالماءِ، فجاء السَّيلُ، فذهبَ بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعتْ تلكَ القطراتُ، فصارت سيلاً، ولسان الجزاء يناديه ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠].

واعلم أنَّ السَّرِقَة والخيانةَ أمران مهلكان ضارَّان بالدِّين.

وفي المناجاة: أنَّ الله تبارك وتعالى قال لموسى عليه الصَّلاة والسَّلام: ستة في ناري وغضبي؛ فأوَّلُهم مَنْ طال عمرُهُ وساء خلقه، وغنيٌّ سارِقٌ، وعالمٌ فاسقٌ، ومَنْ أتاني على غير توبةٍ، ومَنْ لَقِيَنِي بدمِ مؤمنٍ متعمِّداً، ومَنْ منعَ حقَّ امرىءٍ مسلم وأكله غَصْباً.

وقال ﷺ: «مَنْ غَشَّنا فليس منا»(١).

ذكرَ أنَّه وُجِدَت على صخرةٍ مِنْ بيتِ المقدس مكتوب عليها ستُّ كلمات: كلُّ عاصٍ مستوحشٌ، وكلُّ مطيعٍ مستأنِسٌ، وكلُّ خائفٍ هاربٌ، وكلُّ راجٍ طالبٌ، وكلُّ مقتنعٍ غنيٌّ، وكلُّ حريصٍ فقيرٌ.

وأما الأَيْمَانُ الكاذِبةُ، فإنه رُوِيَ عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «الحلفُ حِنْثٌ أو ندَمٌ»(٢).

---

(١) رواه مسلم (١٠١) عن أبي هريرة.
(٢) حديث ضعيف رواه ابن ماجه (٢١٠٣) عن ابن عمر مرفوعاً، ورواه الحاكم في =

وقيل: مرَّ رسولُ الله ﷺ برجلٍ مِنْ أصحابه وهو يضرِبُ عبداً لـه، والعبدُ يقولُ له: أسألُك بوجه الله إلاَّ ما تركتني، وهو يـزيد في ضـربه، فسمع رسولُ الله ﷺ صِياحَ العبدِ، فانطلق إليه، فلما رآه السَّيِّـدُ أمسكَ، فقـال رسول الله ﷺ: «سـألكَ بـوجهِ الله العـظيمِ، فلم تَعْفُ عنه، فلمَّـا رأيتني، أمسكتَ يدَك»، فقال: يا رسول الله أُشهِدُكَ أنَّه حرٌّ لوجهِ الله تعالى العظيم، فقال له رسول الله ﷺ: «لو لَمْ تفعَل، للفَحَتِ النَّارُ وجهَكَ»(١).

فإيَّاك والتَّعرُّض لمقتِ الله تعالى بكثرةِ الأيمانِ، فإنَّ اللَّهَ تعالى يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

وفي الإسرائيليات: أنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: يا رب، ما لِمَن يحلِفُ بكَ كاذباً؟ قال: أجعلُ لسانَه بينَ جمرتين أحقـاباً. قـال: يا رب، فما على مَنِ اقتطَع مالَ مسلمٍ بيمينٍ فاجرةٍ؟ قال: قال أقطعُ حظَّه مِنَ الجَنَّةِ.

وقـال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله تعـالى أذِنَ لي أنْ أحدِّثَ عَنْ ملَكٍ(٢) مِنْ حَملَةِ العـرش رجـلاه قـد خـرقت الأرض السُّفلى، وعنقـه مثنيٌّ تحتَ العرشِ، فيرفَعُ رأسَه وهو يقول: يا إلٰهي وسيِّدي، ما أعظمَكَ! فيقولُ اللَّهُ تعالى: ما عرفَ ذٰلك مِنْ حَلَفَ بي كاذباً»(٣).

وأما شربُ الخمرِ، فإنَّه مِنْ أكبرِ الكبائر، وقد وردَ عَنْ رسولِ الله ﷺ

= «المستدرك» ٤/٣٠٣ - ٣٠٤ بإسناد صحيح عن ابن عمر قال: إنما اليمين مأثمة أو مندمة.

ورواه البيهقي في «السنن» ١٠/٣١ بهذا اللفظ عن عمر رضي الله عنه.

(١) انظر «صحيح مسلم» (١٦٥٩).

(٢) في مصادر التخريج: «عن ديك..».

(٣) حديث صحيح. رواه الحاكم ٤/٢٩٧، وصححه ووافقه الذهبي، وكذلك صححه الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» ٢/٦٢٣.

أنَّه كانَ يقولُ: «مَنْ شرِبَ مِنَ الخمرِ شربَةً لم تُقبَلْ منه صلاةٌ سبعةَ أيَّامٍ، ولم يُقْبَلْ منهُ صيامٌ»[1].

واعلم أنَّ في شربها عشرةَ خصالٍ مذمومة:

أوَّلُها: أنَّها تُذهِبُ عقل شاربها حتَّى يصيرَ مضحكةً للصِّبيان، ومهزأةً كما روي عن [ابن] أبي الدُّنيا أنَّه قال: رأيتُ سكرانَ يبولُ ويمسحُ وجهَه ببَوْلِه، وهو يقول: اللَّهُمَّ اجعلني مِنَ التَّوَّابين، واجعلني مِنَ المتطهِّرين.

ورأى سكران قد تقيَّأ والكلبُ يلحسُ فاهُ، والسَّكرانُ يقول: أكرمَكَ اللَّهُ يا سيِّدي كرامةَ أوليائِه.

والثَّانية: أنَّها تُتْلِفُ المالَ وتُفسده، وتُعْقِبُ الفقرَ، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: اللَّهِمَّ أرِنَا في الخمرِ فإنَّها مُتْلِفَةٌ للمال، مذهِبَةٌ للعقل[2].

والثالثة: أنَّها تُوقِعُ العداوةَ والبغضاءَ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١] ويريد: انتهوا عنهما. قال عمر: انتهيت يا ربِّ انتهيت[3].

والرابعة: يُحْرَمُ صاحبُها لذَّةَ الطَّعام وصواب الكلام.

---

(١) رواه بلفظ«من شرب الخمر فسكر، لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً» أحمد ١٧٦/٢ والنسائي ٣١٤/٨، ٣١٧، وابن ماجه (٣٣٧٧)، وصححه الحاكم ١٤٦/٤، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر «سنن أبي داود» (٣٦٧٠)، و«سنن الترمذي (٣٠٤٩)، و«مستدرك الحاكم» ١٤٣/٤، و«الدر المنثور» للسيوطي ٦٠٥/١.

(٣) انظر التعليق السابق.

والخامسة: أنَّها تَحْرُمُ عليه زوجتُه، فتكون معه على الزِّنى، وذلك أنَّ أكثر كلامِه بالطَّلاقِ، فرُبَّما حنِثَ ولم يشعر، فيكون معها زانياً، فإنَّه رُوِيَ عن بعض الصَّحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين: مَنْ أنكح كريمتَه شاربَ الخمرِ، فقد ساقه للزِّنى.

والسادسة: أنَّها مفتاحُ كلِّ شرٍّ توقعه في جميع المعاصي، كما رُوِيَ عن عثمانَ بن عفّان رضي الله تعالى عنه أنَّه قال في خطبته: أيُّها الناس، اتقوا شرب الخمرِ، فإنَّها أم الخبائث(١).

والسابعة: أنها تؤذي حفظَتَه بإدخالها في مجلسِ الفُسوقِ والفجور والرَّوائحِ الكريهةِ.

والثامنة: أنَّه أوجبَ على نفسه الحدَّ ثمانينَ جلدةً، فإنْ لم يُضرَبْهَا في الدُّنيا ضُرِبَ في الآخرة على رؤوس الأشهادِ.

والتاسعة: أنها تُسَدُّ دونه أبوابُ السَّماءِ، فلا يُرْفَعُ له عملٌ ولا دعاءٌ أربعينَ يوماً.

والعاشرة: أنَّه خاطَرَ بنفسه ودينه، فيُخَافُ عليه أن يُنزَعَ منه الإيمانُ عندَ الموتِ.

كما رُوي عن بعضهم أنَّه قال: رأيتُ إنساناً يجود بنفسه عندَ الموتِ وهو يقال له: قل لا إله إلاَّ الله، فكان يقول: اشرب واسقني. وذُكِرَ عن عبدالله بن مسعود أنَّه قال: إذا ماتَ العبدُ المخمر، فادفنوه واحبسوني، واحفروا عليه، فإنْ لم تجِدُوا وجهَه مصروفاً عَنِ القبلةِ، وإلاَّ اضربوا عنقي.

فهذه عقوبته في الدنيا، وأما عقوبته في الآخرة، فإنَّها لا تُحصى مِنْ

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (١٧٠٦٠)، والنسائي ٨/٣١٥ - ٣١٦ عن عثمان رضي الله عنه موقوفاً، ورواه بعضهم مرفوعاً والموقوف أصح.

شُربِ الحميم والزَّقُّومِ وعُصارةِ أهلِ النَّار في النَّـارِ، إلى غير ذٰلـكَ مِنَ العذاب والنَّكال. أعاذنا الله تعالى منه.

وأمَّا ما أعدَّ الله تعالى لتارِكِ الصَّلاةِ على صِحَّةِ البدن، فمنه ما رُوِيَ عَنْ عبدِ الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسـوُل الله ﷺ: «ليسَ بين الكافرِ والمسلم إلَّا تركُ الصَّلاةِ، فإنَّ تاركَ الصَّلاةِ على صحَّةِ البَدَنِ يبتليه الله تعالى بخمسةَ عشر عقوبةً، منها ستَّةٌ في الدُّنيا، وثلاثةٌ عند موته، وثلاثةٌ في قبره، وثلاثةٌ عند لقاءِ ربِّه.

فأمَّا الَّتي تُصيبُه في الدُّنيا، فيرفَعُ الله تعالى البركَة مِنْ عمره.

والثَّانيةُ: يرفع الله البركةَ مِنْ رزقه.

والثَّالثةُ: تزولُ سيما الخير مِنْ وجهه.

والرَّابعةُ: كلُّ عملٍ يعملُه لا يُقْبَلُ منه شيءٌ.

والخامسةُ: كلُّ دعائهِ لا يُسمَعُ.

والسَّادسةُ: لا حَظَّ له في الإسلام.

قيل: يا رسول الله، فما الثَّلاثةُ التي تصيبُه عندَ المـوتِ؟ قـال ﷺ: «يموتُ حيراناً ذليلاً ولا يدري على أيِّ دينٍ يموتُ، ويمـوتُ عطشـاناً جيعـاناً ولو سُقي أنهارَ الدُّنيا كلَّها ما رَوِيَ».

قيل: يا رسول الله، فما الثَّلاثةُ الَّتي تصيبُه في قبره. قـال: «ظُلمَةُ القبرِ وضِيقُه، ومسألة مُنكر ونكير».

قيل: يا رسول الله، فما الثَّلاثةُ الَّتي تصيبُـه عند لقـاء ربِّه؟ قـال: «يلقى الله تعالى وهو غضبان عليه، ويبعث الله له ملكاً يَكُبُّه على وجهه في

النَّارِ، ويعذِّبه الله في النَّار بالوادي الذي يقال له ويل»[1].

قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٥].

وقال ﷺ: «عشرةٌ من أُمَّتي سَخِطَ الله تعالى عليهم ولعَنهُم وأعدَّ الله لهم عذاباً أليماً، ويأمُرُ الله تعالى بهم يومَ القيامةِ إلى النَّارِ»، قيل: مَنْ هُم يا رسولَ الله؟

قال: «أوَّلُهُمْ: الشَّيخُ الزَّاني. والثَّاني: الإمامُ الظَّالمُ. والثَّالث: مُدْمِنُ الخمر. والرَّابع: مانعُ الزَّكاةِ. والخامسُ: شاهِدُ الزُّورِ. والسَّادِسُ: الماشي بينَ النَّاس بالنَّميمةِ. والسَّابعُ: الَّذي ينظرُ لوالديه بنظر الغضب. والثَّامِنُ: مَنْ يُطلِّقُ زوجَته ثمَّ يُمسِكُها على الحرام. والتَّاسِعُ: الَّذي يحكُم بالجُورِ. والعاشرُ: تارِكُ الصَّلاة على صِحَّةِ البدن»[2].

وسُئلَ ابنُ عبَّاس رضي الله تعالى عنهما عَنْ تارِكِ الصَّلاة على صحَّةِ البدن: هل يُقبَلُ منه التَّوحيد؟ قال: مَنْ لا صلاةَ له لا توحيدَ له، ومن لا صلاةَ له، لا زكاةَ له، ومِنْ لا صلاةَ له، لا صيام له. قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ ٥٩].

وغياً: وادٍ في جهنَّم لا يدخُلُه إلَّا تارِكُ الصَّلاة.

---

(١) حديث موضوع، ذكره ابن كنان العراقي في «تنزيه الشريعة المرفوعة» ٢/١١٣، وقال الذهبي في «ميزان الاعتدال» ٣/٦٥٣ حديث باطل، وقال ابن حجر في «لسان الميزان» ٥/٢٩٥: هو ظاهر البطلان من أحاديث الطُّرقية».
وقوله ﷺ: «ليس بين الكافر والمسلم إلا ترك الصلاة»، أخرجه مسلم (٨٢) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه.

(٢) لم أجده.

قال ابن عبَّاس: أوَّلُ ما يُسأل العبدُ يومَ القيامةِ عنِ الصَّلاةِ، فإنْ قُبِلَتْ منه، قُبِلَ سائرُ عمله.

وتارك الصَّلاةِ على صحَّةِ البدن إذا رفَعَ اللُّقمَةَ مِنَ القصعة، تقول: رفعني عدوٌّ الله إلى فمٍ لم يذكر الله.

وتارك الصَّلاة على صحَّةِ البدن يُسَوِّدُ الله وجهَه، ويُضَيِّقُ خُلُقَهُ، ويُقَتِّرُ رزقَه، وتتقمَّلُ ثيابُه، ويُبْغِضُهُ الله تعالى، ويبغضه جيرانه ويجورُ عليه سلطانه.

وتارك الصَّلاة على صحَّة البدن، لا تجوزُ شهادتُه، ولا يحِلُّ لمسلمٍ أن يُؤَاكِلَه أو يزوِّجَه ابنتَه، ولا يدخُلُ معه تحتَ سقفٍ واحدٍ.

وتارك الصَّلاةِ على صحَّةِ البدن، يأتي يومَ القيامةِ على جبهته مكتوبٌ ثلاثةُ أسطر:

في السَّطرِ الأول: يا مُضَيِّعَ حقوق الله.

وفي الثَّاني: يا مخصوصاً بغضبِ الله تعالى.

وفي الثَّالث: كما ضيَّعْتَ حقَّ الله، فأْيَسِ اليومَ مِنْ رحمةِ الله تعالى.

وفي الخبر أنَّ النَّار تقولُ لتاركِ الصَّلاةِ: أنتَ لي وليٌّ، يا ليتَ أنَّ اللّهَ جمعَ بيني وبينك، فأنتَقِمُ للصَّلاة منك، أنت عدوٌّ للصَّلاة، والله عدوٌّ لكَ.

وتقول له الجنَّةُ: يا عدوَّ الله، ضيَّعْتَ أمانةَ الله تعالى، وتهاونتَ بفريضةِ الله، فإنِّي محرَّمةٌ عليك حين يتبوَّأُ عبادُ الله مِنِّي حيثُ يشاؤونَ، ما جرت أنهاري، وتجاوبت أطياري، وسَطَع نوري، وتزيَّنَ حُوري، فأنا وما فيَّ مِنَ الحُور والسُّرور والوِلدان، والقصور، حرامٌ عليكَ أبد الآبدين.

كمُل بحرُ الدَّموع لابن الجوزي رضي الله تعالى عنه

والحمد لله وحده وصلى الله على مَنح لا نبيَّ بعده

الفهرس

الموضوع	الصفحة